

THE
UNIVERSITY OF CHICAGO
PRESS



Bibliotheca Alexandrina



0035375

سلسلة المذكرات

دار تونقال للنشر

تونس في

البلاد العربية

واروب

دار تونقال للنشر

عدد ١٠٠٠ نسخة الطبعة الأولى

طبعة الأولى: ١٩٥٥

٢٤.٠٥.٩٢



أسس الفكر
الفلسفي المعاصر
مجازة الميتافيزيقا

للمؤلف

الفلسفة السياسية عند الفارابي

دار الطليعة، بيروت 1979 الطبعة الثانية 1981، الطبعة الثالثة 1986.

الميتافيزيقا، العلم والايديولوجيا

الشركة المغربية للتأشيرين المتحدين - دار الطليعة الرباط / بيروت 1981

التراث والاختلاف

المركز الثقافي العربي دار التنوير بيروت / الدار البيضاء 1985

الكتابة والتناسخ

(مبد الفتح كيليطو) ترجمة، المركز الثقافي العربي دار التنوير بيروت / الدار البيضاء 1985

درس الايستيمولوجيا

(بالاشتراك مع س. بنوت) دار تويقال للنشر الدار البيضاء 1985

الرمز والسلطة

ترجمة، دار تويقال للنشر الدار البيضاء 1986

درس السيميولوجيا

ترجمة، دار تويقال للنشر الدار البيضاء 1985 ط2 1986

التراث والهوية

دار تويقال للنشر 1987

جينياالوجيا المعرفة

(بالاشتراك مع أ. السطاتي) دار تويقال 1988

الفلسفة الحديثة

إعداد و ترجمة، (بالاشتراك مع م. سيلا) دار الامان، الرباط، 1991

دقائق فلسفية

1 - التفكير الفلسفي

إعداد و ترجمة (بالاشتراك مع م. سيلا)، دار تويقال 1991

دقائق فلسفية

2 - الطبيعة والثقافة

إعداد و ترجمة، (بالاشتراك مع م. سيلا)، دار تويقال 1991

عبد السلام بنعيد العالي

أسس الفكر الفلسفي المعاصر

مجازة الميتافيزيقا



دار تويقال للنشر

عمارة معهد التسيير التطبيقي - ساحة محطة المطار

بلقدير، الدار البيضاء 05 - المغرب

الهاتف : 24. 06. 05 / 42

تم نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة
المعرفة الفلسفية

الطبعة الأولى ، 1991
جميع الحقوق محفوظة

رقم الإيداع القانوني : 1991/780

تمهيد

قد يتساءل المقدم على قراءة هذا البحث عن مبرراته وجدواه، وهو لن يعمل بذلك إلا على التصريح بما خالج الباحث ذاته، وهو يقدم على بحثه، والتعبير عن التردد الذي راوده منذ البداية، بل وعند اختيار الموضوع. وبالفعل، فما إن يطالعنا العنوان حتى نأخذ في التساؤل: ما الداعي إلى البحث في أسس فكر يقدم لنا نفسه مؤرخاً مؤسساً؟ فكر ما قتي يؤول نفسه ويؤسسها، ويتقصى أصوله ويبحث عن أسسه، هذا في وقت تبدو فيه الحاجة ماسة إلى البحث في أصول فكرنا العربي وتراثنا الإسلامي؟ ثم حتى إن كان الأمر لا يعدو أن يكون تلخيصاً وحسراً للكيفيات التي نظر بها ذلك الفكر إلى نفسه، ووقوفاً عند المنابع التي نهل منها، والأصول التي تفرع عنها، فإن ذلك لن يرقى إلى مستوى الفلسفة، ولن يعدو مجال التاريخ. إنه لن يتعدى مستوى الوصف والتقرير، ولن يبلغ مستوى النقد والتأويل، لأنه لا يمكن أن يكون كذلك ما لم يصبح سؤالاً حياً، وما لم يصدر عن أزمة فكرية ومعاناة حقيقية، وما لم يكن يعنيننا في هويتنا ويمسنا في صميمنا. هل يكفي أن نقول رداً على هذا، إننا مضطرون مع ذلك إلى التفتح على فكر الآخر حتى إن لم يتعد ذلك التفتح، في

البداية، مجرد النقل والترجمة، والتلخيص والوقوف عند الأصول، وإننا مطالبون بالمساهمة في العالمية والكونية، ومدعوون، على غرار ما فعله أجدادنا، إلى الإدلاء بدلونا، في بناء «الفكر البشري»، وإن السبيل إلى ذلك هو الأخذ والعطاء، ودفع اللغة العربية إلى اقتحام أبواب الفكر المعاصر؟

بيد أن هذه الإجابة لن تبدو مقنعة إلا لمن يقول بـ «فكر بشري» يتعالى عن الاختلافات اللغوية، والفروق الحضارية والسياسية والإيديولوجية. وهي تنفي، على الخصوص، كون مفهوم «العالمية» ذاته، مفهوماً له تاريخه.

ذلك أن مساهمتنا في «العالمية» تطرح، في نظرنا، طرحاً خاطئاً عندما نقيسها على مساهمة أجدادنا. فرق بين أن نفترض فكراً شمولياً Universelle عالمياً فتتساءل عماذا كانت مساهمتنا فيه؟ وما هي الآن؟ وكيف ينبغي أن تكون؟ وبين أن نقول: إن للعالمية تاريخاً، وإن الفكر أصبح، ولأول مرة، بفضل سيادة التقنية فكراً كونياً Planétaire، وهذا لا لافتراض كونية ميتافيزيقية وفكر شمولي، وإنما للتغيير الذي لحق مفهوم الوجود ذاته، بفضل اكتساح التقنية، فأصاب تبعاً لذلك مفهوم العالم، بل ومفهوم الفكر.

سيفقد الفكر الكوني هنا العالم وقد سادته التقنية، خريطة أن تأخذ التقنية في معناها القوي، من حيث إنها اكتمال للميتافيزيقا كما بين هايدغر، وكما سيتضح من خلال هذا البحث. والظاهر أن علينا أن نتوقف، منذ الآن، عند هذه النقطة بشيء من التطويل، لا لتعزيز رأينا فحسب، وإنما تمهيداً لبحثنا الذي يتوخى بالضبط الوقوف عند أصول ذلك الفكر، وتحديد ماهية التقنية ومجاوزة الميتافيزيقا.

فما الذي يميز الفكر الكوني؟ ما الذي يميز الوجود وقد اكتسحته التقنية؟ هل اكتساح التقنية هو مجرد تطور لعلاقة الإنسان بالطبيعة تولد عن تراكمات تاريخية، لم تحدث أية قطيعة مع ما سبقتها، أم أنه انقلاب أنطولوجي، لحق الوجود ذاته، وعينه كإرادة قوة، فبدل مفهوم الحقيقة، وغير علاقة الإنسان بالإنسان، وعلاقة هذا بالوجود؟

الظاهر أن علينا أن نقف عند مفهوم التقنية ذاته. وسنجد أنفسنا منذ تمهيد

هذا البحث، مضطرين إلى الوقوف عند الأسس، والرجوع إلى الأصول. ذلك أن كل حديث عن أسس الفكر المعاصر لا يمكن أن يستهل، في نظرنا، إلا بالوقوف عند أصل التقنية وتحديد ماهيتها. ولو نحن عدنا لتلك الأصول، كما يفعل هايدغر(1)، لتبيننا أن الكلمة الاغريقية تيخني قد ظلت مرتبطة، حتى عصر أفلاطون، بكلمة ابيسييمي، كلتاهما كانت تستخدم للدلالة على المعرفة في معناها العام (2).

إن النقطة الأساسية في التيخني لم تكن لتكمن نهائيا في الفعل والاستعمال، ولا في استخدام الأدوات، وإنما في الانكشاف. التيخني جزء من البوييسيس. إنها إنتاج. لكنها ليست كذلك بمعنى الصنع، وإنما بمعنى الانكشاف(3).. وإذا كانت التقنية الحديثة هي كذلك انكشافا "إلا أن الانكشاف الذي يحكم التقنية الحديثة تحريض عن طريقه تظل الطبيعة على استعداد لأن تسلم طاقة يمكن أن تستخرج وتتراكم"(4).. الانكشاف يتعلق هنا بالطبيعة، ولكن لا بالطبيعة بمعناها الأصلي أي كافتتاح وفيزيس، وإنما بالطبيعة كأهم مستودع للطاقة. وإنسان عصر التقنية مدعو إلى هذا الكشف. وسلوكه هذا يمثل أولا في ظهور العلم الحديث، العلم المضبوط للطبيعة. إن شكل التمثل الخاص بهذا العلم يطارد الطبيعة وينظر إليها على أنها مركب من القوى قابل للحساب الرياضي. ليست الفيزياء الحديثة، التي هي علم تلك الطبيعة، فيزياء تجريبية لأنها "تطبق" على الطبيعة آلات من أجل فحصها وتحصيلها. ربما كان عكس ذلك هو الصحيح. فلان الفيزياء، مسبقا وكنظرية خالصة، تجبر الطبيعة كي تظهر مركبا من القوى قابلا للحساب الرياضي، أمكن للتجريب أن يحصها. ذلك أن الآلية بمعناها الحديث، ليست مجرد تطبيق لعلوم الطبيعة، إننا لا نفهمها كذلك إلا في إطار رؤية ميتافيزيقية تفصل النظر عن العمل، والمعرفة عن التطبيق. إن الآلية الحديثة شكل من أشكال الممارسة، وهي حلول لممارسة جديدة. فليست ماهية الآلية تحويلا للأداة إلى آلة بقدر ما هي قائمة في طبيعة الآلة ذاتها، تلك الآلة التي ليست كذلك

Heidegger, "La question de la technique", in *Essais et conférences*, Gallimard, p. 58. (1)

Heidegger, op. cité, p. 18. (2)

Ibid, p. 19. (3)

Ibid, p. 20 (4)

إلا بمقدار ما فيها من رياضيات. الآلة آلة باطنيا، وانطلاقا من الجدة النوعية للمعرفة المستخدمة، لا خارجيا وكتطبيق للمعرفة بصفة عامة(5). المعرفة التي بفضلها اتخذت الممارسة شكلا آليا هي الرياضيات. إنها المعرفة التي أصبح فيها الوجود ذا طبيعة رياضية، وأصبحت الطبيعة تتكلم مثلثات ومربعات كما يقول غاليليو.

يتعلق الأمر بمعرفة «تجعلنا سادة على الطبيعة وممتلكين لها». إرادة المعرفة هنا إرادة قوة وتمكن. والمعرفة العلمية ذاتها لم تصبح رياضية إلا بالارتباط مع هذا الصراع وبغية السيطرة. بهذا سيتغير مفهوم الانكشاف، ويصبح «مجرد فعالية وتأثير»(6)، ويفقد البويسيس صناعة وإنتاجا صناعيا.

وبما أن الواقع الفعلي يمثل هنا في وحدة الحسابات التي تنقلها التصاميم، فإن الإنسان ذاته يحشر في هذه الوحدة والانسجام "ويتمدد الموجود في غياب الاختلاف، ذلك الغياب الذي لا يضمن ويضبط إلا عن طريق الفعالية والتنظيم الذي يستجيب لمبدأ الانتاجية. ورغم أن هذا المبدأ يظهر أنه يؤدي إلى نظام تراتبي، إلا أنه يقوم أساسا، على غياب كل تراتب، حيث إن مرمى الانتاج ليس إلا الفراغ الموحد"(7). يتجلى مما سبق أن ما يتمخض عن مبدأ الانتاجية هو غياب الاختلاف. وأن التقنية تسعى نحو التطابق والانسجام وتهاب التنوع والاختلاف. التقنية إذن شكل من أشكال الحقيقة وكيفية من كيفيات الوجود. وما انتشار الآلات ونماذج التنمية والتصاميم والمخططات وتطور أدوات التواصل، واكتساح الاعلاميات لكل الحقول إلا شكل من أشكال الحقيقة، وكيفية من الكيفيات التي يخفي فيها الوجود اليوم ليظهر كمستودع. إنها الصورة التي أصبح فيها الوجود ذا طبيعة رياضية. هو إذن انقلاب أنطولوجي جعل الفكر الكوني معادلا لعالم التقنية.

لا يتعلق الأمر إذن بفكر شمولي وكيان ميتافيزيقي. لكن الأهم من ذلك أن الأمر لا يتعلق بفكر يخص حضارة دون غيرها، أو قسما من الانسانية دون غيره.

Cf, Beaufret (V), "Le dialogue avec le marxisme et la question de la technique" in (5)

Dialogue avec Heidegger, T. II, Minuit, 1973, pp. 151 - 2.

Heidegger, Essais, opp. cité p. 45. (6)

Heidegger, "Le dépassement et la métaphysique" in Essais, op. cité, pp. 112 - 13. (7)

فلا يعني الفكر الكوني هنا ما درجنا على تسميته فكراً غريباً. الكوني المقصود هنا عصر من عصور العالم، وشكل من أشكال الحقيقة، وهو لا يحيل لأي معنى عرقي أو جغرافي أو قومي (8). إن الكونية المقصودة هنا لا هوية لها، وربما كانت اليوم هي ما يحدد كل هوية. لا سبيل إذن لافتراض مفهوم مطلق عن القصورومية، ولا معنى للأصالة إلا في إطار هذا الفكر الكوني. وليس هناك ولن يكون فكر أصيل، كل ما هناك هو كينيات أصيلة للمشاركة في العالمية والمساهمة في الفكر الكوني، ومجازة التقنية من حيث هي اكتمال للميتافيزيقا. لذلك فإن كل سؤال فلسفي لا مفر له اليوم من أن يجد نفسه منخرطاً في هذه الكونية، ولا بد من أن يطرح على الفكر بما هو فكر كوني. وعندما أعلن فوكو، في درسه الاقتحائي، «أن عصرنا محاولة الانفلات من قبضة هيجل» (9)، فهو لم يعمل في الحقيقة إلا على بلورة إشكالية الفكر الفلسفي المعاصر. ذلك أن هيجل المقصود هنا هو الفيلسوف الذي «اكتملت» عنده الميتافيزيقا، من هنا يصبح هم الفلسفة بعده هو محاولة الانفلات من الميتافيزيقا ومجاوزتها.

الحديث عن أصول الفكر الفلسفي المعاصر إذن هو أساساً حديث عن الأصول الفلسفية لهذه الإشكالية، وقيام بجنيالوجيا الميتافيزيقا لرصد مختلف المفاهيم الأساسية التي يحاول الفكر المعاصر أن يخلخلها بغية الانفلات من قبضة هيجل ومجازة الفلسفة.

(8) يقول هايدغر :

"اليوناني والمسيحي والكروني والغربي. كل هذه العصور تدركها انطلاقاً من خاتمة أساسية للوجود، وهي أن الوجود بما هو حقيقته والكشاف، فهو يعني أكثر مما يظهر.

Heidegger, *Chemins qui ne mènent nulle part*, Gallimard, 1962, p. 274.

Foucault, *L'ordre du discours*, Gallimard, 1971, p. 74. (9)

ما يقوله فوكو هنا ليس إلا ترديداً لمشي تداولت الثلاثة الفرنسية منذ أيام كوجيف. وبالفعل فقد كتب هذا الأخير سنة 1946، «إن مستقبل العالم، وبالتالي فإن معنى الحاضر ودلالة الماضي، كل هذه الأمور تتوقف في نهاية التحليل على الكيفية التي تزول بها الجرم كتليات هيجل».

A. Kojève, in *Critique*, N° 23 1946, p. 366.

وهذا المعنى تجده عند ميرلوبوتي في الحقبة نفسها، فتحن نقراً، على سبيل المثال، في مقالة نشرت، فيما بعد، لي كتاب المشي واللا معنى، «إن هيجل هو منتج كل ماله اليوم شأن في الفلسفة، وهذا منذ قرن من الزمان».

Merleau - ponty, *sens et non sens*, p. 109.

ويمكننا أن نؤكد أن إعطاء أول ما لكتابات هيجل، هو، في نهاية الأمر، انتخذ موقف إزالة كل التقنيات الفلسفية والسياسية والدينية لصرفها «للمرجع نفسه» ص 110.

مُقَدِّمَة

إذا خفضنا الطرف عن بعض المواقف التي تحاكم الفلسفة من الخارج، وتدعو، لا إلى مجاوزتها، وإنما إلى نبذها والتخلي عنها، سواء باسم الدين، أو باسم الارتباط بالواقع الاختباري، فإننا نستطيع أن نقول إن موضوع مجاوزة الفلسفة، يستقطب الاهتمام الفلسفي المعاصر، وهذا منذ ظهور الهيكلية وما أعقبها من ردود فعل. فإمكاننا أن نتبين هذا الموقف عند هيكل ذاته، الذي يأخذ التجاوز على أنه اكتمال تكف الفلسفة عن طريقه عن أن تكون محبة للحكمة، لتصبح معرفة مطلقة تجد تحقيقها عند هيكل ذاته. كما أننا نستطيع أن نتبين الموقف ذاته، ولكن بمعان مخالفة، عند كل النزعات التي قامت ضد الفلسفة لتحاكمها سواء بمقياس التجربة الذاتية، أو بمقياس البراكسيس، أو بمقياس العلم، واجدة أصولها سواء عند كيبركفارد أو عند ماركس أو عند كودت.

صحيح أن الموقف الوضعي، في أصوله، لا يتحدث عن التجاوز، وهو أقرب إلى التخلي عن الفلسفة ونبذها، إلا أننا لا ينبغي أن ننسى أن كودت ينظر إلى المرحلة الوضعية على أنها تعقب المرحلة الميتافيزيقية وتفترضها. كما أن الموقف الوجودي، في أصوله، أقرب إلى التمرد على الشكل الذي اتخذته الفلسفة عند هيكل منه إلى

مجازوة الفلسفة ذاتها. وهو بالأولى تمرد على الإغراق في النظر لبناء الأنساق، ودعوة إلى إقامة الشذرات والفتات الفلسفي⁽¹⁾. لكننا لا نستطيع أن نقول الشيء ذاته عن موقف ماركس الذي نجد، في مؤلفات شبابه، دعوة صريحة إلى مجازوة الفلسفة كتحقيق ذاتي تلغي الفلسفة بمقتضاء ذاتها لتصبح معاداة الفلسفة للعالم عناق العالم للفلسفة، وتحقيقاً لهاته.

وإذا كنا سنحاول الوقوف، في هذه المقدمة، عند الموقف الماركسي من الفلسفة، فذلك لأننا نعتبر أن كل المواقف المعاصرة ليست، في نهاية الأمر، إلا تجاوزاً لشكل المجازوة الذي أرسته الماركسية، وحوارا، ضمناً أو صريحاً، مع ماركس، في مؤلفات شبابه، أو على الأصح، لقراءة معينة لتلك المؤلفات، كي تبين الدواهي التي حدثت بالفكر المعاصر إلى إقامة مجازوة «فعالية» للفلسفة وعدم الاكتفاء بالتهامها من خارج.

يرى ماركس الشاب أن الفلسفة توجد في وضع متناقض. فإذا كانت مهمتها أن تفضح التشويهات التي يتعرض لها الإنسان، فعليها، أولاً وقبل كل شيء، أن تفضح التشويه الفكري، وأن تهاجم الأشكال التأملية التي تتخذها هي «فهم» التاريخ، بعد زوال عالم ما وراء الحقيقة، هي أن يقيم حقيقة هذا العالم. فبعد أن يجري فضح الشكل المقدس للاستلاب الذاتي للإنسان، فإن مهمة الفلسفة التي تخدم التاريخ، ستكون، بالدرجة الأولى، فضح الاستلاب الذاتي في أشكاله غير المقدسة⁽²⁾. فإذا كان النسق الهيجلي قد أكمل الفلسفة، فلم تعد مهمة هذه أن تنتقد فلسفة بعينها، أو مفهوماً معيناً، وإنما عليها أن تنتقد الفلسفة ككل، عليها أن تنفي ذاتها. وهذا النفي الجدلي، هذا التجاوز لن يتم إلا بتحقيقها الفعلي. وحينئذ ستكف الفلسفة عن أن تكون مجرد تعارض بين نسق وآخر، كي تصبح الفلسفة في

(1) ربا لا نستطيع أن نتحدث، حتى عند سارتر ذاته، عن مجازوة الميتافيزيقا. يقول هايدغر: «إن فلسفة سارتر ليست إلا مجرد استعادة لأكثر أشكال الميتافيزيقا تقليداً، وذلك لصالح فكرة إنسانية لم تكن في حاجة إلى كل ذلك».

راجع رسالة هايدغر في الفزع الإنسانية.

Heidegger (M), Question III, Gallimard, 1966, p.67.

Marx, Critique du droit politique Hégélien, trad. A. Baraquin, Ed. Sociales, 1975 (2) p. 198.

مواجهة العالم، كي تصبح فلسفة العالم الحاضر.

ذلك أن الاكتمال النظري، كما هو عند هيجل، ليس تجاوزاً فعلياً، إذ أن النظر لا يجد تجاوزه إلا في العمل. وإلا ظلت مهمة الفلسفة هي أن تحول الصراع الفعلي للبشر إلى جدال فكري. وما يسمح للفلسفة بهذا التجاوز هو وجود لغة اجتماعية أصبحت تشكل النفي الفعلي للتناقضات الاجتماعية. فالبروليتاريا بما تحمله من نفي جذري، ترمي إلى الهدف نفسه الذي تتوخاه الفلسفة، وأعني نفي المجتمع كما هو لإحلال مجتمع بديل. فالحركة التي يقضي عن طريقها الفكر الفلسفي على تناقضات الموجود لن تتم حتى تجد امتدادها في الحركة التي تقضي على التبريرات التي كانت تعطى لهذا الموجود. وحل التناقضات النظرية لا يتم إلا عن طريق العمل وبواسطة الطاقة العملية للإنسان. لذا فإن ذلك الحل ليس من مهمة المعرفة وحدها، وإنما هو أيضاً مهمة حيوية عملية لم تعجز الفلسفة عن القيام بها إلا لكونها اعتبرتها مهمة نظرية. فكما أن الفلسفة تجد في البروليتاريا سلاحها المادي، فإن هذه تجد في الفلسفة أسلحتها الفكرية... إن رأس محرر الإنسان هو الفلسفة، وقلبه هو البروليتاريا. فالفلسفة لا يمكن أن تتحقق دون إلغاء البروليتاريا، وهذه لا تلتفي دون تحقيق الفلسفة.

إن الفلسفة التي تريد أن تفضح الأوهام وتقضي على التشويهات التي تلحق الإنسان في المجتمع، تجد نفسها أنها، هي أيضاً، نوع من التشويه الذي يحول الأوهام إلى حقائق، كما أنها تجد أنها، إذا ظلت مجرد نظر، تبقى عاجزة، لا على فضح تلك الأوهام وانتقادها ولكن على القضاء الفعلي على التشويه. «لذا كنا نريد أن نتخلى عن الأوهام المتعلقة بوضعنا، فذلك يعني أن علينا أن نتخلى عن وضع يكون في حاجة إلى أوهام» (3).

ضد هذا التأمل الذي تغرق فيه الفلسفة، ستقيم الأطروحات حول فويرباخ مفهوم البراكسيس لتثبت أن الحياة الاجتماعية عمل وممارسة، وأن طريق القضاء على أوهام التأمل هو وهي تلك الممارسة، ومعرفة الحياة الاجتماعية. هذا ما سيلج عليه

مخطوط الإيديولوجيا الألمانية: «فحينما ينقطع التأمل وتظهر الحياة الحقيقية الواقعية تبدأ المعرفة الإيجابية ويشرع عرض الفعالية العملية، ومجرى التطور الفعلي للبشر. فعندما تنقطع المعايير الجوفاء حول الوعي، يكون على المعرفة الفعلية أن تأخذ مكانها. وبمجرد ما تعرض الفلسفة الواقع فإنها تفقد ذلك الميدان الذي تتمتع فيه بوجود مستقل» (4). لذا فإن هذا المخطوط سيتجه مباشرة لربط جميع الأشكال النظرية بالمصالح الاجتماعية وتقسيم العمل وتوزيع الثروات، ليتساءل عن العلاقة التي تربط الانتقاد بالعالم المادي، وليخلص إلى أن الفلسفة شكل من أشكال الإيديولوجيا.

يشكل مخطوط الإيديولوجيا الألمانية إذن خلاصة الموقف. ففيه، كما سيقول إنجلز فيما بعد، حاول، هو وماركس، تصفية الحساب مع وعيهما الفلسفي. الفلسفة شكل من الأشكال الإيديولوجية، وهي، ككل إيديولوجيا، بالمعنى الذي نستخلصه من هذا الكتاب:

أ - وهم، وهذا الوهم لا يجد تفسيره في ذاته، بل في الشروط المادية للفعالية المادية.

ب - إنها لغة الحياة الواقعية، فهي إذن وهمٌ معكوس مقلوب لأنها وليدة عالم معكوس.

الفلسفة إذن تأويل للعالم، ولغة له. وليست تأويلاً لتأويل.

ج - إذا كانت الإيديولوجيا امتداداً مقلوباً لعلاقات البشر الفعلية، وإذا كانت الأوهام تنتج عن حياة البشر المادية فإن الأشكال الإيديولوجية لا تتمتع بأي استقلال ذاتي. وهذا معناه أن الإيديولوجية لا تملك تاريخاً، وأن تاريخها يتم خارجاً عنها. بهذا المعنى لا مبرر لتأريخ الفلسفة.

د - إذا كانت الفلسفة، بما هي إيديولوجيا لا تملك تاريخاً، ولا تتمتع بأي استقلال ذاتي، فهي إذن لا تملك أية وظيفة. إنها لا تساهم في تغيير العالم، وإنما في تغيير تفسير العالم.

خلاصة القول إذن، إن مخطوط الإيديولوجية الألمانية يثبت أن الفلسفة شكل من أشكال الإيديولوجية، وأنها ككل إيديولوجية وهم لا يتجسد في أجهزة اجتماعية معينة، ولا يتمتع بأي استقلال ذاتي، ولا يقوم بأي دور. كل هذا يقوم بطبيعة الحال على مفهوم معين عن الإيديولوجية، وهو المفهوم الذي يستخلص من بعض الصيغ الحديثة في مخطوط الإيديولوجيا الألمانية. فحتى إن سلمنا بأن الفلسفة لا تعدو أن تكون شكلاً من أشكال الإيديولوجية، فإن قراءة مغايرة لمؤلفات الشباب عند ماركس من شأنها أن تبرز معنى مخالفاً للمجازاة الفلسفة عنده. علينا إذن أن نعرض باختصار شديد لحدود مفهوم الإيديولوجيا في مخطوط الإيديولوجيا كي نبرز الدواعي التي تدعونا لرفض معنى المجازة كما عرضنا له، والاتجاه نحو معنى مغاير.

الفلسفة إيديولوجية فعالة

يعتمد كتاب الإيديولوجيا الألمانية نظرة انعكاسية عن الوعي، «إن إنتاج الأفكار والتمثيلات والوعي يكون، قبل كل شيء، وبصفة مباشرة، وثيق الصلة بالنشاط المادي للبشر وتبادلهم المادي. إنه لغة الحياة الفعلية. قمتشات الناس وتبادلهم الفكري يظهر، هنا أيضاً، كتجل مباشر لسلوكهم المادي، فإذا كان التعبير الواعي للأفراد عن العلاقات الفعلية تعبيراً خادماً، وإذا كان هؤلاء يقبلون الواقع رأساً على عقب في تصوراتهم، فما ذلك إلا نتيجة لفعالياتهم المادية المحدودة وما يترتب عنها من علاقات» (5). فكتاب الإيديولوجيا الألمانية يعتبر أن الإيديولوجية مجرد حلم وعدم كما أوضح ألتوسير. فحقيقتها توجد خارجاً عنها. إن الإيديولوجية، في هذا الكتاب، تعتبر تركيباً خيالياً يشبه، في منزلته، المنزلة النظرية التي كان المفكرون السابقون على فرويد يعطونها للحلم. فلم يكن الحلم، في نظر هؤلاء، إلا نتيجة خيالية للبقايا اليومية وقد ركبت تركيباً تصفياً لا يخضع لأي نظام. بل إنه قد يكون مقلوباً في بعض الأحيان. فبالنسبة لهؤلاء، لم يكن الحلم إلا الخيال الفارغ الذي تم تركيبه انطلاقاً من بقايا الواقع الممتلئ الفعلي للنهار. تلك هي (5) المرج نفسه.

المنزلة نفسها التي يعطيها كتاب الإيديولوجيا للفلسفة والإيديولوجية. فليست الإيديولوجية في هذا الكتاب إلا مجرد خيال، مجرد حلم فارغ ركب من بقايا الحياة المادية التي تنتج وجودهم المادي. فبهذا المعنى لا تاريخ للإيديولوجية في هذا الكتاب، لأن تاريخها يتم خارجاً عنها⁽⁶⁾.

لن نجد الموقف ذاته في ما أطلق عليه كتب النضج. وهنا ستصبح الإيديولوجية مؤسسة، بل إنها مستوى من مستويات البنية الاجتماعية، إنها تقوم بوظيفة فعالة، ولا يكفي إلغاؤها بعدم الانتباه إليها. فليس الوهم هنا كامناً في التمثيلات الإيديولوجية وإنما في العلاقة التي تربط تلك التمثيلات بالعلاقات التي تربط فيما بين الناس. ذلك أن كتاب الإيديولوجيا الألمانية لم يكن ليميز بين ما سيطلق عليه ماركس فيما بعد، العلاقات الفعلية والعلاقات الميضية. أما كتاب الرأسمال فهو يميز بين نوعين من العلاقات: «إن الشكل المكتمل الذي تتخذه العلاقات الاقتصادية كما تتجلى في الظاهر وعلى السطح في وجودها العيني، وبالتالي كما يتمثلها الأعضاء الداخلون في هذه العلاقات، والذين يجسدونها عندما يسمون إلى فهمها، إن ذلك الشكل يخالف أشد المخالفة بنيتها الداخلية الجوهرية المخفية، كما يخالف التصور العلمي الذي يوافقها، وفي الواقع إنه يشكل نقیض تلك البنية وشكلها المقلوب»⁽⁷⁾.

في هذا الكتاب إذن تسمح لنا الإيديولوجية أن نفسر كيف أن العلاقات الفعلية تقلب وتعاش. يقول أ. باليبار: «في العلم الذي يؤسسه كتاب الرأسمال، هناك إلى جانب البنية الاقتصادية لنمط الإنتاج، ولكن في ارتباط ضروري معه، هناك مستوى إيديولوجي، ولكنه ليس مستقلاً عن تلك البنية، وإنما في استقلال ذاتي. وهذا يعني أن بإمكانه أن يكون موضع تحديد خاص به. ومهمته أن يفسر كيف تعايش العلاقات الاجتماعية»⁽⁸⁾. بهذا المعنى فإن للإيديولوجي دوراً أساسياً فعلاً،

(6) أنظر بهذا السند.

L. Althusser. Position, E.S, Paris, 1976.

Marx. Le Capital, I, III, T. 1, 2d. Sociales. p. 223 (7)

Balibar (E). Le Centenaire du Capital. Mouton, 1969, p.91 (8)

وتاريخاً تحدد خصائصه الذاتية، بل واستقلالاً ذاتياً. هذا ما سيؤكدّه إنجلز، عشرين سنة بعد مخطوط الإيديولوجيا، و« لكن كل إيديولوجية ما أن تتكون حتى تتطور على أساس التمثلات المعطاة، وهي تستمر في بناء تلك التأمّلات، وإلا لما كان الأمر يتعلّق بإيديولوجية، وأعني الاهتمام بالأفكار كما لو كانت كيانات مستقلة لا تخضع إلا لقوانينها الخاصة» (9).

إذا قلنا إذن إن الفلسفة شكل من أشكال الإيديولوجية فإن هذا سيعني، والحالة هذه، أنها متجذّرة في المجتمع، متجسّدة في أجهزة، وأنها تفعل فعلها، كما أنها تتمتع بشيء من الاستقلال الذاتي. وهذا يعني أنها ليست لغة الواقع الاجتماعي وانعكاساً له. وأنها ليست تأويلاً، وإنما تأويلاً مركباً.

قبل أن نبين أن هذا الإرساء لمفهوم الإيديولوجية بهذا المعنى، ونقله من مجرد نظرية في الوعي إلى مستوى بنية الوجود الاجتماعي، قبل أن نبين أن هذا الإرساء هو نفسه، لا نعت الفلسفة بأنها شكل من أشكال الإيديولوجية، إن هذا الإرساء هو المجاوزة الفعلية للفلسفة، وقبل أن نبين أن الموقف الأساس لماركس، لا يتمثل في أنه أعطى تأويلاً جديداً للعالم ينضاف إلى التأويلات السابقة، بل في كونه «غير طبيعية الدليل»، كما يقول فوكو (10)، وحوّل الكيفية التي كان يؤوّل بها، قبل أن نقوم بكلّ هذا علينا أن نستخلص ما يمكن استخلاصه من هذه المقدمة:

هناك أولاً صعوبة شديدة لمجاوزة فعلية للفلسفة. فالظاهر أنه لا تكفينا الدعوة إلى الممارسة والوقوف عند الواقع الاختباري كي نجد أنفسنا خارج التأمل، وبعيداً عن أوهام الميتافيزيقا. بل إن التفرقة ذاتها بين النظر والممارسة تفرقة تمّت داخل الفكر الفلسفي. لذا فإن مجاوزة الفلسفة لا يمكن أن تتم كتبويض تلقائي لتحويل الوضع الذي ساعد على نشأتها، بل إنها، كما سترى، تشكل هي نفسها عائقاً من العوائق التي تحول دون ذلك التحويل. ومعنى ذلك أن تلك المجاوزة لا يمكن أن تكون

Engels (F), *L. Feuerbach et la fin de la philosophie classique allemande*, éd. (9)

So ciiales, p. 78.

Foucault (M), "Nietzsche, Freud, Marx", in *Nietzsche Colloque de Royaumont*, (10)

Minuit, 1967.

قط انتقالاً من منهج في التفكير، أو من طريقة لتناول الواقع بالدراسة إلى طريقة مغايرة، أو وقوفاً عند مختلف العلوم لنبذ الفلسفة الأم. ذلك أن العلوم ذاتها ليست إلا الميتافيزيقا وقد بلغت أوجها. العلم هو البعد الميتافيزيقي للعالم المعاصر، هذا العالم الذي تطبعه التكنولوجيا، والذي تصوده إرادة القوة. بناء على ذلك، لا يمكن أن تعني المجاوزة كما يقول هايدغر «كون دراسة من الدراسات قد أبعدت وأقصيت خارج أفق الثقافة» (11). كما أننا لا نقصد بالفلسفة هنا فلسفة بعينها، ولا مجموع الفلسفات، وإنما نعني بها الميتافيزيقا لا من حيث إنها فرع من فروع الأبحاث الفلسفية، وإنما من حيث إنها حاضرة في مختلف الأشكال الثقافية التي نعيشها، أي من حيث إنها حياة تحاول فيها أنواع من القيم أن تؤكد ذاتها.

هناك إذن ضرورة لمجاوزة الميتافيزيقا، ولكن هناك أيضاً صعوبة في تلك المجاوزة. يقول لبيتشه: «لقد بلغ الإنسان درجة ثقافية بالغة السمو عندما تمكن من نبذ الأفكار الخرافية. فهو لم يعد يؤمن، على سبيل المثال، بالخطيئة الأصلية. بل إنه أصبح يمتدح الحديث حتى عن خلود النفس. لكن عليه أيضاً، بعد أن بلغ هذه الدرجة من التحرر، أن يقهر الميتافيزيقا حتى لو تطلب منه ذلك أكبر مجهود فكري. لكن هذا يقتضي بالضرورة رجوعاً إلى الوراثة. إن عليه أن يدرك التبريرات التاريخية والنفسانية للتأملات الميتافيزيقية. وعليه أن يدرك كيف أن الإنسانية قد أفادت كبير إفادة من الميتافيزيقا، وكيف أن هذا الرجوع إلى الوراثة هو الكفيل وحده بأن يصون أسماً ما حصلت عليه الإنسانية حتى اليوم. إنني ألحظ اليوم، فيما يخص الميتافيزيقا، أن عدد الذين يقولون بسلبيتها ويؤكدون أنها مجرد خطأ، في تزايد مستمر. ولكنهم قلة أولئك الذين يصعدون عندما ينزلون خطوات إلى الوراثة. ويبدو أن هناك من يقبل أن ينظر إلى الوراثة من أعلى. ولكن لا أحد يريد النزول. إن ألمح المفكرين لا ينزلون إلا بمقدار ما يسمح لهم ذلك بأن يتخلصوا من الميتافيزيقا، ويلقوا من ورائهم بنظرة تنم عن نوع من الاستعلاء. بيد أنه من الضروري هنا،

مثلاً هو الشأن في ملعب السباق، إتمام حلقة الدوران لإنهاء السباق» (12).
 ما المقصود إذن بهذا التمهق، وهذا الرجوع إلى الوراء؟ هذا ما يمكن أن
 نسميه العودة إلى الأصول والوقوف عند الأسس، وما اتخذ عند نيتشه ذاته اسم
 الجينولوجيا، وعند أتباعه أسماء مختلفة بدءاً من الاستذكار عند هايدغر إلى
 التفكيك عند دريدا، مروراً بالحفريات عند فوكو. وهي كلها، كما سنرى فيما بعد،
 محاولات لإقامة مجاوزة فعلية للميتافيزيقا لا تقتصر على اتهامها من «خارج» (13)،
 وإنما تسعى إلى الوقوف عند أصولها لخلخلة أزواجها وتقويض منطقها.

سيكون موضوع بحثنا إذن الوقوف عند أصول فكر يقدم نفسه هو كذلك
 على أنه عودة إلى الأصول. إننا سنسعى جهدنا أن نقوم بجينولوجيا الميتافيزيقا وفق
 المنهج الجينولوجي. بجينولوجيا جينولوجيا الميتافيزيقا، جينولوجيا من الدرجة الثانية
 إن صح التعبير. وهي طريق لابد أن يمتزج فيها المنهج بالموضوع. فنحن مضطرون
 لأن نطبق تقنيات في التأويل على الموضوع نفسه الذي يزودنا بتلك التقنيات. وتلك
 طريقة لا محيد لنا عنها حتى إن كنا سنجد أنفسنا، في بعض الأحيان، في موقف
 غير مريح، كما يؤكد فوكو، «لكون هذه التقنيات تخصنا نحن، ولأننا نحن
 المؤولين، سنؤول ذاتنا عن طريق هذه التقنيات. وعلينا أن نفحص هؤلاء المؤولين
 أنفسهم، سواء فرويد أو نيتشه أو ماركس (ونضيف نحن: أو هايدغر أو دريدا أو
 فوكو نفسه) عن طريق تقنياتهم ذاتها، بحيث إننا نجد أنفسنا غارقين ضمن سلسلة

Nietzsche (F). *Humain trop humain*. § 20. (12)

(13) هناك مكان متعدد المفهوم «الخارج»، وطرق متباينة لمجاوزة الفلسفة،

- فهناك «الخارج» الوهمي الذي يسد عن موقف غير محير مطلقاً، تحيراً ميتافيزيقياً بين الداخل والخارج، فهو الأوام
 الميتافيزيقية إلى حرام «خارجية» ويصير أن القضاء على تلك الأوام تحول لذلك «الخارج» الذي ولدها.
 - ثم هناك «الخارج» - الهامس - تدخل تحت هذا المفهوم جميع اللواقح التي ترى أن المبالغة العقلية للميتافيزيقا لا يمكن أن تتم
 «داخل» الفلسفة وإنما على هامشها. وأن عدم الأوثان للميتافيزيقية ليس وفقاً على الفسلفة الفلسفية، بل وإن الفلسفة لم تعد
 لها فعالية ولدها أصبحت مجرد حائقة على هامشها. نستطيع أن ندخل هنا الأمثلة الأخرى والوجية والتحليل السوسيولوجي
 والتحليل النفسي والسوسيولوجيا. ولنا في لبني - سترووس وبارت وورديو أنظمة على أولئك الذين ولعوا وتقويض للميتافيزيقا
 في أشكال ثقافية لا تقتصر على العصر الفلسفي... وأخيراً هناك «الخارج» الفلسفي الذي ينطلق من أن التمييز ذاته بين
 الخارج والداخل محير مخ «داخل» تاريخ الميتافيزيقا، وأن الخارج الممكن لا يمكن أن يتم إلا داخل الفلسفة، وأن كل مجاوزة
 فعلية للفلسفة لا يمكن أن تكون، أولاً وقبل كل شيء، إلا مجاوزة فلسفية، وتقويضاً لزواج الميتافيزيقية داخل / خارج وعاش
 / مركز. ولا داعي إلى التأكيد أن بحثنا يسير نفسه عند هذا المعنى.

من الانعكاسات المرآتية» (14).

هذا التقريب بين المنهج والموضوع، وهذه الانعكاسية تشكل سمة من أهم السمات التي تميز كل مجاوزة للميتافيزيقا. ذلك أن تلك المجاوزة تعني، في نهاية الأمر، إقامة عالم مرآيا وظواهر، عالم يسكن فيه الآخر الذات، والمشتق الأصل، والعمق السطح، والباطن الظاهر، والاختلاف الهوية. إنه عالم تتدخل فيه الأزواج الميتافيزيقية كما سنحاول أن نبين ذلك خلال القسم الثاني من بحثنا.

لن يتعلق الأمر إذن باتباع منهج تركيبي يخلق الوحدات ويقسم التيارات ويصنف الفلسفة المعاصرة اتجاهات ومدارس ومذاهب. لن يتعلق الأمر بإقامة تاريخ موحد لتلك الفلسفة، ودراسة مختلف التيارات لتقصي الوحدة التي تجمع بينها وردّها إلى أصولها التاريخية بحيث يجد كل فيلسوف، وكل مذهب فلسفي، بل وكل مفهوم من المفاهيم الفلسفية تبريره ومعناه. ربما كان عكس ذلك هو الصحيح؛ إذ أننا سنتوخى إقامة تاريخ مضاد والوقوف عند المحاولات التي سعى فيها التاريخ إلى محاكمة الفلسفة لإرساء تاريخ يقلب تاريخ الميتافيزيقا بل ويقلب التاريخ الميتافيزيقي ذاته، وذلك ما سنعرض إليه في القسم الأول من بحثنا.

القسم الاول

الميتافيزيقا ، الزمان والتاريخ

« وحينئذ ستلقى على عاتق الفكر مهمة التعطي عن القول بأصل الأشياء ، ولكنه تخل يهدف إلى تأسيس الأصل ، وذلك باستعادة الكيفية التي تتشكل وفقها إمكانية الزمان . يتعلق الأمر إذن بأصل لا أصل له ولا بداية ، ويمكن أن تصدر عنه جميع الأشياء . وإن مهمة مثل هاته تقتضي إعادة النظر في كل ما يتعلق بالزمان وكل ما تشكل داخله ، وكل ما يسكن مادته المتحركة (...) . حينئذ سيصبح الأصل هو هذا الذي لا ينقك يعود ، سيفقد هو التكرار الذي يتجه نحوه الفكر ، وعودة ذاك الذي ما قتي يبدأ ، واقتراب دور ما انقك يضي » .

م - فوكو

تَمْهِيد

من المعاني التي يمكن أن نعطيها لمفهوم اكتمال الفلسفة عند هيجل، كون هاته لم تجد تاريخها إلا عند المثالية المطلقة. فمع هيجل ارتفعت الميتافيزيقا إلى مستوى التاريخ، بهمان متعددة من أهمها أن هيجل هو الذي وحد الشتات الفلسفي في تاريخ يجد نهايته في المعرفة المطلقة.

فنحن لا نستطيع أن نتحدث عن تاريخ للفلسفة قبل هيجل. صحيح أن «أراء الفلاسفة ومذاهبهم» قد جمعت، وأن «مقالاتهم» قيدت غير ما مرة، وهذا منذ ميلاد الفلسفة ذاتها. إلا أن أمراً جديداً لم يعرف الظهور قبل هيجل ولم يتحقق إلا معه، وهو مطابقة الفلسفة لتاريخها. ذلك أن تاريخ الفلسفة كما يقول هيجل «لا يهتم بوقائع وأحداث خارجية، وإنما هو غموض لمحتوى الفلسفة ذاتها كما يتجلى في حقل التاريخ. ومن هذه الناحية، فإن تاريخ الفلسفة لا يتنافر مع الفلسفة، بل إنه ينطبق معها» (1). فالفكر، قبل أن يصبح فكراً مطلقاً، محتاج إلى توسط ولف ودوران، وما تاريخ الفلسفة في مجموعه إلا لحظات لحلول الفكر المطلق: «فليس الماضي في تاريخ الفكر إلا أحد مظاهر ذلك الفكر (...) ودخيرة العقل الواعي بذاته، تلك الدخيرة

التي تنتمي إلى عصرنا، لم تولد بكيفية مباغته، ولم تنبع من أرض الزمن الحاضر، إنها تراث. وبعبارة أدق، إنها حصيلة عمل جميع الأجيال السابقة للجنس البشري» (2). هناك إذن وحدة بين الفلسفة وتاريخها. وهيجل، عندما يفكر في موضوع الفكر، «لا يفصله عن حوار مع تاريخ الفكر الذي تقدّمه، وهو أول من فكر كذلك، وتمكن من التفكير على هذا النحو» كما يؤكد هايدغر (3).

لا عجب إذن أن تكون محاولات مجاوزة الميتافيزيقا أساساً تقويضاً للتاريخ الذي تقدم به الميتافيزيقا نفسها في الشكل الذي أعطاه إياها هيجل، وهذا للتاريخ الهيجلي وتقويضاً لمفهوم الزمان التاريخي كما أرسته المثالية المطلقة. لذا سنجدنا، مع الفكر المعاصر، في سعيه لإرساء تاريخ مصاد للتاريخ الميتافيزيقي، في حوار دائم مع هيجل سواء أكان ذلك الحوار مباشراً أو اتخذ طريقاً ملتوياً.

ولن نعود في هذا الباب، بطبيعة الحال، للموقف الماركسي الذي سبق أن أثبتنا، في مقدمة هذا البحث، أهم معالجه وأقررنا أننا إن بقينا عند الصيغ الحدسية لمخطوط الإيديولوجيا فإننا لنفي للفلسفة استقلالها وتاريخها الذاتيين، ونظل بالرغم من كل شيء، «خارج» الميتافيزيقا، عاجزين عن خلاطة منطقها وتقويض أزواجها. ولعل هذا هو ما حدا ببعض المفكرين المعاصرين إلى نهج طريق مناهير، أو، على الأقل، مناهير للتأويل الماركسي الكلاسيكي لا لتأويل ماركس نفسه. ونحن نستطيع أن نرد أصول هذا النهج إلى نيتشه، وبمعنى بعيد إلى فرويد (4). وهذا ما سيجعلنا نعطي في هذا القسم الأول أهمية قصوى للموقف الجينيولوجي، لأننا سنرى أن جل المواقف الأخرى التي أخذت على عاتقها تقويض التاريخ الهيجلي، فعلت ذلك من خلال قراءة معينة لنيتشه، وستبين ذلك بتفصيل سواء عند التقويض الهايدغري أو حفريات فوكو أو تفكيك دريدا. هذه وتلك هي عناوين فصولنا في هذا القسم.

(2) المرجع نفسه، ص. 20.

(3) Heidegger (M), "Identité et différence" in Question I, Gallinard, 1979, p. 279.

(4) بين دريدا أن مفهوم اللاشعور عند فرويد يتناهي مع الزمان الهيجلي باعتباره حركة حاضر يحضر في الماضي والمستقبل. كما أوضح أن الحاضر عند فرويد «ليس أصلياً وإنما هو حاضر يعاد بناؤه، وليس هناك حاضر حيّ خالص. وهذه هي القضية الهامة بالنسبة لتاريخ الميتافيزيقا والتي دعوها فرويد إلى التفكير فيها».

J. Derrida - "Freud et la scène de l'écriture" in l'écriture et la différence. 6d. Seuil, 1979, p. 314.

الفصل الأول

جينيالوجيا الميتافيزيقا

« عندما ندرس التاريخ فإننا ، على عكس الميتافيزيقيين ، نساعد لا لما
نكتشفه من نفس خالدة تترقد فينا ، وإنما لما نحمله بين جنبينا من أنفس فانية » .
ف . نيتشه

« ليست قيمنا إلا تأويلات أقنعنا بها في الأشياء . هل يمكن أن يكون
هناك معنى في ذاته؟ أليس كل معنى نسبياً ، أي منظوراً؟ كل معنى هو إرادة
قوة » .
ف . نيتشه

كل حديث عن أسس الفكر المعاصر وأصوله ، لا بد وأن يطرح في البداية
مسألة الأصل والأساس كما تطرح في هذا الفكر . ولعل أهم موقف أعاد النظر في
هذه المسألة هو الموقف الجنيالوجي . فالمعنى الحرفي لكلمة جنيالوجيا ، كما هو معلوم ،
هو دراسة النشأة والتكوين لإجابات التسبب والوقوف عند الأصل . هذا ما يؤكد

نيتشه في مقدمة كتابه الذي يحمل الكلمة عنواناً: «إن الأمر يتعلق هنا بتأملات حول أصل أحكامنا الأخلاقية المسبقة» (1). بناء على ذلك سيكون المعنى المباشر لجنياولوجيا الميتافيزيقا دراسة نشأة الميتافيزيقا، والقيام بعرض تاريخي للوقوف عند الأصل الذي صدرت عنه، هذا الأصل الذي يكون قد غذاهما منذ البداية فطبعها بطابعه. إلا أن نيتشه يحاول بالضغط أن يتجاوز هذا المعنى، فهو يؤكد أنها الميتافيزيقا ذاتها التي تظهر من جديد في التصور الذي يعتقد بأن أهم ما في الأشياء وأكثرها قيمة يكمن في بداياتها وأصولها. يقول هايدغر في كتابه عن نيتشه: «لا يعني الأصل هنا السؤال: من أين صدرت الأشياء؟ بل أيضاً كيف تكونت؟ إنه يعني الكيفية التي تكون عليها. فلا يدل الأصل أبداً على النشأة التاريخية التجريبية» (2). ليس المقصود إذن إثبات أصل تاريخي، ولا وقوفاً عند لحظة ممتازة تحدت فيها خصائص الميتافيزيقا وتعينت ماهيتها ليكون تاريخها، فيما بعد، مجرد انتشار وامتداد لما سبق. ليس المقصود تمجيذاً للأصول والبدايات، إذ أن ذلك سيفرقنا في الميتافيزيقا التي يحلو لها أن تعتقد أن الأشياء في بداياتها كانت كاملة، وأنها خرجت من يد مبدعها أو في نور أول صباح مشعة وضاءة. «إن الأصل يوضع دوماً قبل السقطعة وقبل الجسد، قبل العالم وقبل الزمن» (3). ننظر الميتافيزيقا إلى الأصل كما لو كان موطن حقيقة الأشياء، فهو النقطة البعيدة التي تسبق كل معرفة إيجابية والتي تجعل المعارف ممكنة.

إن لم تكن الجنياولوجيا إذن بحثاً عن مصدر ووقوفاً عند أصل، عند الأصل، فما هذا الذي تبحث عنه؟ يقول فوكو: «ولكن، إذا أولى الجنياولوجي عنايته إلى الإصغاء إلى التاريخ بدلاً من الثقة في الميتافيزيقا، فماذا يتعلم؟ إنه سيدرك أن وراء الأشياء هناك «شيء آخر»، لكنه ليس السر الجوهري الخالد للأشياء، بل سر كونها بدون سر جوهري وكونها بدون ماهية، أو كون ماهياتها قد أُنشئت شيئاً فشيئاً

Nietzsche. F. *Généalogie de la morale*. Trd. H. Albert, Mercure de France, Paris. (1) 1946.

Hiedegger - Nietzsche II. Trad. P. Klossowski, Gallimard, Paris. 1971, p. 55. (2)

Faucault. "Nietzsche, La généalogie et l'histoire", in *Hommage à Hyp polite*, (3) P.U.F., 1971, p. 184.

انطلاقاً من أشكال غريبة عنها (...) فما تليفه عند البداية التاريخية للأشياء ليس هوية أصلها المحفوظ، وإنما تبعثر أضياء أخرى. إننا نجد التعدد والتشتت» (4).

ذلك أن مرمى التاريخ الجينالوجي ليس هو استعادة جذور الهوية وإنما القضاء عليها. منذ البداية إذن تضع الجينالوجيا نفسها في مقابل الميتافيزيقا. إنها تاريخ مضاد للتاريخ الميتافيزيقي. فبينما يتوخى هذا إثبات الوحدات وإقامة الهويات والوقوف عند الماهيات الخالدة، ترمي تلك إلى هدم الموحد وتقويض الهوية. فهي لا تأخذ على عاتقها رصد المنشأ الوحيد الذي صدرنا عنه، والموطن الأصلي الذي تعدنا الميتافيزيقا بالرجوع إليه، وإنما تسعى لإظهار الانفصالات التي تخرقنا. الجينالوجيا لا تقيم الأسس. إنها لا تؤسس، بل على العكس من ذلك، إنها تقلق ما تعتقده الميتافيزيقا ساكناً وتفتت ما تظنه موحداً، وتظهر التنوع في ما يبدو منسجماً.

لا يؤمن الجينالوجي لا بالماهيات الثابتة ولا بالمبادئ المؤسسة ولا بالغائيات الميتافيزيقية، ذلك أنه إذ يقضي على فكرة المصدر الأصلي يلغي في الوقت ذاته فكرة الغاية والنهاية. فبينما تحاول الميتافيزيقا أن تذيب الحدث الفريد في حركة مستمرة تهدف نحو غاية بعينها، فإن الجينالوجيا ترصد الحدث فيما يجعل منه فريداً. والحدث، كما سنرى فيما بعد، ليس في نظرها إلا حلائق قوى لا تتبع هدفاً بعينه، ولا تخضع لألية مغبولة وإنما لصدف الصراع (5).

ليست الجينالوجيا إذن بحثاً عن أصول ولا فلسفة في التاريخ (6). إنها ليست بحثاً عن بداية وما ذلك إلا لأنها ليست بحثاً عن غاية ونهاية. إنها ليست شجرة أنساب متجذرة في أصل، متواصلة الأغصان، متجهة نحو السماء. يقول نيتشه في كتاب الجينالوجيا بصدد العقوبة: «بقي علينا أن نقول كلمة أخرى عن أصل العقوبة وعن الهدف والغاية المتوخاة منها. هاتان مسألتان متميزتان، أو على الأقل

(4) المرجع نفسه.

(5) أنظر بهذا الصدد المرجع السابق من ص. 161 وما بعدها.

(6) يقول لوكو: «لا تدعي الجينالوجيا أنها تستعيد الزمن لإثبات استمرار عظيم وراء التشتت الذي يفتقه النسيان. وليست

مهمتها أن تبين أن الماضي ما زال قائماً حياً في الحاضر بعد أن فرض على مسار الزمن صورة رسمت منذ البداية».

المرجع المذكور. ص. 152.

ينبغي أن تكونا كذلك. ولكن الناس اعتادوا أن يخلطوا بينهما. فكيف كان جنياولوجيو الأخلاق يتصرفون فيما يتعلق بهذه النقطة إلى حد الآن؟ إنهم كانوا يتصرفون، على عاداتهم، بنوع من السذاجة؛ كانوا يكشفون عن هدف معين من وراء العقوبة كالانتقام أو الحظر، فيضعون هذا الهدف والغاية عند البداية والأصل كعلة للمعقوبة. هذا ما كانوا يفعلون وليس غير (...). ليس هناك في ميدان البحث التاريخي مبدأ يفوق أهمية هذا المبدأ؛ إن علة ميلاد شيء ما تتميز عما يمكن أن يسديه من نفع في النهاية كما تتميز عن استخدامه الفعلي وموقعه داخل منظومة من الغايات. فما هو موجود، وما تشكل بكيفية أو بأخرى تتسلط عليه دوماً قوة أعظم منه، فتستعمله لغايات جديدة وتعيد تشكيله وتستخدمه استخداماً مغايراً. بحيث إن كل حادث يقع في العالم العضوي هو كيفية للقهر والسيطرة والهيمنة. وكل هيمنة هي تأويل جديد وملاءمة تذوب معها المعاني والغايات التي كانت مقبولة لحد ظهوره. فحتى إن نحن أدركنا ما يسديه عضو فسيولوجي ما من منفعة في النهاية (أو ما تسديه مؤسسة قانونية أو عادة اجتماعية أو عرف سياسي أو شكل فني أو ثقافي)، فهذا لا يعني قط أننا أدركنا حقيقة أصله» (7).

ذلك أن ما يقوم به التاريخ الميتافيزيقي هو وقوف عند حالة بعينها، عند تأويل معين ليضفي عليه صفة الغاية والهدف فيصبح هو معنى التاريخ والجماعه، بل علة حركته، ولن يعود التاريخ إلا انتشاراً لذلك الأصل - الغاية، ولن يكون الزمن إلا المستقبل - الماضي كحضور يتجلى في امتلاكه كل مرة. يقول فوكو: «إن الميتافيزيقا إذ تضع الحاضر عند نقطة الأصل توهمنا بفعالية قدر هامض يسمى نحو الظهور. أما الجنياولوجيا فهي تعيد بناء مختلف المنظومات الفاعلة، لا القوة المهيمنة لمعنى ما، بل التفاعل الخاص للصدف بين عدة قوى» (8).

«إعادة بناء مختلف المنظومات الفاعلة» تجعل من الجنياولوجيا موقفاً لا - وضعياً يزعم مجاوزة الميتافيزيقا بإلغائها ونبذها. الجنياولوجيا ليست حقيقة خطأ هو الميتافيزيقا. صحيح أنها تريد أن تكون مخالفة للميتافيزيقا، ولكن، من حيث هي

Nietzsche, *Généalogie* : Op. cité, II, §12. (7)

Faucault, op. cité, p. 155. (8)

كذلك، لابد وأن تكون هي الميتافيزيقا ذاتها. بيد أن الذات، كما سنرى فيما بعد، ليست هي التطابق.

إن لم تكن الجينالوجيا إذن متابعة تاريخية وعرضاً لمختلف الأساق الميتافيزيقية لتفنيدها، إن لم تكن إثباتاً لمعنى أول صدرت عنه كل ميتافيزيقا، ولا وقفاً عند غاية ستنتهي عندها الميتافيزيقا، فذلك لأنها محاولة «لإعادة بناء مختلف المنظومات الفاعلة» إنها تأويل لتاريخ الميتافيزيقا وتقويض للتاريخ الميتافيزيقي. لكنها ليست بحثاً عن معنى أول، وإنما هي إثبات للأولويات والأسبقيات التي أعطيت لمعنى على آخر. إنها وقوف عند الاختلافات والفوارق المولدة للمعاني: «فالجينالوجيا هي العنصر التفاضلي والفارقي للقيم، ذلك العنصر الذي تصدر عنه القيمة ذاتها، إنها تعني الأصل والمولد، لكنها تعني كذلك الفوارق والبعد» (9). لذا فإن نيتشه يعقب، في تمهيد كتابه حول الجينالوجيا، على قوله بأن موضوع الكتاب هو البحث عن أصل الأحكام المسبقة في ميدان الأخلاق، يعقب في الفقرة الخامسة «بأن الأمر يتعلق بالبحث عن قيمة الأخلاق»، وفي الفقرة السادسة: «بأننا في حاجة إلى نقد القيم الأخلاقية، ولذا فعلينا أولاً أن نضع قيمة القيم موضع سؤال، ومن أجل ذلك أن نعرف شروط نشأتها والظروف التي ساعدت على ذلك»، وفي الفقرة السابعة: «إن مرماي أن أوجه الانتباه نحو تاريخ الأخلاق (...) وأقصد النص الهيروغليفي الذي يكون علينا تفحصه، والذي يشكل ماضي الأخلاق البشرية» (10).

يقترن نقد الأخلاق، بما هي ميتافيزيقا ولغة عند نيتشه، بثلاثة مستويات ظل يطلقها من حين لآخر على تحليلاته النقدية، ثلاثة مستويات تجعل من النقد أولاً، تحليلاً مشخفاً للأعراض ينظر للجينالوجيا على أنها سيميولوجيا تؤول العلامات والدلائل تبعاً للقوى التي أنتجتها، ثم نوعاً من النمذجة باعتبار أن الجينالوجيا تؤول

(9) Deleuze, G. Nietzsche et la philosophie. P.U.F., 1973, p.3.

(10) نذكرنا هاته القراءة لتاريخ الأخلاق من حيث هو نص «هيروغليفي» بما يقوله ماركس عن القيمة: «إن القيمة لا تحمل ماهيتها على عرض جيتها. وإنما هي تجعل بالآخرى من كل متوج للعمل نصاً هيروغليفاً، ولا يسمى الإنسان إلى التحس مضى هذا النص الهيروغليفي، ومعرفة أسرار العمل الاجتماعي الذي يسلم فيه إلا بعد مرور الزمن. وإن تحويل الموضوعات الناعمة إلى قيم لهو من إنتاج المجتمع، هاته هي ذلك هات القيمة».

الرأسمال، الفصل الأول، الفصل الأول.

القوى انطلاقاً من اعتبارها مجرد كفاءات فاعلة أو منفعة، وأخيراً فإن هذا النقد جنياولوجياً من حيث إنه يعود بتلك الأعراض والنماذج إلى أصول تفاضلية، أي إلى أصول تؤسس تاريخ التراتبات القيمة وتحدد كفاءات ظهورها. وتساءل كيف تظهر التفاضلات القيمة وكيف تختفي؟ كيف تتناوب القوى على المعاني، وكيف يتأسس تاريخ الحقيقة والمعنى؟ من هنا فالجنياولوجي طبيب مشرع وفنان.

إن التراتب يحتل ضمن الحقل الجنياولوجي مكانة هامة، فهو من جهة مصدر القيم، ومن جهة أخرى مصدر اختلافها، ذلك أن معنى الشيء، كما بين دولوز « هو علاقة الشيء بالقوة التي تملكه، وقيمة شيء ما، هي تراتب القوى التي تعبر عن نفسها من خلال هذا الشيء، من حيث هو ظاهرة مركبة » (11). وعندما يقول ليتشه في مقدمة كتابه إنساني مفرط في الإنسانية، بأن التراتب هو « قضيتنا الرئيسية » (12) فهو لم يكن يقصد شيئاً آخر سوى أن يبرز أن تحديد كفاءة صدور القيم متوقف على هذا العنصر التراتبي الذي يقسم العالم بمواضعه ورموزه إلى تعارضات مختلفة: إلى أدنى وأعلى، وضع وبيل، شرير وطيب، سطح وعمق.

الجنياولوجيا إذن تأويل للنص الهيروغليفي للميتافيزيقا، وهو تأويل يقف عند الأصول، ولكنه ينظر إليها من حيث هي منطبقة مع الحركة التي تظهر الأشياء في الواقع عندما تعطى معنى وقيمة، وأعني مكانة ضمن التراتب والاختلاف. فإذا كان التأويل هو إبراز معنى خارق في الأصل والبداءة، فإن الميتافيزيقا وحدها هي الكفيلة بأن تفسر مصير الإنسانية. ولكن، إن كان التأويل يعني أن نضع أيدينا على مجموعة من القواعد التي لا تتمتع بأية دلالة جوهرية كي نوجهها وجهة معينة ونخضعها لإرادة جديدة وندخلها ضمن آلية أخرى وقواعد مغايرة، فحينئذ سيكون مصير البشرية سلسلة من التأويلات، وتكون الجنياولوجيا هي تاريخ ذلك المصير؛ إنها تاريخ النماذج الأخلاقية والتصورات الميتافيزيقية « تاريخ مفهوم الحرية والحياة الزائدة من حيث هي تدل على ظهور تأويلات مختلفة » (13).

Deleuze, Nietzsche, op. Cit. p. 9 (11)

Nietzsche, *Humain, trop humain*, T.I. Trd. R. Rovini, idées Gallimard, 1968, pré- (12)

face. p. 7. § 24

Faucault, op. cit. p. 158 (13)

إن مقولات الميتافيزيقا عند نيتشه ليست رموزاً تعبر، وإنما هي معانٍ تحيل وتدل، كل ما يعني ويدل على معنى فهو عبارة عن قناع يغلف تأويلات سابقة. الجينالوجيا تتعارض مع القول بالشيء المحال إليه. فكل ما يدل، في نظرها، سواء أكان كلاماً أم شيئاً آخر، كل ما يعني لا يفترض مطلقاً موضوعات تعرض نفسها للتأويل، وإنما يفترض تأويلاً لدلائل وعلامات أخرى. فلا يكون هناك موضوع من موضوعات التأويل إلا وقد أول من قبل. يقول نيتشه: «ليس هناك حادث في ذاته. فكل ما يحصل ويتم ليس إلا مجموعة من الظواهر التي انتقاها واختارها كائن مؤول»، وعيب الميتافيزيقا أنها اقترضت تأويلاً واحداً وقفت عنده واعتبرت أنه التأويل الحق. باستطاعتنا أن نحدد في حالات متعددة ما ليس صادقاً، ولكن ليس باستطاعتنا أبداً أن نحدد ما هو صادق إن الجينالوجي بما هو فقيه لغة يردد على الدوام، ليس هناك من تأويل واحد مطمئن. ذلك أن التأويل، كما قلنا، مفاضلة، وإعطاء أولويات لمعنى على آخر، تلك الأولويات التي ترجع لإرادات القوى وللسلطات التي توجد من وراء كل تأويل.

ذلك أن الجينالوجي ما أن يسمع الحديث عن المعنى وعن الفضيلة والخير، حتى يأخذ في البحث عن استراتيجيات الهيمنة. إنه لا يرى في ذلك إلا لعبة إرادات، لا يرى إلا إخضاعاً وقهراً ومراعاة. لا يرى إلا قوة وسلطة. والتاريخ عنده ليس تقدماً لعقل كوني وإنما لعبة الانتقال من سيطرة إلى أخرى.

لا تنظر الجينالوجيا إلى الميتافيزيقا كمعرفة، إذ أن همها ليس هو تاريخ الحقيقة وإنما تاريخ إرادات الحقيقة. فالميتافيزيقا عندها أساساً أخلاق ولغة. وعندما يقول نيتشه «بأن الأخلاق هي النظرية التي تخص التراتب والتدرج بين البشر، وبالتالي فإنها نظرية حول قيمة أفعال هؤلاء الذين يتدرجون وفق ذلك التراتب» (14)، فإنه يعني بأن الميتافيزيقا، بما هي أخلاق لا يمكن أن تخضع إلا للنقد الجينالوجي الذي يعتبر أن إنتاج الحقيقة لا ينفصل مطلقاً عن القيمة والقوة. لذا فإن علاقة التأويل بالنصوص، في نظر الجينالوجيا، ليست علاقة تأمل كما تريدها الميتافيزيقا، وإنما

علاقة صراع وغزو، وهي تفترض دوماً عملية إنتاج، كما تفترض اختياراً وانتقاء و«اتخاذ المواقف». يقول ياسبرز: «إن إضفاء المعاني على الوجود يعني عند نيتشه إثباتاً لسلم قيم. فقيمة العالم متوقفة على المعنى الذي نعطيه إياه... لذا فلا يمكن للتأويل أن يكون تأويلاً نهائياً بل على العكس من ذلك إنه صيرورة» (15) تحديد الوجود على أنه صيرورة متولد أساساً عن فهمه على أنه سلسلة تأويلات، وعلى أنه ليس واقعاً خاماً. من هنا جاء النظر إلى الميتافيزيقا على أنها لغة. ذلك أن اهتمام نيتشه بالاشتقاق اللغوي يتناظر وكل تاريخ وقائعي. إن معنى الاهتمام باللغة عنده هو نفي الإحالة، نفي الواقع الخام. فالقول بالواقع الخام هو قول بحضور المعنى ونفي لخبث الرموز والدلائل. إن الدال عندما يحيل فهو يحيل إلى دال آخر لا إلى واقع في ذاته. والأفكار لا تمبر، وهي لا تكشف إلا بقدر ما تحجب. يقول زارادشت: «إن جميع أسماء الخير والشر ليست إلا مجموعة من الرموز. إنها لم تعد تعبر عن شيء، وإنما هي تدل وتعني». لذا يؤكد نيتشه: «إن ما يهمنا هو معرفة الكيفية التي تسمى بها الأشياء لا معرفة ماهيتها. فما يشتهر به شيء ما، إن اسمه ومظهره وقيمه وقياسه ووزنه، كل هاته الأمور التي تنضاف إلى الشيء بمحض الصدقة والخطأ، تصبح، من شدة إيماننا بها، يشجعنا على ذلك تناقلها من جيل لآخر، تصبح بالتدريج، لحمه الشيء، ويتحول ما كان مظهراً في البداية إلى جوهر ثم يأخذ في العمل كماهية».

إن الجنيالوجيا ليست تاريخاً وقائعياً يفصل عالم القيم عن الواقع، وإنما هي تحاول أن تربط معاني الواقع بالمنظورات أو التطلعات التي تعطيها قيمة Per-spectives، وهي تدرك تلك التطلعات من حيث هي إرادات قوة متفاضلة. إنها سيميولوجيا تنظر للقيمة كعلامة ورمز تسمى إلى فضح العملية التي يتم بها خلق المل العليا. يقول نيتشه: «إن الحكم الأخلاقي لا ينبغي أن يؤخذ في حرفيته، لأنه لن يكون حينئذ ذا معنى، وعلى العكس من ذلك، إذا أخذ كسيميولوجيا فإنه يكون غنياً بالدلالات. إن الأخلاق ليست إلا لغة رموز».

عندما يسأل نيتشه منظوراً معيناً فهو لا يسأل عن مدلول، لا يسأل مثلاً ما هو الحق في هذا المنظور وما قيمته؟ إن سؤال نيتشه ليس سؤالاً ميتافيزيقياً، ليس سؤال الميتافيزيقا، إنه، كما بين دولوز، السؤال عمّن؟ *le qui*، لا السؤال عما هو الصادق أو العليّ، بل عمّن يصنع جمال الأشياء وحقيقتها، لذا يقول نيتشه في أفول الأصنام: «إننا لا نستطيع تفنيد المسيحية مثلما لا نستطيع أن نفند أمراض العين (...) إن مفاهيم الصدق والكذب لا قيمة لها في مجال المنظارية والبصريّات، ولا يكون علينا إلا أن نقهر موقف الخداع والتفاد الذي يأبى قبول هذين النقيضين كنقيضين».

إن نيتشه لا يريد أن يتجاوز الميتافيزيقا بتفنيدها، ولا يغندها باسم حقيقة مضادة. وبالرغم من ذلك فهو لا يرفض الحقيقة. وإنما يرفض أن نفصل فصلاً وضعياً الحقيقة عن الخطأ. فليس النقد الجنيالوجي فلسفة سلبية تنتقد الفلسفات الإيجابية. إنه لا يقابل الميتافيزيقا بميتافيزيقا مضادة، وهو لا يعارض بل يفارق ويخالف، لا يقول لا، بل يجيب نعم، ولا يعني ذلك أنه يجد الإيجاب ضد السلب. إنه يريد أن يحرر السلب من كل لحظة تركيب، يريد أن يذهب به إلى أبعد مدى. إن النقد الجنيالوجي خلخلة وتقويض، ووسيلته في التفلسف هي المطرقة، بناء على ذلك، فالنقد الجنيالوجي إذ يستجيب ويقول نعم، فإنه لا يقولها للهوية والتطابق والكائن وإنما للصيرورة والفوارق والاختلافات.

إن فلاسفة الميتافيزيقا يتناسون أن التأويلات التي يحيطها الإنسان لنص العالم ناتجة عن تكوين تاريخي، وأنها وليدة الأخطاء والمثرات. فإن كان العالم قد تلون «فنحن ملونوه». لذا فعندما ينمت نيتشه الوجود بأنه هوة وخواء فهو يعني، بالدرجة الأولى، أنه يتمتد إرجاعه إلى مثل أعلى إنساني. إذ أنه هو الحركة ذاتها، هو ذلك السيل من التأويلات التي تشكل العالم.

ولكن لماذا هذا التعدد في التأويل؟ ولماذا اختفاء المعاني، وتوفرها على «نوع من الحبث وسوء النية» (16)، ماذا يفترض هذا الاختفاء؟ هل هناك واقع يختفي ولا يمكن أن نعرفه إلا في هذا التجلي أو ذاك؟ عن طريق هذا التأويل أو ذاك؟ إن الإجابة

من هذه الأسئلة هي ما سيجعلنا نتبين الاختلاف بين التأويل الميتافيزيقي وبين تأويل آخر يريد أن يتجاوزه.

ذلك أن مجاوزة الميتافيزيقا تعني قيام مفهوم آخر عن التأويل وفهماً مغايراً للظهور والاختفاء، والعمق والسطح؛ فالميتافيزيقا تقول هي أيضاً بالتستر، وتؤمن بوجود البواطن والأقنعة، بوجود سطح غير شفاف يحجب حقيقة الأشياء، ولكن هذا السطح في نظرها يفترض ما هو أهم منه. إنه يخفي الأعماق التي لا يمكن أن تظهر إلا بالغاءه إنه علامة على الأعماق، وسرعان ما ينفي تجاوزه نحو ما يوجد خلفه، نحو البواطن والمهايات. أما التأويل الجنياولوجي فهو يقيم سطحاً لعمق له، وظاهراً لا باطن له. «إذا كان هناك قناع، فلا شيء من ورائه، إنه سطح لا يخفي شيئاً سوى ذاته» (17). يقول نيتشه: «ما هو الظاهر عندي؟ من المؤكد أنه ليس عكس الوجود. فما عسى يمكنني أن أقول عن الوجود مهما كان اللهم صفات ظاهراً إن الظاهر ليس عندي قناعاً لا حياة فيه. إن الظاهر عندي هو الحياة والفعالية ذاتها. إنها الحياة التي تسخر من ذاتها كي توهمني بأن لا وجود إلا للمظاهر» (18)، فبينما تعتبر الميتافيزيقا أن السطح يخفي من ورائه الأعماق، فإن الأعماق هنا لن تعود إلا نتيجة للوهم الذي يبحث فيه السطح الذي يمنعنا من أن ننظر إليه كسطح. ولكنه ليس السطح الفارغ الشفاف، إنه سطح ثري.

يحكي لنا نيتشه في أقول الأصنام كيف «أصبح عالم الحقيقة في النهاية حكاية» (19) وكيف اختفى عالم الميتافيزيقا، العالم الأفلاطوني والمسيحي والمثالي الذي كان مرجع عالم الظواهر، ثم يتساءل: ماذا يتبقى لنا بعد هذا الاختفاء؟ أهو عالم الظواهر؟ فيجيب: «كلا، إنما عندما قضينا على عالم الحقيقة، محونا عالم الظواهر». فليس اختفاء عالم الحقيقة حلاً للعالم الواقعي الذي نتحدث عنه الوضعية. إنه، على العكس من ذلك، انهيار للزودواجية ذاتها، للتقابل بين الحقيقة والظاهر، بين السطح

(17) انظر بهذا السعد

J.L. Baudry : "Ecriture, fiction, idéologie" in Tel quel, Théorie d'ensemble. Seuil.

Paris 68. pp. 130 - 1.

(18) Nietzsche, Crépuscule des idoles; idées - Gallimard, Paris 77. p. 43 - 4

(19) المرجع نفسه. ص. 109.

والعمق، بين الواقع والخيال ليصبح الخيال واقماً، وعالم الحقيقة حكاية. معنى ذلك، كما يرى كلوسوفسكي (20) أن العالم يخرج، بفضل الجينالوجيا، من الزمان التاريخي ليدخل زمان الأسطورة، زمان السرمدية. «حينئذ تصبح رؤية العالم إدراكاً للسرمدية. وقد رأى نيتشه الشروط الذهنية لهذا الخروج في النسيان. (نسيان الوضع التاريخي). ففي النسيان يجيء الماضي نحو الإنسان من حيث هو مستقبلاً وقد اتخذ صورة الماضي».

تقيم الجينالوجيا مفهوماً مضاداً للزمان التاريخي الذي رسخته الميتافيزيقا، وأعطاه هيجل شكله النهائي. يعرض نيتشه في كتابه «في منفعة التاريخ للحياة وضرره لها» لنقد هذا المفهوم، ولما يطلق عليه «التضخم» التاريخي، أو حمى التاريخ التي عرقتها ألمانيا خلال القرن الماضي، وبالفبط ذبوع النزعة التاريخية التي تعلي من فكرة التطور. في إحدى فقرات هذا الكتيب يحيب نيتشه على من يدعوه رجال التاريخ «الذين يعتقدون أن معنى الوجود يتجلى شيئاً فشيئاً خلال التطور «كونهم» لا يلتفتون إلى الوراء، إلا لكي يفهموا الحاضر اعتباراً بالتطور السابق. إنهم لا يعلمون أنهم، بالرغم من معرفتهم التاريخية، فإن أفكارهم وأعمالهم بعيدة عن التاريخ» (21). ضد هؤلاء يتحدث نيتشه عن يسميهم «المتعالمين على التاريخ» الذين لا يرون إخلاص في التطور، بل الذين يكتمل العالم في نظرهم ويبلغ هايته كل لحظة (...) فبعد جميع الأشكال التي يُنظر من خلالها إلى الماضي عادة، يجمع هؤلاء على أن الماضي والحاضر هو ذات الشيء» (22).

ما يميز الموقف الجينالوجي هو إدراك الزمان، لا انطلاقاً من الآن، بل من اللحظة. وما يميز اللحظة عن الآن، «هو أن اللحظة ليست هي أسفر جزء من الحاضر. إنها تفتح الحاضر أو تصدعه» (23) لذا يقول هايدغر إن الحاضر كلحظة يحدث فجوة في الحال الراهن. فاللحظة بلغة نيتشه هو ما يقوم ضد هذا الزمان *intempestif*، ما

Klssowski. P., un si funeste désir. Gallimard. 1978, p. 194 (20)

Nietzsche : *Considérations intempestives II*. Trd. Bianquis, Aubier-Montaigne, (21)

Paris, 1964, p. 217.

Ibid, p. 217 (22)

Birault. H. *Heidegger et l'expérience de la pensée*. Gallimard, Paris. 1978. p. 606. (23)

يقوم ضد الزمان الحاضر. «فما هو ضد الزمان الحالي لحظي. اللحظي هو قرار التاريخ النقدي الذي ينزل، مثل الساطور، على ثقل الماضي وثقل الحاضر» (24). وهكذا سيكشف الحاضر عن أن يكون قطعة من الديومة المستمرة، وسيحرر من ثقل الماضي الجائئ أو على الأصح، إن الماضي هو الذي سيتحرر من الحضور لتصبح أمام «حضور» لا زمني للحاضر: حضور على شكل لحظة منسوجة على أرضية من النسيان» (25). فليست اللحظة نقطة من الحاضر. إنها «منسوجة على أرضية من النسيان» والنسيان كما يقول نيتشه، سواء في هذا الكتيب (1876) أو في جنياولوجيا الأخلاق (1887) «هو قدرة إيجابية بالمعنى الدقيق للكلمة» (26) «قدرة تغلق، من حين لآخر، أبواب الوعي ونوافذه»، فتحوّل دون تدفق الماضي وسعيه أن يحضر ويحيا ويتطابق. النسيان «حارس النظام النفسي... ولولاه لما كانت هناك سعادة ولا اطمئنان ولا أمل ولا حاضر» (27). إنه ما يجعل الحضور غائبا على مستوى الشعور.

هذا الحضور اللازمي للحاضر، هو حاضر «أكثر جذرية من التوالي والخلود. إنه الحاضر الذي ينطوي عليه اسم الوجود، والذي يلتقي عبره ما تمّ وما لم يتم بعد، أو بالأحرى يستجيب أحدهما للآخر بكيفية تخالف ما نعنيه عادة بالتوالي. إن الحاضر والماضي والمستقبل، إن هذه الأنماط، عوضاً أن يتلو أحدها الآخر، فهي تتعاصر، خارج بعضها البعض، في عالم لا يكون فيه الحاضر هو الآن الذي يمر، بل إنه يمتد بعيداً حتى يبلغ المستقبل الذي يستجيب للماضي» (28).

هذا هو زمان المود الأبدى، حيث لا يحيل ما يحصل إلى أي حضور. فالمود الأبدى يعني ألا حاضر يستقر فيما يحصل: «إذا رددنا، على غرار بارمنيدس: إن هذا لم يحصل قط، ولن يحصل أبداً، لأنه كائن. فلننا سنحرر الماضي والمستقبل من

Ibid. (24)

Op. cit. p. 614 (25)

Nietzsche : Généalogie II. p. 1 (26)

Ibid. (27)

E. Rubery - Elebuhand : 12 question posées à J. Beaufret à propos de Heidegger, (28)

Aubier, Paris. 1983. p. 24.

كل حاضر ما دام الكائن لن يحضر سواء فيما تم أو فيما سيجيء» (29). لن يتبقى من الزمان، والحالة هذه، إلا خط واه ما يقتأ يتجاوز «خط لا تنفك تتخطاه، ولكنه لن يتخطى أبداً. إن استحالة وضع هذا الخط، هذه الاستحالة هي ما يمكن أن نطلق عليه حاضراً (...)» إن العود الأبدي يفترض اكتمال الزمان كحاضر، كما يفترض في هذا الاكتمال تصدع الزمان». بحيث إن العود الأبدي، عندما يثبت المستقبل والماضي وحدهما كنمطين زمنيين، يتطابقان من غير أن يرتبطا فيما بينهما، وعندما يحرر المستقبل من كل حاضر، والماضي من كل حضور، فإنه يمزق الفكر إلى حد أن يذهب إلى التأكيد بأنه في المستقبل لن ينفك عن الرجوع ذاك الذي لم يحضر قط بأي شكل من الأشكال مثلما أنه في الماضي، لم ينفك عن العودة ذاك الذي لم يتم إلى أي حاضر.

تريد الجينالوجيا أن تلتفت إلى ماض ما ينفك يمضي وحاضر ما قئ يحضر. فهي لا تنظر إلى الميتافيزيقا على أنها «حضرت» في وقت ما فتحدت كذاتية متميزة. صحيح أنها كما قلنا بحث عن بداية وأصل «ولكن البداية تظهر بحيث تسبق كل ما يحدث وهي لهذا تأتي، بالرغم من تسترها، لتتقرب من الإنسان كموجود تاريخي. إن البداية لا تمضي أبداً. إنها ليست شيئاً يمضي ويزول. لذا فنحن لا نلغي البداية مطلقاً إذا ما أولينا نظراً نحو الماضي التاريخي. بل إننا نجد في الفكر المتذكر الذي يعمل فكره في الوقت ذاته في الوجود الماضي وفي حقيقة الوجود» (30). إن الجينالوجيا تنظر إلى البداية على أنها تكرار، ولكن هذا لا يعني مطلقاً أنها ترجع التاريخ إلى حاضر دائم. إنها على العكس من ذلك، تقف بالضبط عند التبعاد الذي يكون فيه الحاضر بالنسبة لذاته. إنها لا تحاول أن ترد تاريخ الميتافيزيقا إلى وحدة أصلية وإنما تريد أن تبرزه في اختلافاته. تريد أن تقيم الحركة المولدة للفوارق والاختلافات. إنها تنظر إلى الحاضر، كما يقول (دريدا) «كتركيب أصلي من البقايا وآثار الاحتفاظ، ولكنه تركيب لا يمكن أن يرد إلى أبسط منه. إذاً فليس هو بالتركيب الأصلي. وهذا ما اقترح أن أطلق عليه الكتابة الأصلية أو الأثر

الأصلي أو حركة توليد الفوارق» (31).

الجنيلوجيا إذن محاولة لمجاوزة الميتافيزيقا. إنها رجوع إلى الوراثة ومحاولة لاسترجاع الاختفاء الذي كان وراء كل انكشاف، والغياب الذي كان خلف كل حضور. أليست استذكراً لتاريخ الوجود من حيث هو اختلاف منسي، ونسيان للاختلاف؟ تلك هي القراءة التي سيقراً بها هايدغر أعمال نيتشه وتاريخ الميتافيزيقا. وذلك ما سنعرض إليه في الفصل اللاحق.

الفصل الثاني

تَقْوِيضُ المِيتَافِيزِيقَا

« إن الذي يفكر في حقيقة الوجود لا يقتصر على الميتافيزيقا. بيد أن هذا لا يعني أنه يفكر ضد الميتافيزيقا. وإذا أردنا أن نستعمل عبارة مجازية لقلنا إنه لا يجهت شجرة الفلسفة، ولا يقتلها من جذورها. إنه يقلب الأساس ويقلب الأرض. إن الميتافيزيقا تظل أول مادة للفلسفة. بيد أنها لا تبلغ قط أن تكون المادة الأولى للفكر. ذلك أن الفكر الذي يفكر في حقيقة الوجود مرغم على أن يتجاوز الميتافيزيقا ».

م. هايدغر

إن كان هايدغر يكثر من الحديث عن ضرورة مجاوزة الميتافيزيقا و«نهايتها لتحديد مهمة الفكر»، فهو يرى أن كل محاولة للنظر فيما يمكن أن يكون مهمة للفكر تجد نفسها مدقوقة لأن تأخذ الكل الذي هو تاريخ الفلسفة بعين الاعتبار. فالفكر الذي يفكر في حقيقة الوجود، بما هو فكر، لا بد وأن يكون تاريخياً، أي يدخل في حوار مع تاريخ الفكر ذاته. وفي إطار هذا الحوار سيحاول هايدغر أن

يحدد موقفه من تاريخ الميتافيزيقا. وهو يتقف بالضبط عند من ارتقى بالميتافيزيقا إلى مستوى التاريخ، أي عند هيجل.

لا ينظر هايدغر إلى تاريخ الفلسفة من وجهة نظر الحقيقة، وهو إذ يحاور هيجل، لا يحاول غربة أفكاره لتمييز صوابها من خطئها - يقول: «إن التحديد الهيجلي لتاريخ كنمو للفكر ليس تحديداً خاطئاً، لكنه ليس كذلك بالتحديد الصحيح في جزء منه والخطأ في الآخر. إنه صحيح صحة الميتافيزيقا التي استطاعت، مع هيجل، ولأول مرة، أن تجد التعبير عن ماهيتها المطلقة في المنظومة الفلسفية» (1).

سيتم تحديد موقف هايدغر من تاريخ الفلسفة إذن خلال مشروعه لمجاوزة الميتافيزيقا. وهو إذ يحاور هيجل فإنما يحاور الفيلسوف الذي ارتقى بمهية الميتافيزيقا المطلقة إلى مستوى اللغة. لذا فهو يؤكد، مع هيجل، بأن تاريخ الفلسفة ليس مجرد عرض لأراء مفست وانقفت، وهو لا يعني أن هناك منظومة فكرية ويمكن عرضها في شكل تأريخ لأراء ماضية (2).

المعروف أن هيجل يأبى لتاريخ الفلسفة أن يكون سرداً لأفكار ذاتية بطبعها الجواز. يقول: «لا تنطوي الفلسفة على آراء. ليست هناك آراء في الفلسفة. وعندما يتحدث المرء عن آراء فلسفية، حتى ولو كان مؤرخاً للفلسفة، فإن ذلك يكشف عن عيب في ثقافته. الفلسفة هي العلم الموضوعي بالحقيقة. إنها معرفة ضرورتها. فهي معرفة وليست رأياً أو سرداً لأراء» (3). موضوع الفلسفة هو الفكرة في عينيها، أي كوحدة لمختلف التعيينات (4). إنه الكلبي العام، «الكلبي المطلق» (5). فلا يشكل تاريخ الفلسفة عند هيجل، وكما يعتقد عادة، تعبيراً عن تاريخ آخر. ذلك أن الكلية التاريخية عند هيجل، كلية متجانسة الأجزاء «ولا يشكل التاريخ السياسي علة

(1) - Heidegger, M. "Lettre sur l'humanisme" in question III. Gallimard, 1966. pp. 109 - 110

Ibid. p. 108 (2)

Hegel, Leçons sur l'histoire de la philosophie, Trd. Geblin, Gallimard, p. 34 (3)

Ibid. p. 36 (4)

Ibid. p. 87 (5)

لظهور الفلسفة. إنه التعيين نفسه الذي يخترق الكل ويظهر في السياسة، كما يظهر في العناصر الأخرى المختلفة. إنه وضع متجانس في جميع عناصره» (6). وما المنطق إلا التعبير عن هذه الكلية المطلقة. الوجود المطلق يقول نفسه، والفلسفات الجزئية هي مقولات الوجود، ما يقوله الوجود. لوغوس الوجود. فليس الإنسان هو الذي يصنع الفلسفة. الفلسفة من خلال الإنسان تصنع ذاتها. والماهيات نفسها تكشف للتجربة البشرية، وهي ذاتها فكر الوجود، ووعي بالذات كوني يكشف معنى الوجود. ما أبعدنا عن كل علاقة تاريخية سيكولوجية مع ماضي الفلسفة. تاريخ الفلسفة هنا هو تاريخ الوجود. إنه قدر الوجود الذي يشكل كل فيلسوف أثره والعلامة التي يخلفها.

يلتقي هايدغر مع هيجل في تأكيده بأن تاريخ الفلسفة ليس من صنع المفكرين، وأنه من فعل الوجود. فهو لا ينقل ما يتعلق بأراء وتمثلات عن الوجود مضت وانقضت، وهو لا يتابع شروط تأثيرها ولا يعرض لوجهات النظر داخل تاريخ التصورات (7). بهذا المعنى فإن الفكر مجهول الاسم. والفلسفة لا كاتب لها. يُفكر في الوجود. والوجود يحث على الفكر، مثلما يكون المطلق عند هيجل موضع تفكير بالنسبة لذاته. لذا فعندما يتحدث هايدغر عن نهاية الميتافيزيقا ومجاوزتها، لا يقصد «أن دراسة ستخفي من أفق الثقافة الفلسفية» (8) إنه لا يعني بها مبحثاً من المباحث الفلسفية، ولا دراسة بعميقها، وإنما البنية الأساسية للوجود (9). فتاريخ الوجود يرقى إلى اللغة في ما يقوله المفكرون الأساسيون. وما أفكار المفكر إلا صدى تاريخ الوجود في الكلام الذي فاه به ذلك الرجل التاريخي كما لو كان لفته (10). إذ أن اللغة هي مأوى الوجود ومسكنه.

(6) Ibid. p. 44

Heidegger. Nietzsche II, Trd. Klossowski, Gallimard, 1971. p. 393 (7)

Heidegger. «Le déplacement de la métaphysique in Essais et conférences. (8)

Gallimard, p. 80

Heidegger. Chemins qui ne mènent nulle part, Gallimard, 1962. p. 266 (9)

Heidegger. Nietzsche II, op. cit. p. 340 (10)

نقرأ أيضاً في «معارف ومخبرات». ص. 24. «إننا كان الواقع عند انقلاص لحد يظهر في ضوء الفكر والمعاني، فليس ذلك من فعل انقلاص. إن الفكر لم يصل إلا على الاستجابة لا قبحه إليه».

عندما يؤكد هايدغر إذن تاريخية الفكر، فهو لا يعني فحسب أن قانون الفكر يمكن أن ينسحب على قانون التاريخ. وهو لا يقصد، كما يظهر لهيجل، أن المنظومة الفكرية يمكن أن تضع قانون الفكر كقانون للتاريخ، وأن ترد، تبعاً لذلك، التاريخ إلى المنظومة (11). إنه يعني أن هناك تاريخاً للوجود ينتمي إليه الفكر كمذكّرة فيها فكر في الوجود، مذكّرة لهذا التاريخ وضعت بفضله. لا عجب أن يكون تاريخ الفكر استذكاراً، «فالاستذكار الذي يسترجع الميتافيزيقا من حيث هي فترة ضرورية من تاريخ الوجود هو الذي يسمح لنا بالتفكير في الكيفية التي يحدد عن طريقها الوجود حقيقة الموجود (12). لا يعني ذلك أن الأمر يتوقف على ذاكرة مؤرخ يسترجع بعض الحوادث التاريخية. إن الاستذكار من فعل الوجود ذاته. فليست الذاكرة هنا قدرة من القدرات السيكلوجية. يأخذ هايدغر لفظ الذاكرة في معناها الأصلي، حيث لم تكن تحيل إلى القدرة على التذكر، وإنما إلى النفس بكاملها كاستيعاب لما يخاطب الإحساس بكامله. «إنها تعني في الأصل الاقتراب والحضرة.. أن تظلّ بالقرب من.. لا القرب من الماضي وحده، بل من الحاضر وما سيأتي. ذلك أن ما مضى وما سيأتي، كل هذا يظهر في وحدة الحضور» (13). وإذا كان تاريخ الفلسفة استذكاراً وتذكّراً، فذلك لأن الميتافيزيقا إغفال للوجود ونسيان له. ينكشف نسيان الوجود في كون الإنسان لا يعتبر إلا الموجود ولا يتعامل إلا معه. ولكن، بما أن الإنسان لا يستطيع أن يمتنع عن تمثّل الوجود، فلا يتحدد الوجود إلا كحقيقة عامة للموجود، وبالتالي إلا من حيث هو ما يشمل الموجود، أو من حيث هو خلق للموجود اللامتناهي، أو متزوج لذات متناهية. وفي الوقت ذاته فإن الوجود يؤخذ دوماً على أنه هو الموجود والعكس.

ليس نسيان الوجود حدثاً عارضاً ولا عشرة من عشرات التاريخ. كما أنه ليس إغفال ذات متذكّرة. إن نسيان الوجود جزء من ماهية الوجود. وهو الجزء الذي يحجب الوجود عن طريقه. إن النسيان من صميم الوجود، إلى حد أن فجر الوجود

Heidegger. "Lettre sur l'humanisme" op. cité p. 108 (11)

Heidegger. Nietzsche II, op. cité. p. 392 (12)

Heidegger. Qu'appelle-t-on penser? P.U.F. 1959. p. 146 (13)

يبدأ كاشف للحاضر في حضوره. وهذا يعني أن «تاريخ الوجود يبدأ بنسيان الوجود» (14). تاريخ الفكر لم يبدأ بالتفكير فيما يفكر فيه، «بل بالقبض بتركه طي النسيان» (15).

كيف نقبل هذا ونحن نعلم أن الميتافيزيقا، منذ أرسطو، حددت نفسها كأطولوجيا، أي كعلم بالوجود من حيث هو موجود؟ يجيب هايدغر: «صحيح أن الميتافيزيقا تمثل الموجود في وجوده، وبذلك فهي تفكر في وجود الموجود، إلا أنها لا تفكر في اختلاف الوجود عن الموجود» (16). الميتافيزيقا نسيان للاختلاف بين الوجود والموجود، فهي إذن نسيان للوجود. إن تاريخ الوجود يبدأ بنسيان الوجود، من حيث إن الوجود يستتر ماهيته ويحجبها. أي أنه يخفي اختلافه مع الموجود. فالاختلاف يظل طي النسيان، ولا يظهر إلا طرف من أطرافه، الحاضر أو الحضور، ولكن لا كطرف. "بل أن الأثر المبكر على العكس من ذلك، يحي مجرد أن يظهر الحضور كموجود حاضر" (16). وهكذا فإن ما يشكل طرفي الاختلاف يعرض نفسه وينسحب بالرغم من ذلك. لهذا فإن الاختلاف ذاته يظل طي النسيان، وليس نسيان الوجود «إلا نسيان الاختلاف بين الوجود والموجود» (17).

الاستذكار إذن استرجاع للوجود من حيث هو اختلاف أنطولوجي، من حيث هو اختلاف منسي، ونسيان للاختلاف. من هنا يملن هايدغر اختلافه الصريح مع هيجل: «لموضوع الفكر عند هيجل هو الوجود منظوراً إليه من حيث يفكر في الموجود في سياق الفكر المطلق. أما بالنسبة إلينا فإن موضوع الفكر هو الشيء ذاته، أي الوجود، ولكن من حيث يختلف عن الموجود. وبعبارة أدق، إن موضوع الفكر بالنسبة له هو الفكر الكلي كتصور مطلق، أما بالنسبة إلينا، فإنه الاختلاف بما هو اختلاف» (18).

هذا الفكر الكلي يجده هيجل في ما فكر فيه المفكرون، من حيث إنه لحظات

Heidegger. *Chemins*. op. cité. p. 279 (14)

Heidegger. *Qu'appelle-t-on penser?* op. cité. p. 145 (15)

Heidegger. *Chemins*. op. cité. p. 279 (16)

Ibid. (17)

Heidegger. "Identité et différence". in *Question I*; Gallimard, 1979. p. 282 (18)

الفكر المطلق. أما الاختلاف، بما هو اختلاف، فإنه يظل طبي النسيان. «لا لأن النسيان يلحقه ويصيبه كشيء طارئ، وفيما يعد، لمجرد أن الفكر البشري يغفل ويتناسى» (19). لذا فهو يظل لا مفكراً فيه. بناء على هذا يعلق هايدغر: «إن قانون الحوار مع التراث التاريخي بالنسبة إلينا هو ذاته بالنسبة لهيجل، من حيث إن الأمر يتعلق ببلوغ الفكر الماضي في دقته وقوته. إلا أننا لا نبحث عن تلك الدقة فيما فكر فيه المفكرون، وإنما فيما لم يفكروا فيه، في اللامفكر فيه، ذلك اللامفكر الذي يستقي منه المفكر فيه ماهيته. بيد أن المفكر فيه هو وحده الكفيل بأن يهد لما لم يفكر فيه بعد» (20). لا محيد للفكر إذن من الحوار مع ما فكر فيه المفكرون، حتى وإن كان يتمص اللامفكر فيه. ذلك أن اللامفكر فيه *Impensé* لا يعني ما لم يعمل فيه الفكر بعد *le non pensé*. كما لا يعني أن حقيقة الوجود مازالت فكرة معلقة كتجربة ممكنة للمفكر. «وإنما أن الفكر الغربي، وبالضبط في صورة الميتافيزيقا، يحجب عنا هنا حدث هذا التعليق» (21). ليس اللامفكر فيه إذن شيئاً خارجاً عما نُفكر فيه بعيداً عنه. والحوار مع تاريخ الفكر لا يرمي إلى تفنيد آراء المفكرين وتقوم أفكارهم لإكمال نقص الفكر وتصحيح أخطائه. ذلك أن مسألة الوجود ليست مسألة خطأ وصواب. إن الميتافيزيقا ليست مجرد خطأ: «إنها، من حيث هي تاريخ حقيقة الوجود، قد قامت انطلاقاً من قدر الوجود ذاته. الميتافيزيقا في ماهيتها هي سر

Ibid. p. 285 (19)

هكذا النسيان يعطي الانفتاح. نظامي لا هو طبي النسيان حضوره الخاص.

انظر أيضاً: "De l'essence de la vérité", in *Question I*; op. cit. p. 185

Heidegger. "Identité et différence" op. cit. p. 283 (20)

يقول هايدغر في كتابه عن كلف من 255: «إن ما كشف عنه كلف فيما وراء التعليقات الصريحة، إن هذا هو ما لم يرق هو ذاته إلى الإفصاح عنه. وصفة عامة فإن ما تتطور عليه كل معرفة فلسفية من أمر حاسم ليس هو ما تلصق عنه بصريح العبارة بل ما تعريضه أمام الانتظار كشيء لم يقل بعد. بل إن هايدغر يطبق هذا الرأي حتى على فكره عن «لا يتستر مجهولنا نحن كالكهنة» أشياء لا نذكرها» من 360.

من هنا يستنتج هايدغر أن تاريخ الفلسفة عند هيجل هو تاريخ إشكالات جاهزة يقرئ «إننا نخالف هيجل من حيث إننا لا نكون، في تاريخ الفلسفة، أمام شكل موروث جاهز، تمت صياغته من قبل، وإنما أمام ما لم يسأله أحد خلال تاريخ الفلسفة بأكمله».

Identité, op. cit. p. 285.

Heidegger. *Chemins*, op. cit. p. 175 (21)

الوجود . لكنه سر لم يفكر فيه ، لأنه ظل سرّاً مبهماً» (22) . هناك خاصية مزدوجة للتراث الفلسفي عند هايدغر : فبينما يشكل هذا التراث ذخيرة العقل الواعي بذاته ، عند هيجل ، ولحظات لنمو الفكر ، فإنه ، في نظر هايدغر ، ينبوع وحاجز . فتاريخ الفلسفة ، الذي لا يمكن للفكر أن يتجاوزه إلا بمحاورته ، والذي هو الكفيل وحده بأن يهد لما لم يفكر فيه ، يشكل في الوقت ذاته حاجزاً دون ذلك : « فالميتافيزيقا ، بالكيفية التي تفكر فيها في الوجود ، تشكل ، بالرغم من أنها عائقاً يحول دون الإنسان وإقامة علاقة أصيلة بالوجود » (23) .

ذلك أن حركة التاريخ إن كانت تتحدد عند هيجل كشيء حصل وتم كضرورة جدلية ، فإن التاريخ لا يتم عند هايدغر كحصول ، والحصول لا يقتصر على انسياب الزمن . ولا يتحقق داخل الزمان بمفهومه العادي . ذلك أن هيجل عندما يؤكد أن الفكر أو التاريخ ، يقع داخل الزمان ، فهو لا يفكر بعيداً عن الزمان العادي . « المفهوم الهيجلي عن الزمان هو صياغة للتصور العادي عن الزمان » (24) . يتوصل هايدغر إلى هذه النتيجة بعد تحليل يجمله أحد الدارسين فيما يلي :

- إن هيجل يتعرض لمشكل الزمان داخل فلسفته في الطبيعة . « ومن ثمة فإن هذا المفهوم ينتمي إلى أنطولوجيا طبيعية ، وإلى الوسط نفسه والسمات نفسها التي

Ibid. p. 217 (22)

M. Heidegger. "Qu'est ce que la métaphysique ?". in Question I. p. 30 (23)

يؤكد هايدغر كثيراً على هذه الخاصية المزدوجة للتراث الفلسفي . وهذا منذ كتابات الأولى . فقرأ في الوجود والزمان (ص. 38) على سبيل المثال

« إن التراث الذي يفرض سيادته ، يبدأ عن أن يسمح بإفراخ ما ينقله فإنه غالباً ما يساهم ، على العكس من ذلك ، في تظليله رحبه ودر بطن من محتواه ويهمل منه مجرد إداماته فيقول دون يفرغ دلالاته الأصلية التي تهلل منها المقرات والمفاهيم التقليدية في جزء منها على الأقل بل إن التراث قد يرمي بهذه الأصول على الصبيان فيقتضي على الحاجة إلى فهم ضرورية العودة إلى النابع . إنه يستأصل الإنسان من تجزئه التاريخي إلى حد أن اعتماده لا يعود متصداً إلا على تعدد النماذج والاتجاهات والآراء الفلسفية للمكثة عند أكثر الثقافات بعداً وتغريباً . علماً بذلك على إخفاء استئصاله وراء هذه المنفعة . ونتيجة لذلك فإن الإنسان بما يحويه من اهتمام بالتقويل الأنطولوجي للتاريخي للتراث لا يحده في استطاعته أن يدرك حتى أبسط شروط إمكان الوجود الحقيقي إلى للناسي كتلك خلقه الوجود والزمان . ص. 38 . غابرييل .

- Heidegger . - Sein und Zeit cité dans D. Souche - Dagues : (24)

"Une exégèse heideggerienne: Le Temps chez Hegel d'après le § 82 de S.U.Z"

R.M.M.N°1. Janvier - mars 1979.

يتميز بها التصور الأرسطي كما هو معروض في الفصل الرابع من كتاب الطبيعة» (25).

- وهو يثبت أن حقيقة المكان، الذي يرتد إلى قطع، هي الزمان الذي يرتد إلى سلسلة من الآتات.

- يمثل جوهر التأويل الهيجلي للزمان في تعيينه كنفي للنفي.

- يستخلص هيجل من ذلك أن الفكر يقع في الزمان للتقارب الموجود بينهما،

فكلاهما نفي للنفي ونفي مطلق.

بناء على ما سبق يستنتج هايدغر أن المفهوم الهيجلي عن الزمان ليس هو المفهوم العادي فحسب، بل إنه المفهوم التقليدي الذي كرسته الميتافيزيقا، أي مفهوم أرسطو. ومن ثم فهو يمتد مقارنة بين المفهوم الهيجلي والمفهوم الأرسطي فيقول: «يرى أرسطو أن ماهية الزمان هي الآن le nun، وهيجل كذلك. وهو يحدد الآن كنهاية Oros وهيجل كذلك. وهو يدرك الآن كنقطة Stigme وهيجل كذلك. وهو يتصور الآن كهذا المشار إليه، وهيجل يطلق عليه «هذا المطلق». وفق التقليد المتعارف عليه يربط أرسطو الكرونوس بالكرة، أما هيجل فيلج على الدورة الدائرية للزمان. وهكذا فباستطاعتنا أن بين أن التصور الهيجلي للزمان مستقى من فيزياء أرسطو بكيفية مباشرة» (26).

قد يرد البعض بأن ما يقوله هايدغر هنا مقصور على كتاباته الأولى، وأنه سيتغلى عن هذا الموقف بعد الانعراج، وأنه سيلج على مفهوم القدر والمصور التاريخية أكثر من اهتمامه بنقد المفهوم الأرسطي - الهيجلي عن الزمان. ولا تهمنا هنا الدراسة التاريخية لأفكار هايدغر وتحولاته ابتداء من الوجود والزمان. ويكفي أن نذكر بأن المحاضرة التي أقيمت سنة 62 تعود لعمالة نفسها. وهي بعنوان «الزمان والوجود»، وأنه عاد في دروسه التي نشرت في كتاب ما هذا الذي نسميه تفكيراً إلى الاهتمام بنقد المفهوم الهيجلي عن الزمان ومجاوزته.

وبالفعل، فنحن نقرأ في هذا الكتاب: «على التمثل الأرسطي للزمان، هذا

Derrida - "Ousia et gramme" in marges op. cité. p. 39 (25)

Heidegger. - SUZ cité in Derrida : marges. op. cité. p. 40 (26)

التمثل الذي كان الإغريق قد رسموا معالنه قبل أرسطو ذاته، تقوم جميع المفاهيم التي ظهرت فيما بعد عن الزمان» (27). وهذا لا يستبعد ظهور مناهي مختلفة لتأويل الشيء ذاته عند مختلف المفكرين، عند أفلوطين مثلاً، والقديس أوغسطين، وعند لايبنتز وكنت و هييجل وشيلينج. كل هؤلاء لا يحددون عن الطرح العادي والميتافيزيقي لمسألة الزمان، إذا طرحت الميتافيزيقا مسألة الزمان، مسألة ماهية الزمان، فإنها تطرحها، من دون شك، بالكيفية نفسها التي تنهجها في طرح المسائل، «إن الميتافيزيقا تتساءل عن وجود الموجود؟ (أرسطو)، تتساءل عن وجود الموجود انطلاقاً من الموجود. تتساءل عما هو موجود في الموجود؟ فيم يقوم في الموجود وجوده؟ (...) تتساءل ما هذا الذي يوجد في الزمان؟ ما أن يطرح الفكر الميتافيزيقي السؤال حتى يكون قد عرف ما يعنيه بالموجود وما يقصده بلفظ الوجود. الموجود عنده هو الحاضر، هو المائل، والموجود يزداد وجوداً كلما ازداد حضوراً. وهو يزداد حضوراً كلما امتد قيامه، كلما طالت مدة قيامه.»

هذا التفسير العادي - الأرسطي لوجود الموجود يستمد من الزمان مفهومه عن الوجود. يظهر هذا في تحديد معنى الوجود كـ باروسيا وأوسيا التي تعني بالمعنى الأنطولوجي - الزماني الحضور. يدرك وجود الموجود إذن كحضور. «و هو يفهم بدلالة نمط معين للزمان هو الحاضر» (28) يزداد الموجود وجوداً كلما ازداد حضوراً، كلما امتد قيامه، كلما طالت مدة قيامه. وما الذي يكون حاضراً في الزمان؟ «إن ما يحضر في الزمان هو الآن» (29). المفهوم العادي - الفلسفي - التقليدي، المفهوم الأرسطي - الهيجلي، المفهوم الميتافيزيقي يدرك الزمان انطلاقاً من الحضور والأوسيا انطلاقاً من الباروسيا. وكل ما تقوم به الفلسفة في شكلها الحديث، ابتداء من ديكارت حتى هييجل، هو أنها مستحول الحضور إلى مثول أمام الذات، التي تتمثل، وتحول الموجود الأسمى إلى ذات تدرك نفسها وتتمثلها في المعرفة المطلقة. إنها مستحول الحضور والمثول إلى موضوع يوضع أمام ذات، موضوع سيكون خاضعاً للسيطرة التقنية لهذه الذات.

Heidegger. "qu'appelle-t-on penser ? op. cité. pp. 74 - 75 (27)

Heidegger. "L'être et le temps". Trd. Française, Gallimard, pp. 42. (28)

Heidegger. "Qu'appelle-t-on penser ?" op. cité. p. 75 (29)

حتى الجدول الهيجلي إذن «يضع الحاضر كنفي للحاضر الماضي المحتفظ به» (30)، وهو سيجعل التاريخ حركة لحاضر دائم يتجاوز فيه الحاضر - الحاضر الماضي - الحاضر نحو مستقبل سيحضر. إلى حد أن هايدغر يذهب إلى الحديث عن عجز هيجل أن يعطي مكانة لبعدي الماضي والمستقبل، اللهم المكانة الذاتية، (في الذاكرة والخوف والأمل). «وهي، كما نرى، مكانة سيكلوجية» (31).

أن تتمثل الزمان إذن بعيداً عن الميتافيزيقا معناه أن تتمثله بعيداً عن مفهوم الحضور. وحينئذ سيتحقق حصول التاريخ كقدر لحقيقة الوجود. والوجود يبلغ قدره من حيث إنه يعطي نفسه، وهذا يعني أنه «يعطيها ويحبها في آن» (32). إن الحاضر لا يحضر. وهو في تباعد دائم عن نفسه. إنه قائم ضال. ولولا هذا التيه والضلال لما كان هناك تاريخ (33).

عندما يمين هايدغر الانسحاب والأقول كخاصية أساسية للوجود فهو لا يعمل، كما يقول بوفري، «إلا على شرح قولة لهيراقليط: إن ما يميز الظهور هو الاختفاء (...)» للإشارة إلى قوة ظهور الأشياء، تلك القوة التي تختفي كلما ظهرت الأشياء كأشياء، كان الإغريق يستعملون لفظاً يتخذ عندهم دلالة عظمى هو لفظ الوجود» (34).

Derrida, J. - Marges, op. cité, p. 42 (30)

Souche-Dagues: "Une exégèse heideggerienne" art. cité, p. 106 (31)

Heidegger, - "Lettre sur l'humanisme", op. cité, p. 109 (32)

يقول ج. دريدا: «ينبغي أن تكون هناك مسافة تفصل الحاضر عما ليس هو ليكون هو ذاته. يروى أن هذه المسافة التي تشكل كعناصر ينبغي في ذات الوقت أن تصعد الحاضر ذاته وتغفل مع الحاضر، كل ما يمكن أن يفهم عن طريقه. وأمني كل موجود ربما لأفهم ما يتخذ في لغة الميتافيزيقا اسم الجوهر والثبات. هذا التركيب الحاضر من الآثار هو الاختلاف».

Marges de la philosophie, op. cité, p. 13

Heidegger, Chemins, op. cité, p. 275 (33)

الظاهر إن هايدغر، بالرغم مما يقوله فيما بعد عن نيتشه ومفهومه للزمان، الظاهر أنه يتبنى موقف نيتشه هذا. فهو يقول: «في وحدة المستقبل وما مضى يتزامن الازدواج كحاضر. والحقيقة أن الحاضر كلمة يحدث فجوة في الحال الزمان. ولكن إذا أدرك الحال الزمان للظلال من اللغز للمستقبلي والتكراري لإمكانية الوجود فإن التاريخ الوصول سيقرم ضد الحال الزمان».

انظر بهذا الصدد:

Heidegger - S.U.Z. cité in Birault, Heidegger... op. cité, p. 605

Beaufret, J. - Dialogue avec Heidegger III. Minuit, 1974, p. 206. (34)

إن الوجود كاختلاف منسي، كأفول وانسحاب، يتستر بكيفيات مختلفة ليفسح المجال لانكشاف (أليثيا) يفكر في الوجود والحضور من خلاله. فالوجود، عندما يحجب ماهيته، يكشف عن شيء آخر، وأعني عن الأساس، إما في صورة مبدأ وأرخي، أو في شكل علائق وعلل وأسس. إن الوجود عند انسحابه يخلف من ورائه هذه الأشكال من الأسس. ففي كل مرة يعين الوجود حقيقة الموجود (35). لا عجب إذن أن تكون مسألة الحقيقة، كما يؤكد بوفري، «هي الموقع الأساس لتمييز عصور العالم» (36). فليست عصور العالم إلا الكيفيات المختلفة التي تحدثت بها ماهية الحقيقة. إنها العصور المتباينة التي اتخذها الوجود لينكشف كحضور، فالهوناني والمسيحي والمحدث والكوني والغربي، كل هذه العصور ندركها انطلاقاً من خاصية أساسية للوجود، وهي أن الوجود بما هو حقيقة وانكشاف، ولا اختفاء (أليثيا)، فهو يخفي أكثر مما يظهر. بيد أن هذا الانسحاب والأفول لماهية الوجود ومنبعه هو الخاصية التي يتجلى فيها الوجود ابتداءً. وهذا بحيث لا يتابعه الفكر. فانكشاف الموجود وظهوره يخفي وضوح الوجود ويغلفه. إن الوجود ينسحب عندما ينكشف في الموجود. وهكذا فإن ما يظهر ويضيء، وأعني الوجود، يتيه بالموجود، ولا يعرض الموجود إلا في التيه، فيقيم بذلك عالماً من الضلال. «ذاك هو مجال حصول التاريخ (...) ولهذا فإن كل حصول تاريخي أصيل لا يؤوّل بالضرورة إلا تأويلاً خاطئاً» (37). ينظر الاستذكار إلى الميتافيزيقا إذن من حيث هي تاريخ لحقيقة الوجود. إنه ينظر إلى الوجود في مختلف الأشكال التي يعتمد بها كي ينكشف على شكل حضور، سواء أكان هذا الحضور هو المعنى الأفلاطوني أو الجوهر الأرسطي أو اليقين الديكارتي

M. Heidegger. - Le principe de Raison. Trd. Préau. Gallimard. 1962. (35)

يقول ج. دريدا، تعلق على المركز، وبالتتابع روثق نظام خامس، أسماء متتومة متباينة. وربما كان لتاريخ الميتافيزيقا هو تاريخ لهذه الاستطارات والكنايات. لكن هذه الأشكال كلها تجتمع في كونها تعين الوجود كحضور بجموع ما في الكلمة من معان، وبالاستطاعت أن ندين أن كل الأسماء التي لفظت على الأساس والمبدأ أو المركز قد قلت يوماً على ما هو ثابت في العصور (مثل المثال الأفلاطوني والأرخي والغاية والجبرم والمادية والوجود والذات الترسفتالية واليهي والإنسان)

L'écriture et la différence, pp. 410 - 411.

J. Beaufret. Dialogue avec Heidegger III. p. 198. op. cité. (36)

يفيد بوفري «ليس من قبيل الصدفة أن يحصل أكثر مؤلفات هابستر جراحة غران حول فكرة الحقيقة».

M. Heidegger - Chemins. op. cité. p. 274. (37)

أو المعرفة المطلقة عند هيجل. «إن استذكار تاريخ الوجود يفكر في الحدث التاريخي الأصيل كحصول يتعد كل مرة لاختلاف ماهية الحقيقة» (38).

هذا الابتعاد المتجدد المتكرر هو ما يشكل عصور التاريخ *époques*. يستعمل هايدغر هذه الكلمة في معناها الفينومينولوجي كما هو عند معلمه هوسرل. المعروف أن هذا اللفظ يعني في منهج هوسرل تعليق الحكم ورفعها. لذا يقول هايدغر: «نستطيع أن نطلق عصور الوجود على هذا الابتعاد المنير لحقيقة ماهيته (...) فعنه تصدر الماهية المستمرة لقدره، تلك الماهية التي تشكل تاريخ العالم. كل عصر من عصور التاريخ هو عصر يتيه. وإن خاصية الابتعاد والتستر التي يتصف بها الوجود تتأتى من صبقته الزمانية» (39). فعند كل عصر من العصور يتكشف عالم من العوالم. أي تنكشف بالنسبة لإنسان ذلك العالم علاقة جديدة للماضي بالمستقبل (40).

ليست عصور التاريخ إذن مراحل نموه وتطوره. إنها ليست عصوراً تتعاقب ويتلو بعضها البعض «فالتاريخ ليس تماقياً لمصور، وإنما هو اقتراب للشيء ذاته الذي يعني الفكر في أنماط متعددة، وفي صيغ متنوعة من المباشرة» (41) ليست عصور هايدغر هي لحظات هيجل *moments*. ذلك أن هيجل، وهو في هذا لا يبعد عن التقليد الفلسفي، يجد موضوع الفكر في الوجود بما هو كذلك وفي كليته. أي في لحظات الفكر التي تقوده من الخواء إلى الامتلاء (42). فتاريخ الفلسفة يسير عنده سيراً تقديمياً. والفلسفة المتأخرة تنطوي على كل ما أتجه عمل آلاف السنين. إنها حصيلة

(38) انظر بهذا الصدد ما يصفه:

Heidegger. - Nietzsche II. p. 391.

يقول هايدغر: «تتولد القرارات الأساسية للتاريخ حسب الكيفية التي تعتمد بها اللمية الأصلية للحقيقة».

- De l'essence de la vérité in Questions I. op. cité. p. 179.

Chemins. op; cité. p. 27 (39)

J. Beaufret. Dialogue. op. cité. p. 209. (40)

Heidegger. - Chemins. op. cité. pp. 175 - 6 (41)

لغات الشيء. هذه، اللغة هي ما يسمح بترابط في تاريخ الفكر. فلا يرجع هايدغر العلاقة بين المفكرين إلى المفهوم التجسيمي للتأثير ولا يقول بأن هذا يقرر ذلك. يقول: «هذا يتركف مفكر على نفس. بل إنه يرتبط معه عندما يفكر فيما يبحث على التفكير في الرجوع. وهذا الارتباط هو الذي يجعله قابلاً لأن يتكرر بما فكر فيه المفكرين».

Qu'appelle-t-on penser ? p. 72.

Identité et différence, op. cité. p. 291 (42)

كل ما سبقها. وليس تاريخ الفلسفة إلا نمو الفكر منظوراً إليه تاريخياً. إنه تاريخ مختلف أشكال النمو التي عرفها الفكر ذاته. إنه عرض للحظاته ودرجاته كما تعاقبت في الزمن. تاريخ الفلسفة هو هذا التعاقب والتطور في الزمان (43). إنه تطور يحكمه قانون التجاوز. تطور يلغي الماضي ويحافظ عليه في الوقت ذاته. فبفضل عمل السلب، وعبر سلسلة من التوسطات، ننقلنا التجاوز نحو لحظة اكتمال وامتلاء تصبح فيها الحقيقة يقيناً مطلقاً ومعرفة مطلقة. ويتخذ فيها الوجود معناه التام.

يرفض هايدغر أن يكون قانون التاريخ هو قانون التجاوز «إن القانون الذي يأتي من اللامفكر فيه لا يؤدي إلى اعتناق فكر الماضي وضمه داخل نمو يتجاوزه» (44). إن التاريخ، كما سبق أن قلنا، ليس تعاقباً لعصور، وإنما هو اقتراب لذات الشيء، بيد أن هذا الاقتراب لا يعني إرجاع التاريخ إلى حاضر دائم. إنه، على العكس من ذلك، ابتعاد عن الأصول «فتاريخ الوجود، الذي يعرف تاريخياً بالميتافيزيقا، يتمثل في هذا التقدم الذي يفلت من يديه لحظة البداية وبقيتها» (45). لذا فإن الحوار معه يقتضي أن يحرر الفكر الذي نقل إلينا فيتمكن من العودة إلى ما اختزن فيه وأدخر «إلى هذا الذي لم ينفك عن الوجود، هذا الذي يهيمن على التراث منذ بداياته، وكان دوماً أسبق منه متقدماً عليه، دون أن يُفكر فيه مع ذلك بوضوح ودون أن يُنظر إليه كأصل» (46). ليس تاريخ الفلسفة إذن هرساً للحظات نمو الفكر، كما ارتأى هيجل، وإنما هو عودة إلى الأصول. إنه تاريخ جنياولوجي لا يعتمد التجاوز، وإنما الرجوع إلى الوراثة. فهذا الرجوع هو الذي يقودنا إلى ميدان أهمل حتى الآن، وهو أول ميدان يستحق أن يذهب فيه التفكير إلى الحقيقة في وجودها. الرجوع إلى الوراثة ينطلق من الميتافيزيقا ليبلغ ماهية الميتافيزيقا ويفضح سرها» (47).

يتضح لنا الفرق بين هايدغر وهيجل، في إدراك كل منهما لحركة التاريخ وعلاقة تلك الحركة بأصولها، إذا ما اعتبرنا الكيفية التي ينظر بها كل منهما إلى

Hegel, *Leçons*, op. cité, p. 109 (43)

Heidegger, *Identité et différence*, op. cité, p. 283 (44)

Heidegger, *Nietzsche II*, op. cité, pp. 395. (45)

Heidegger, *Identité et différence*, op. cité, pp. 283 - 4 (46)

Ibid. p. 285 (47)

اليونان. فعلى الرغم من أن الفكر اليوناني بالنسبة إليهما معاً ليس بُعداً فكرياً فإن هذا اللّيس - بُعداً بالنسبة لهيجل، هو ليس بُعداً الوجود كمباشر غير متعين، وهذا التعريف للوجود يتم من وجهة نظر التوسط المتعين، وبالتالي من وجهة نظر التصور المطلق. وهذا يعني، على حدّ تعبير هيجل نفسه، أن إنسان الإغريق لم يكن له أن يعود إلى ذاته كما هو الحال بالنسبة إلينا. حقاً إنه كان ذاتاً، ولكنه لم يكن يعي ذلك. الوجود هنا فكر، لكنه لا يعرف شيئاً عن ذلك. وحتى الفكر ذاته لم يع بعد ذلك. فالمحتوى، أي موضوع الفكر، هو الفكر الموضوعي. الفكر الذي يكتفي بالوجود الكلي المباشر. هذه المرحلة الابتدائية للوعي الإغريقي هي مرحلة لأطروحة. مرحلة التجريد.

يقيم هايدغر مع الإغريق علاقة مخالفة لهذه العلاقة التي يقيمها هيجل. لما لم يفكر فيه الإغريق، عند هايدغر، يتحكم في فكر الإغريق، وفي مجموع التاريخ، إنه اللامفكر فيه. «إن ما انطوى عليه ذلك الفكر صدر عنه الوجود، وكل ما استطاع تاريخ الفلسفة أن ينقله تحت اسم الوجود» (48).

إن فجر الفكر يظل معتماً بالنسبة لذاته من حيث هو إشرقة أولى. ويأتي المساء كي ينكشف الفجر في حقيقته التي كانت محجوبة. فإذا كان العالم الإغريقي مهد الفكر وفجره، فربما لا يستمد ذلك الفجر عمقه إلا إذا نظر إليه من خلال المغيّب. فليست العودة إلى الإغريق بقصد إبراز المعجزة الإغريقية ولا لمعرفتهم معرفة أكثر إتقاناً. «إننا لا نبحث في الفكر الإغريقي حباً في الإغريق، وطلباً للمعرفة، وسعياً وراءها، لا لبحث فيهم من أجل حوار أكثر دقة. وإنما في ما يمكن أن يرقى، من خلال هذا الحوار، إلى مستوى القول. ذاك هو الشيء ذاته الذي يهم الإغريق، ويهمنا بكينيات مختلفة. ذاك هو ما ينقل فجر الفكر نحو قدر مغيّبه. وفقاً لهذا فحسب يصبح الإغريق إغريقاً بالمعنى التاريخي الأصيل. فليس الإغريق في استعمالنا اللغوية خاصة عرقية، ولا موطناً ولا ثقافة أو حضارة: الإغريقي فجر قدر

H. Birault. Heidegger et l'expérience de la pensée. pp. 410 - 412 (48)

يقول هايدغر: «إننا لا نلوم الوجود الإغريقي من خلال التطور البيولوجي كموضوع اتصال مباشر يصدر عن ذات لم تترك نفسها «أنظر مثال: هيجل، مفهومه التجريبي». Chemins. p. 109

انكشف على ضوءه الوجود كموجود» (49).

ليست علاقتنا بالإغريق إذن علاقة تاريخية. إننا لا نعثر عندهم على مبدأ تفسيري نملئ به تسلسل الوقائع فيما بعد. إن استرجاع ما قاله الإغريق معناه أن نجد أنفسنا في وحدة القدر الذي هو قدرنا، والذي صدر عنه كلام ما انفك يعود نحونا في الوضوح - الغامض للتراث. «وحيث أن يكون العالم اليوناني وراءنا إلا ظاهرياً، من حيث هو ماضٍ تاريخي يمكن لعلم التاريخ أن يعرضه علينا. إنه ليس وراءنا بقدر ما هو يعيننا وبهم حاضرننا فيما يتطوي عليه من غموض وفيما يتقوى عليه من طاقة مستقبلية» (50).

قد يرد البعض بأن هذا الحضور الدائم للتراث أمر وارد عند هيجل ذاته، وبالفعل، فقد سبق أن رأينا أن هيجل يعني بتعاقب اللحظات التاريخية التجاوز أي الاحتفاظ والإبقاء. إلى حد أنه يؤكد «أننا، في تاريخ لفلسفة، لا نكون أمام ماضٍ بالرحم من أننا نكون أمام تاريخ. إلا أن محتوى ذلك التاريخ يتكون من المنتوجات العلمية للعقل. وهذه تتمتع بالضرورة والثبات» (51). والظاهر أن هايدغر، عندما يأبى للتراث الفلسفي أن يكون شيئاً مضي، ومجرد موضوع من موضوعات التاريخ، وعندما يؤكد أنه «يجي، صوبنا، لأننا معرضون إليه ولأنه قدرنا» (52)، فهو لا يعمل إلا على تأكيد ما يذهب إليه سابقه. بيد أن الأمر على خلاف ذلك، وهو يعود أساساً إلى اختلاف مفهومهما عن الزمان والحاضر، والتذكر والنسيان، والتطابق والاختلاف. فحركة التاريخ الهيجلي، كما رأينا، هي انتقال من اللاتعيين نحو التعيين، ومن الخواء نحو الامتلاء، ومن النسيان نحو التذكر، حيث يكون النسيان مباشرة ولا تعييناً، أما عند هايدغر فيكاد الأمر ينعكس. سبق أن رأينا أن النسيان لا يعني عنده الضياع وعدم الاحتفاظ. كما أن التذكر لا يعني فحسب استعادة الماضي. لكن الأهم من هذا كله، أن التاريخ عند هايدغر ليس حركة تقدمية تنتقل من الخواء نحو

Heidegger - Chemins p. 274 (49)

Beaufret. J. - Préface du principe de Raison, op. cité. pp. 31 - 2 (50)

Hegel. - Leçons, op. cité. p. 69 (51)

Heidegger. "Q'appelle-t-on penser ?" op. cité. p. 117 (52)

الامتلاء، إنه على العكس من ذلك، حركة تدع الأصل يفلت من يدها. ولكن الأصل هنا لا يعني لحظة ممتازة من لحظات التاريخ. وقد رأينا في الفصل السابق التحول الجوهري الذي طرأ على مفهوم الأصل عند نيتشه. ولا يعمل هايدغر في النهاية إلا على تبني الموقف الجنياولوجي عن الأصل. فليس الأصل عنده هو البداية الزمنية الكرونولوجية: «إن بداية الفكر الغربي ليست مطابقة لأصله. البداية هي الغلاف الذي يحجب الأصل ويفلقه» (53). فالأصل لا ينفك عن الابتداء: «إنه يظهر بحيث يسبق كل ما يحدث وهو لذلك يأتي بالرهق من تستره ليقترب من الإنسان كموجود تاريخي. إن الأصل لا يمضي أبداً. إنه ليس شيئاً يمضي ويهزل. لذلك فنحن لا نجد الأصل أبداً إذا ما أولينا نظراً نحو الماضي الزمني التاريخي. بل نجد في الفكر المتذكر الذي يعمل فكره في الوقت ذاته في الوجود الماضي وفي حقيقة الوجود» (54). هو إذن أصل جنياولوجي لا يسأل من أين صدرت الأشياء؟ بل أيضاً كيف تكونت؟ (55).

ليس الرجوع إلى وراء إذن مجرد عودة تاريخية إلى المفكرين القدماء لإثبات ما قالوه على أنه حقيقة أصلية، على أنه أصول. إنه، على العكس من ذلك، ينظر إلى الأصول على أنها نسخ، وإلى البدايات على أنها تكرار. وهذا لا يعني أنه يرجع التاريخ إلى عود للشيء ذاته. إنه لا ينظر إلى التراث الفلسفي كحاضر دائم. وإنما يقف بالضبط عند التباعد الذي يكون فيه الحاضر بالنسبة لذاته. وهو لا يحاول أن يرد هذا التراث إلى وحدة أصلية، وإنما يريد أن يبرزه في اختلافاته. لا ينظر إليه على أنه حاضر في وقت بعينه، ومحدد كذاتية متعينة. إنه يريد أن يلتفت إلى ماض ما ينفك يمضي، وحاضر ما قضي يحضر. ذلك أن الزمان الحقيقي، كما سبق أن أشرنا، ليس انسياب الزمن، ولا حركة صيرورة، وإنما إقامة حاضر يتد بعيداً نحو الماضي، ولا يكون تذكراً له فحسب. وإنما تنبؤاً واستقبلاً. في هذا الزمان يتعاصر الكل

Ibid. p. 154 (53)

Heidegger. - Nietzsche II, op. cité. p. 391 (54)

Ibid. p. 55 (55)

ويتساقق، ولا يتعاقب ويتلو بعضه بعضاً (56).

ثم إن هذا الرجوع لا يعني خطوة منعزلة متفردة للمفكر وإنما « حركة الفكر ودرياً طويلاً يلزم قطعه » (57). فكما أن تاريخ الفكر ليس تاريخ مفكرين، وإنما تاريخ الوجود بكامله، وكما أن النسيان ليس إغفال مفكر وإهمالاً من جانبه، وكما أن الاستذكار ليس قدرة سيكلوجية، فالرجوع هنا أيضاً، رجوع الوجود ذاته. إنه الشيء ذاته الذي يتحرك وينسى ويتذكر ويعود. لكنه، بالرغم من ذلك، ليس ذاتاً تاريخية. فليست علاقة الفكر بالوجود عند هايدغر، علاقة ذات بموضوع. ونحن إن كنا نجد الموقف نفسه عند هيجل فإن الأمر ينطوي، مع ذلك على كثير من الخلاف، صحيح أن هيجل يوحد بين الذات والموضوع، مثلما يوحد بين الصورة والمحتوى، بين الوجود ومعناه. وقد سبق أن قلنا إن المنطق عنده ليس قواعد صورية، وإنما ما يقوله الوجود، إنه لوغوس الوجود. إن الوجود يدل ويعني بالنسبة لذاته. فالمطلق ذات تفكر في نفسها وتعني بالنسبة لنفسها. وهذا في المعرفة المطلقة وبها. وصحيح أيضاً أن هذه المعرفة المطلقة ليست انعكاس الوعي على نفسه، كما في الكوجيطو الديكارتي، وإنما انعكاس المباشر على نفسه. إلا أن هذه المعرفة، عندما جعلت من الوجود موجوداً أسمى، هو أساس مطلق لكل موجود، وجعلت من الفكر تمثلاً يؤسس الموجود بما هو كذلك ويطبقه على أساس الوجود المطلق فهي لم تحد عن فلسفة الذاتية. « ذلك أن التمثل يجعل الموضوع ماثلاً وحاضراً عندما يستحضره أمام الذات. وفي هذا التمثل نفسه تمثل الذات لنفسها » (58). إن هيجل ظل إذن وفيّاً لديكارت. وهو أثبت ذاتاً هي المطلق نفسه.

ليس الرجوع إلى الورا. إذن استذكار ذات متذكرة. لكنه ليس كذلك إحياء وبعثاً للماضي. لقد سبق أن قلنا إن النسيان لا يعني عند هايدغر الإتلاف والفراغ، مثلما أن الذاكرة لا تدل على المثلور والامتلاك. فإذا كان التاريخ عند هيجل انتقالاً

Beaufret. - Dialogue, op; cité, p. 226 (56)
1980, p. 164.

Heidegger. - Identité et différence, op. cité, p. 284 (57)

Heidegger. "Hegel et son concept de l'expérience" in Chemin idées / Gallimard, (58)
1980, p. 164.

من الخواء نحو الامتلاء، إذا كانت الذاكرة عنده تراكمًا واغتناء، وكان تاريخ الفلسفة، والفلسفة ذاتها، بناء للمنظومة، فإن التاريخ، عند هايدغر، تحرير للفكر وعودة إلى ما اختزن فيه وادخر، عودة إلى هذا الذي لم يتفك عن الوجود، هذا الذي يهيمن على التراث الفلسفي منذ بداياته، وكان دوماً أسبق منه. ليس تاريخ الفكر إذن بناء وتشبيهاً وإنما هو هدم وتقويض: «فلذا كنا نود أن نتضح لنا مسألة الوجود عن طريق تاريخه، فينبغي أن ينتعش تراث قد تحجر، وأن يظهر من الشوائب التي حلفت به عندما قطع الزمن. ونحن ننظر إلى هذه المهمة كتقويض للرصيد الذي أبقى عليه التراث وادخره واحتفظ به من الأنطولوجيا القديمة» (59). ليس الاستذكار إذن إكمالاً لنقص في المعارف ولا زيادة في الاطلاع والمعرفة. وبالرغم من ذلك، فلا ينبغي أن يدرك في معناه السلبي. فليس التقويض رفضاً للتراث الفلسفي وإهمالاً له: «إنه لا يهدف إلى أن يرمي بالماضي في العدم» (60) لا يريد أن يضيع التراث الفلسفي بالمرّة. إنما يريد أن يسترجعه ويتملكه. إلا أن التملك تملك لفراغات، والاستذكار استذكار لنسيان. تاريخ الميتافيزيقا لا يمكن أن يكون إلا تجاوزاً.

تملك تاريخ الفلسفة إذن هو نهاية له لبداية تاريخ الفكر. إلا أن الحديث عن النهاية لا يعني أنه من الآن فصاعداً لن يظهر بعد من يفكر تفكيراً ميتافيزيقياً، أو من يضع منظومات في الميتافيزيقا. كما أنه لا يعني بالأولى أن النزعات الإنسانية لن تقوم بعد على الميتافيزيقا. «إن نهاية الميتافيزيقا التي نعنيها هنا هي بداية بعثها وإحيائها» (61). فالذي يفكر في حقيقة الوجود لا بد وأن يتجاوز الميتافيزيقا. بيد أن هذا لا يعني أنه يفكر ضد الميتافيزيقا. «وإذا أردنا أن نستعمل عبارة مجازية لقلنا إنه لا يستأصل شجرة الفلسفة. إنه يقلب الأساس ويفلج الأرض. الميتافيزيقا تظل أول مادة للفلسفة. بيد أنها لا تبلغ قط أن تكون المادة الأولى للفكر. ذلك أن الفكر

Heidegger - L'Être et le temps, op. cité, p. 39 (59)

Ibid. (60)

Heidegger - Nietzsche II, op. cité, p. 161 (61)

الذي يفكر في حقيقة الوجود مرغم على أن يتجاوز الميتافيزيقا» (62). لكن التجاوز لا يعني «الترفع على»، ولا حتى التنبذ والإلغاء» (63). إلا أنه لا يعني كذلك الاحتفاظ والاحتضان. ثم إن التجاوز لا يصدر، مثله مثل التاريخ والتذكر والنسيان والرجوع، عن مفكر معزول، إنه ليس حركة متفردة منعزلة. إنه يصدر عن الوجود ذاته. لقد سبق أن قلنا إن الميتافيزيقا لا تعني، عند هايدغر، مبحثاً من المباحث الفلسفية، ودراسة من بين الدراسات. وإنما البنية الأساسية للوجود. لذا فإن مجاوزتها واكتمالها يعنيان أفول حقيقة الوجود. وهذا الأفول يتم في أن عن طريق انهيار العالم الذي حددته الميتافيزيقا واكتساح الأرض الذي هو نتيجة للميتافيزيقا» (64). إن نهاية الميتافيزيقا هنا هي بحثها في أشكال فرعية «بيد أن هذه الأشكال لن تترك لتاريخ المواقف الميتافيزيقية الأساسية إلا وظيفة اقتصادية، وهي أن تزودها بمواد البناء التي يعاد عن طريقها، وبعد تحويلها التحويل الملائم، بناء عالم المعرفة من جديد» (65). وعيب التاريخ الهيجلي هو أنه أفقر هذه الأشكال. فعندما تخلص من الجزئيات وحصر المؤلفات الكبرى، وضيق منها ليقعحها داخل مشروعه المنطقي، حرم تاريخ الفلسفة قوته التفاضلية الحية الخلاقة» (66). لقد نظر هيجل إلى التاريخ من منظور الوحدة والتطابق. وهو لم ير في الفلسفات إلا فلسفة واحدة، إلا الفلسفة. يقول: «ما القول في هذه الفلسفات المتعددة التي يقال عنها إنها حجة ضد الفلسفة، أي ضد الحقيقة؟ ينبغي أن نرد أولاً أنه لا وجود إلا لفلسفة واحدة» (67). «الحقيقة واحدة» (68)، ومنطلق الفلسفة ونهايتها هو ما يتعلق بوعينا المفكر بصفة عامة. وأعني بمعرفة الحقيقة الواحدة والوحيدة، وممرتها في الوقت ذاته كمنع لكل ما تبقى.

Heidegger. - "Le Retour au fondement de la métaphysique" in Question I, op. cité. (62)
p. 26.

Heidegger. - Chemins, op. cité, p. 174 (63)

Ibid. p. 82 (64)

Heidegger. - Nietzsche II, op. cité, p. 161 (65)

Robinet. A. "Dialectique et histoire de la philosophie" in LA dialectique, P.U.F. (66)
1969, p. 105.

Hegel. - Leçons, op. cité, p. 113 (67)

Ibid. p. 36 (68)

لقد نظر هيجل إلى تاريخ الفلسفة من وجهة نظر الوحدة فاعتبر الاختلاف مجرد تعارض وتناقض، ورأى في مختلف الفلسفات لحظات تعارض وتتناقض ولكن لتنضم في الأخير إلى بعضها البعض. بل إن تعارضها لم يكن، ومنذ البدء إلا تحت هيمنة وحدة هي وحدة الحقيقة التي هي «منبع كل ما تبقى». بيد أن مجاوزة هذا التاريخ لا يمكن أن تتم بالفعل إلا إذا استعدنا هذا التعارض، لا للقضاء عليه وضمه، وإنما لكي ننظر إليه من حيث ينم عن ضرورة، بحيث يبدو كل طرف من أطرافه مخالفاً للآخر، بحيث يبدو على أنه الآخر ذاته في إرجائه.

سيكون علينا أن نعود، فيما بعد، لمسألة التعارض هذه وما تتطلبه مجاوزة الميتافيزيقا من إعادة النظر فيها، بل وإعادة النظر في منطق الهوية والاختلاف ذاته. غير أن ما ينبغي أن دلح عليه هنا هو أن التوحيد و «إغفال الاختلاف» ليس يرجع في نظر هايدغر إلا لسيادة التقنية التي هي «اكتمال للميتافيزيقا» (69). وقد سبق أن بينا في تمهيد هذا البحث أن التقنية تحول الواقع الفعلي إلى واقع توحيده الحسابات ويمتشي فيه الاختلاف، وأن ما يتولد عن «مبدأ الإنتاجية هو غياب الاختلاف» (70). لذا قلنا بأن التقنية شكل من أشكال الحقيقة وعصر من عصور التاريخ وكيفية من كيفيات الوجود. إنها الكيفية التي يختفي بها الوجود ليظهر كمستودع، والاندكشاف الذي يحكم التقنية «تخريف عن طريقه تظل الطبيعة مستعدة لتسليم طاقة يمكن أن تستخرج وتتراكم» (71)، وبذا فهو يفدو مجرد «فعالية وتأثير» ويقترن بغياب التأمل كمجز منظم من إدراك ما هو أهل لأن يكون موضع تساؤل. من هنا تصبح مجاوزة الميتافيزيقا بمثابة للاختلاف وإحياء للسؤال الذي هو «تقوى الفكر».

ولكن، لماذا هذا التمجيد الدائم للسؤال؟ ولماذا يعتبر هايدغر كل ما كتبه

Heidegger (M). - Essais et conférences. op. cité. p. 45 (69)

Ibid. pp. 112 - 113 (70)

نقرأ كذلك في كتاب معروف موصوفه: «أن التقنية تريد أن تجعل العالم في انتظام. هذا، في حين أن هذه الكيفية هي التنظيم هي التي تقري، في انسجام الإنتاج ووحدة بين كل المستويات، أي بين كل المراتب».

Chemins, op. cité. p. 354.

Heidegger. - Essais et conférences, op. cité; p. 20 (71)

مجرد « أسئلة »؟ ألا يعود ذلك لكونه، عندما أثبت أقول الأصول واستحالة بلوغها، جعل ذلك الأقول مقروناً بأصل أولي وبفجر عميق ربما كان هو ما يفسر تعلق هايدغر بفجر الفلسفة وحواره الدائم معه؟ تلك هي الأسئلة التي يطرحها فوكو على النص الهايدغري. ذلك أن هايدغر وهو يقر باختفاء الأصول، يؤمن على معنى أبدي، معنى غائب حاضر في الوقت ذاته، معنى يشكل مدار التاريخ لأنه لا يفتأ يحضر أثناء تواريه. وما إلحاحه على استخدام مفهوم اللامفكر فيه، في نظر فوكو، إلا علامة على التعلق بذلك المعنى، وعودة مقنعة إلى فلسفات الكوجيطو « ما دام اللامفكر فيه مسكوناً على الدوام بنوع من الكوجيطو ».

وعياً بصعوبة « الحلقة الميتافيزيقية » التي توقعنا فيها فلسفة هايدغر يدعونا فوكو إلى إقامة خفريات للخطاب تعتبر المعنى فعلاً من أفعال العلاقة يشترط حضوره بوجود شبكة من التمثيلات، معنى لا يتقدم الخطاب ولا يتأخر عنه، لا يظهر فيه ويتجلى، لكنه لا يختفي ويتواري.

الفصل الثالث

حَفَرِيَّاتُ المِيتَافِيزِيْقَا

«هناك استعمال آخر للتاريخ، إنه لتقويض الدائم لتطابقنا. ذلك لأن هذا التماثل، الوهن بالوهم من كل شيء، والذي نحاول أن نؤمن عليه، ونحفظه خلف قناع، ليس إلا افتتالا، فالتمدّد يقطعه، ونفوس عديدة تتنازع داخله وأنظمة تتعارض، ويقهر بعضها بعضا».

م. لوكو

تبينا فيما تقدم كيف يعمل هايدغر على تقويض الزوج الميتافيزيقي نظرية/ تقنية وقلنا إنه لا يرى في التقنية إلا البعد الميتافيزيقي للعالم المعاصر، وأن التمييز بين النظر والعمل، والمعرفة والتطبيق والعلم والتقنية ما هو إلا بدعة كرّستها الميتافيزيقا.

على غرار هايدغر، سيعمل فوكو في حفرياته على النظر إلى تاريخ الميتافيزيقا من وجهة تحاول أن تقوض الفصل الذي أقامته هاته بين النظري والعملية. ذلك أن الحفرية لا تسائل تاريخ الثقافات عن الفواصل التي تعزل النظري عن المؤسسي، وإنما توجه إلى الأرضية المعرفية المشتركة لتفتش من خلالها عن شروط

ظهور هذين المرققين معاً: النظر والعمل. إنها تستهدف وضع اليد على أسلوب مغاير في رصد نظم المعارف وتاريخها، يتمثل أساساً في تصور تاريخ الثقافات كما لو كان سلسلة من النظم المعرفية تتقاسم لفترات تاريخية دائرية الحقيقية، فتبسط استراتيجياتها ومسلّماتها على المجال المعرفي بجملة. هذه النظم المعرفية هي ما يطلق عليه فوكو الإبيستيمي. وليس الإبيستيمي شريحة من التاريخ تشترك فيها جميع المعارف ولا هو لحظة من اللحظات الهيكلية لتطور الفكر، ولا هو نظرة من النظرات إلى العالم التي اقترضاها التاريخ الماركسي.

إن من شأن الإبيستيمي أن يقوض المقولات الكبرى التي ابتدعها التاريخ الميتافيزيقي. فهو ينزع عن التحقيب التاريخي كل ما يحيل إلى مفاهيم مجردة «فهو ليس لوناً للمعقولية من شأنه أن يتخلل أشد العلوم تنوعاً فيظهر الوحدة المهيمنة للذات أو الروح أو العصر» (1). وإنما هو مجموع العلاقات التي يمكن كشفها، في عصر معين، بين العلوم عندما نحللها على مستوى انتظاماتها الخطابية. فلا وجود إلا لإبيستيمي واحد ضمن ثقافة ما ولحظة معينة «هو الذي يحدد شروط إمكان كل معرفة، سواء أكان ذلك الذي يتجلى في نظرية ما أو كان ذلك الذي يستثمر بصمت في الممارسة» (2).

ينطوي هذا المفهوم إذن على رغبة في إفراغ التاريخ الميتافيزيقي من مكوناته وتطهيره من الوعي المهيمن والإرادات السيكلوجية. فمعه لن يصح الحديث عن ذات واعية أو مأكرة تعمل على الأفراد وتجيء من عمق التاريخ، بل أضحت المعرفة والتاريخ نتاجاً لمجموعة من العلاقات والنظم. وبالرغم من ذلك فليس الإبيستيمي مجرد إطار صوري ينحل إلى مجموعة من العلاقات. فهو إن كان يحدد شروط الإمكان، إن كان يشكل «القبلي التاريخي»، فهو ليس قبلياً منطقياً ولا مقولات وقوالب كنتية، فهذا القبلي «لا ينفلت من التاريخية، ولا يشكل فوق الأحداث وفي سماء ساكنة، بنية لازمانية، إنه يتحدد كمجموع القواعد التي تطبع ممارسة

(1) Foucault, l'archéologie du savoir, Gallimard, 1969, p. 250

(2) Foucault, Les mots et les choses, Gallimard, 1969, p. 179

الإبراز من متعدد.

خطابية» (3)، ومجموع الشرائط التي تخول للوحدات الخطابية إمكانية الواقع. تنفصل الخفريات إذن عن تاريخ الأفكار، فهي تتوخى الوقوف عند ما يجعل المعارف والنظريات شيئاً ممكناً، وهي تتساءل: «حسب أية أنظمة تشكلت المعرفة، وعلى أساس أي قبلي تاريخي (...) أمكن لبعض الأفكار أن تظهر ولبعض العلوم أن تتكون، ولبعض التجارب أن تتشكل كي تنحل وتختفي فيما بعد» (4). إلا أنها إن كانت تقف عند الانتظامات الخطابية فهي لا تنحل إلى مجرد تحليل لغوي. ذلك أن وحدات الخطاب énoncés كما يحددها فوكو، ليست هي العبارات ولا القضايا. إنها ليست وحدات سيكلوجية ولا وحدات منطقية. فهي ليست قضايا لأن الجملة اللغوية نفسها، مع ما تحمله من المعنى نفسه، يمكن أن تشكل وحدات خطابية متمايضة، أي أنها يمكن أن تختلف من حيث شروط حقيقتها التي تتوقف على مجموعة الوحدات الخطابية التي تنتج ضمنها. كما أن هذه الوحدات ليست هي العبارات. ذلك أن عبارات متنوعة يمكن أن تردد وحدة خطابية واحدة. هذا إضافة إلى أن الوحدة الخطابية ليست وحدة نحوية تقتصر على الجمل وحدها. يقول فوكو: «تنتمي الوحدة الخطابية إلى تشكيلة خطابية مثلما تنتمي الجملة لنص، والقضية لمجموعة استنباطية. لكن بينما يتحدد انتظام الجملة بقواعد لغة ما، ويتحدد انتظام القضية بقوانين منطق، فإن انتظام الوحدات الخطابية يتحدد بالتشكيلة الخطابية ذاتها. إن انتماءها لتلك التشكيلة والقوانين المتحكمة فيها ليست إلا الشيء نفسه» (5).

إذا كانت الميتافيزيقا ادعاء لامتلاك حقيقة، امتلاك الحقيقة، فإن الخفريات ليست تقييداً لهذه الحقيقة، إنها لا تقيم حقيقة ضد الحقيقة، وإنما تريد أن تقف عند القواعد التي تتحكم في لعبة الحقيقة. لذلك فعندما تهتم بالانتظامات الخطابية فليس من وجهة منطقية. وعندما ينظر فوكو إلى الخطاب من وجهة الحقيقة فلا يميز الكلام الصادق عن غيره، وإنما ليقف عند القواعد التي تجعلنا في الصدق: «إذ من الممكن أن نقول الصدق في مجال خارجية متوحشة، لكننا لا نكون في الصدق إلا

Foucault, *L'archéologie...*, op. cité, p. 168 (3)

Foucault, *Les mots...*, op. cité, p. 152 (4)

Foucault, *L'archéologie...*, op. cité, p. 152 (5)

بالخضوع لقواعد وتنظيم خطابي، قواعد ينبغي أن نعمل على إدماجها في كل خطاباتنا» (6).

ترفض الحفريات إذن كل موقف مسوري، كما تتخلى عن كل موقف هرمينوتيكي يدعي الوقوف عند العبارات لإدراك الأرضية المشتركة من الدلالات التي توجد وراءها. إنها لا ترمي إلى استخراج التمثيلات والهواجس التي تقطن الخطابات «لنهي لا تنظر إلى الخطاب على أنه وثيقة، ولا تعتبره ذالاً يدل على شيء آخر (...) بل تُعنى بالخطاب في حد ذاته بوصفه نصاً أقرباً» (7). إن الحفريات لا تبحث عن خطاب آخر يتوارى خلف الخطاب، كما ترفض أن تبحث عن المعنى الحقيقي خلف المعنى الظاهر، فالوحدة الخطابية «ليست سرّاً ووحدة معنى خفي، ولا هي صورة عامة موحدة، وإنما منظومة تخضع لقواعد».

إذا كانت الأركيولوجيا حفريات فليس لأنها جيولوجيا، إنها لا ترجع إلى أصل غابر وأرخي وإنما تأخذ موضوعها الأرشيف. فهي وصف الأرشيف، والأرشيف «هو أساساً قانون ما يمكن أن يقال، والمنظومة التي تنظم ظهور الوحدات الخطابية من حيث هي أحداث فردية» (8). باهتمامها إذن بعنصر الأرشيف فإن الأركيولوجيا تسعى إلى إعادة بناء الماضي على مستوى خطابي. ولا قيمة للوثيقة هنا إلا بقدر ما تتحول إلى لعب وقواعد خطابية.

ليست الوثيقة إذن خزائناً وذاكرة تحفظ التراث وتبقي على الدوام والخلود. إنها، على العكس من ذلك، لا تعمل سوى على تأكيد الاختلاف بين الحاضر الذي يمنحنا أفق التفكير والتساؤل، وبين الماضي الذي كفّ عن شحذ هذا الحاضر.

لقد عامل التاريخ الميتافيزيقي الوثيقة دوماً على أنها لفة صوت ركن الآن إلى الصمت وخلف أثره الهش، لكن الحفريات لا تبتغي تأويل الوثيقة ولا تعيين مدى صدقها وقيمتها التعبيرية، وإنما فحصها من الداخل وتدبرها. إنها لا تنظر إلى الوثيقة على أنها تلك المادة الحام التي تحفظ ما مضى، ولا تسعى «أن تجعل من أثريات

Foucault. L'ordre du discours, Gallimard, 1971, p. 37 (6)

Foucault. L'archéologie..., op. cité, p. 182 (7)

op. cité, p. 170 (8)

الماضي ذاكرة فتحولها إلى وثائق وتحث تلك الآثار على التكلم» (9)، وإنما «تحول الوثائق إلى أثريات». وخلاصة القول فإن الحفريات تلمح إلى بناء الماضي من زاوية تتجاوز الميتافيزيقا وتهدم منطق الوحدة والاستمرارية.

فالتاريخ الذي تتبعه الأركيولوجيا لا يمت بأدنى صلة للمتواليات الكرونولوجية والتعاقبات الزمنية. كشف فوكو عن زمان آخر هو الزمن الأركيولوجي، إنه زمان بلا أصول ولا ماهيات، زمان لا يقطن إلا المسطحات الخطابية.

لقد اعتبرت الميتافيزيقا الانفصال عرضاً ينبغي الإحاطة به عن طريق التحليل لإلغائه ومحوه والقضاء عليه بنية إظهار الاتصال. «كان الانفصال علامة على التشتت الزماني الذي كان ينبغي حذفه من التاريخ» (10). أما الحفريات فهي تسعى لإظهار الانشطارات داخل المواقع التي اعتبرت مواقع الانسجام، مواقع الوحدة والتوحيد بلا منازع أي الوصي واللفة. وهي تبين أن الوتيرة التي يسير عليها الخطاب لا ترضخ لأي نظام سابق، وهذا ما يجعلها لا تهدف نحو غاية ولا تسير أبداً في موازاة تامة مع الوصي واللفة. إن هناك استقلالاً جهوياً لحركة الخطاب، استقلالاً يخوله إمكانية تأسيس وضعيته الخاصة خارج وعي الأفراد، فليس الخطاب «وعياً يتخذ من اللفة مظهره الخارجي، ليس لساناً وذاتاً تتكلمه، وإنما هو ممارسة لها أشكالها الخاصة من الارتباط والتتالي» (11).

حوضاً عن تاريخ منسجم وزمان متصل نحن هنا أمام تاريخ من الشظايا والشذرات. إننا لسنا أمام تغير وإنما أمام سلسلة لامتكافئة من التحولات. «يالها من مفارقة تطبع مفهوم الانفصال؛ لأنه أداة البحث وموضوعه في الوقت ذاته، ولأنه هو الذي يعمّن حدود المجال الذي يتولد فيه، ولأنه يسمح بتعيين تفرد الميادين، ولكن لا يمكننا تحديده إلا بفضل المقارنة بينها، ولأنه، في نهاية الأمر، ليس مجرد مفهوم قائم حاضر في خطاب المورخ، بل لأن هذا يفترضه ضمناً، وإلا فمن أي موقع

op. cité, p. 15 (9)

op. cité, p. 16 (10)

op. cité, pp. 220 - 221 (11)

يمكنه أن يتكلم اللهم انطلاقاً من ذلك الانفصال الذي يمدّه بالتاريخ كموضوع،
وبتاريخه هو بالذات؟» (12).

ليست القطيعة إذن سلباً يتعين تجاوزه أو احتواؤه، وإنما هي أداة إجرائية تفعل
في التاريخ بشكل إيجابي، وفعالية تخلق الجون والتباعد، وتولد الاختلاف في ما
رأت فيه الميتافيزيقا تطابقاً، فتحول دون حضور الحدث واستمراره: «يتعلق الأمر
إذن بإبراز تشتت لا يمكنه أن يؤول إلى نظام وحيد من الفوارق، وإظهار تبعثر لا
يرتد إلى محاور مرجعية مطلقة. يتعلق الأمر بخلخلة للمراكز لا تدع لأي مركز أي
قيمة أو امتياز. وإن خطاباً مثل هذا ليس من شأنه أن يقضي على النسيان، وأن
يستعيد لحظة ميلاد الأشياء المقولة حيث تكون راقدة صامتة. إنه لا يهدف إلى
تقصي الأصول واستذكار الحقائق، وإنما عليه، على العكس من ذلك، أن يصنع الفوارق
ويخلق الاختلافات» (13).

تستبدل الأركيولوجيا إذن التاريخ التقليدي الذي يوزع الأحداث إلى حقب
زمانية بتاريخ لا يعير اهتمامه إلا للعلاقات. إنه تاريخ للشرائح والتقطيعات
المكانية.

هنا يتجلى الدور الأساس لمفهوم السلسلة الذي يعمل على تقويض الصيرورة
المتجانسة وهز ثبات التسلسل العلي، فيقطع اللحظة إلى حلقات مفصولة. لقد كان
التاريخ التقليدي يهدف إلى إثبات العلاقات التي تربط وقائع وأحداثاً لها موقعها في
الزمان. كانت سلسلة الوقائع مفترضة ولا يتبقى إلا تحديد العلاقة التي تربط كل
عنصر من تلك السلسلة بالعنصر المجاور له. أما هنا فإن المسألة أصبحت تتمثل
بتكوين السلاسل وتحديد عناصر كل منها، وتعيين حدودها وأطرافها، وإبراز نوع
العلائق التي تميزها، وصياغة قانونها، وفوق ذلك، تحديد العلاقات بين مختلف
السلاسل لإقامة سلاسل من السلاسل أو «جداول»، ومن ثمة جاء تنوع المراتب
وتعددتها والفصل بينها، وافتراد كل منها بزمانه الخاص. «وهكذا ظهرت مكان زمان
العقل المتسلسل المتصل، ذلك الزمان الذي كان يرتقي دوماً إلى أصله ومنبعه

op. cité, pp. 16 - 17 (12)

Ibid, p. 268 (13)

الأساس، ظهرت مستويات قد تكون وجيزة في بعض الأحيان، تتباين فيما بينها، وتأبى الخضوع لقانون موحد، وتنطوي في الأغلب على تاريخ خاص تنفرد به، ولا يمكن ردها إلى النموذج العام لوعي يحصل وينمو ويتذكر» (14).

تريد الأركيولوجيا أن تتحرر من الكمين الهيكلية، كمين الميتافيزيقا، بتجريد التاريخ من وحدته العضوية، وبمنح التناقض مدلولاً مغايراً ينأى به عن كل غائية. فالخطاب في نظرها لم يعد يتلبس اللوغوس ليمتص له في كل لحظة من لحظات الجدل. إنها تضعنا أمام انشطارات وقروح تتوالى بلا غاية، وأمام سيل من التقابلات المتكافئة لا تتردد إلى نموذج أصلي. فليست التناقضات في المنظور الأركيولوجي، مظاهر يلزم تغطيتها، ولا مبادئ خفية ينبغي إبرازها، وإنما هي موضوعات في حاجة إلى أن توصف في حد ذاتها دون البحث عن زاوية النظر التي يمكن لها أن تتلاشى منها، أو عن المستوى الذي تتحول فيه إلى عنصر حاسم وتنقلب من مسببات إلى أسباب. إن التحليل الأركيولوجي يفضح في مفهوم التناقض الهيكلية مساندته الضمنية لمنطق التطابق، ولهذا فهو يتناول التناقضات مع المحافظة على تشتتها وتناثرها، وهو يريد «أن يحافظ على الخطاب في تضاريسه العديدة، وأن يلغي، بالتالي، فكرة التناقض الضائع والذي يستكشف ثائية بنفس صورته الأولى، التناقض المنحل والمنبعث دوماً ويستمرار في عنصر لا يلحقه التغير ولا ينال منه الاختلاف، أعني عنصر اللوغوس» (15).

ينبها فوكو في ميلاد العيادة إلى أن أي تاريخ يطمح إلى مجاوزة الميتافيزيقا وتفكيك خطابها مدعو إلى استعادة ذلك الحوار الذي سبق لنيتشه أن يحده مع الميتافيزيقا من حيث هي لغة، ولها يدور مع اللغة من حيث هي «مأوى الوجود». فلا مفر، والحالة هذه، لكل محاولة لمجاوزة الميتافيزيقا من «بناء خطاب حول الخطابات، والإصغاء إلى ما سبق أن قيل» (16)، لا مفر من تأويل لتاريخ الميتافيزيقا وإقامة

Ibid, p. 16 (14)

Ibid, p. 204 (15)

Foucault, Naissance de la clinique, P.V.F. 1963, p. XII (16)

يقول ف. فوكو: «وليس الملاحة التي يصبها فوكو بين اللغة وبين وجودها، ما هي إلا تامل لا كان يشتره ما يدور علاقة بين

مفهوم لا-ميتافيزيقي عن التأويل.

يعتقد فوكو أننا نجد أصول هذا المفهوم عند أقطاب الحداثة الفلسفية في القرن التاسع عشر، عند نيتشه وفرويد وماركس. وهو يدعونا «لكي نفهم منظومة التأويل التي أقامها القرن التاسع عشر، ولكي ندرك، بالتالي، أي منظومة تأويل لازلنا ننتمي إليها نحن كذلك»، يدعونا إلى «أن نرجع إلى عهد مضى وإلى نوع من التقنية كذلك الذي عرفه القرن السادس عشر علي سبيل المثال» (17). إن ما كان يحدد مجال التأويل في ذلك القرن هو التشابه. فحيثما كانت الأشياء تتشابه، وحيثما كان هناك تشابه، كان هناك معنى، وكان بالإمكان الحفر وراءه.

إن اللفة لم تكن خلال ذلك القرن لتكوّن مجموعة من الرموز المستقلة المنتظمة بحيث تنعكس فيها الأشياء كما لو كانت تنعكس في مرآة كي تفصح كل علامة عن حقيقتها الفردية. إن اللفة كانت، بالأحرى، شيئاً غامضاً منفلقاً على نفسه، لا يتمتع بأية شفافية، ويشكل لفزاً يختلط مع أشكال العالم وصوره فيلتحم بها. «كانت اللفة قد وضعت في العالم لتشكّل جزءاً من أجزائه، مادامت الأشياء ذاتها كانت تخفي ألغازها أو تظهرها، مثلها مثل اللفة، ومادامت الكلمات كانت تعرض نفسها على الإنسان كما لو كانت أشياء ينبغي تفحصها والتعقيب فيها» (18) وهذا لا يعني اللفة المقدسة وحدها «فلم يكن هناك خلاف بين هاته الآيات التي رسمها الله على الأرض كي يكشف لنا أسرارها الباطنية، وبين الكلمات المقروءة التي حملتها الكتب المقدسة أو نطق بها حكماء العصر القديم». لقد كانت العلاقة التي تربط الإنسان بالنصوص هي ذاتها التي تربطه بالأشياء. فسواء أتعلمق الأمر بالكلمات أم بالأشياء، فإن الإنسان كان أمام علامات وآيات. فقيم كانت المعرفة تمثل والحالة هذه؟ «لقد كانت المعرفة هي التأويل، والانتقال من العلامة الظاهرة، إلى ما يقال عن طريقها، وما تعبر عنه، إلى ما يظل بدونها كلاماً أخرس راقداً في الأشياء».

= اللفة وبين الوجود من حيث إن هذا الأخير «ماوى لها».

F. Wahl. *Le structuralisme en philosophie*, Seuil, coll. Points, 1968, 37, Note2

Foucault. "Nietzsche, Freud, Marx" in *Nietzsche, Colloque de Royaumont*, Minuit. (17)

Foucault. *Les mots et les choses*, op. cité, pp. 49 - 50 (18)

لم تكن العلامات والدلائل إذن من خلق المعرفة، وإنما كانت من خلق اللغة. إنها كانت تسبق عملية المعرفة في انتظار هذا الذي سيحيي ليقيم بتأويلها والبحث عن معناها الأول.

كانت اللغة إذن تسبّح في كوسمولوجيا مستديرة وفي عالم منغلق على نفسه يستعيد دون هوادة لعبة التراسلات ويحكمي بلا توقف أسطورة التطابق. في مثل هذا الفضاء كان كل حديث عن الخطاب يفترض أن اللغة ليست حتماً هي الصيغة الوحيدة للكلام. ففئة علي سطح الأرض وفي أعالي السماء عناصر لا تفتأ تتكلم دون أن تتلفظ الحروف والكلمات. لقد تحول الكون مباشرة إلى نص مكتوب بحروف بثت في كل أرجاءه وأصبح فضاء سيميائياً مسكوناً بإمضاءات الخالق وصوت الأقدمين.

مقابل هذه التقنية في التأويل، سيقوم كل من ماركس ونيتشة وفرويد لا «ليضيفوا دلائل جديدة للعالم الغربي» أو «يضيفوا معنى جديداً على أشياء لم يكن لها معنى» وإنما لغيروا طبيعة الدليل ويبدلوا الكيفية التي بإمكان الدليل أن يؤول بها. لم يعد الأمر يتعلق بالبحث عن التشابهات وإثبات تناغم كوسمولوجي، كما أن الدلائل والعلامات لم تعد تتوزع بكيفية متجانسة وإنما أصبحت «تندرج في مكان متفاوت الأجزاء وحسب بُعد يمكننا أن نطلق عليه بُعد الأعماق، شريطة ألا نفهم من هذا، البعد الباطني، وإنما بُعد العمق الخارجي» (19).

سيفتح أمام التأويل باب جديد لن تتوانى الأركيولوجيا عن اقتحامه، هذا الباب هو ما سيسمح لها بأن تخوض، بعد أقطاب الحداثة الثلاثة، في إرساء دعائم تأويل لاميتافيزيقي وخلخلة للثنائية الميتافيزيقية التي تفصل العمق عن السطح والباطن عن الخارج. وعندما سيفومس هذا التأويل في اللغة، فلكي يثبت فقط ما يدعو فوكو بالعمق الخارجي. وإذا كان لهذا التأويل أن يسير الأغوار ويقتمح الغشاء الخارجي للكلمات، فذلك لفضح هذا العمق ذاته وإظهار سطحيته. وهذا ما يبين أنه لا ينشغل بتدعيم عمق فعلي للغة، بقدر ما يقدم نفسه كـ «حركة سطح يتزايد علوه بحيث يدع العمق ينكشف من فوقه شيئاً فشيئاً» (20).

Foucault. "Nietzsche, Freud, Marx", art. cité. (19)

Ibid. (20)

تتبنى الأركيولوجيا إذن التأويل الجنيولوجي لتاريخ الميتافيزيقا. فبدل التأويلات التي توزع عناصر الكون إلى ثنائية الباطن والخارج لتجعل من السطح مطية لبلوغ أصل عميق خفي، بدل هذه التأويلات تطلعننا الأركيولوجيا على خطاب لا يملك من الوجود إلا بعد الخارجية، حيث لا عمق له ولا صوت، خطاب تقوضت معه الأزواج الميتافيزيقية ليصبح سطحاً بلا أحشاء. فالتحليل الأركيولوجي لا يمكن أن يهتم أبداً إلا بالأشياء «التي قيلت والجعل التي تم التلفظ بها أو كتابتها فعلاً، والعناصر الدالة المكتوبة أو المنطوقة» (21). إنه لا يتناول سوى الإنجازات اللفظية التي نمت بالفعل، وهو يهتم بوصف الأشياء التي قيلت من حيث إنها أشياء قيلت. وعندما يعود إلى «أصول» الخطاب فلا يفترض أن ثمة معنى في جوف التاريخ، إنه مضطر أن يتحرر من الصورة الشائعة حول المود والرجوع. «فهو لا يزعم اختراق زمان كله سقطه وغفلة وتيه وضلال، ليتجه نحو لحظة أصلية مؤسسة، حيث لم يتجسم الكلام بعد، ولم يتلفظ به ليندو مآله الاستمرار، وحيث يحتفظ الكلام بنفسه في بعد غير محدد من الافتتاح» (22).

إن التحليل الأركيولوجي يدرس الوحدات الخطابية في سمك تراكمها. إلا أنه لا يردّها إلى وحدة ممتلئة وإنما يتناولها كمصورة تتخللها الفجوات ويطبّعها التناثر. فلا ينبغي وصف مجموع الوحدات الخطابية لا بإحالة إلى باطن أو قصد أو فكرة تجول بذهن إحدى الذوات، وإنما وصف تبمثره الخارجي. ينبغي وصف ذلك المجموع لا، بنية العثور على لحظة البدء، أو اكتشاف أثر الأصل، وإنما من أجل اكتشاف أشكال التراكم النوعية. «ولا يعني هذا بطبيعة الحال، الخروج بتأويل، أو اكتشاف الأساس، أو إبراز الأفعال المكونة، لا يعني الجزم بمقولية، أو ملاحظة غائية، بل إنشاء ما ندعوه «وضعية»» (23).

إن الأركيولوجيا، حتى وإن كانت تؤمن على الفصل الجنيولوجي بين البداية والأصل، وتقر بانقلاط الأصول وتباعدها، فهي لا تهتم إلا بما هو خطابي، ولا

Foucault, *L'archéologie*, op. cité, p. 143 (21)

Op. cité, p. 164 (22)

Ibid. (23)

تفترض داخل الخطاب معنى غائراً يفلت من قبضتنا كلما أوشكنا على الإمساك به، كما لا نجعل نصب أعيننا وحدة أو ماهية قائمة الذات تترصد اللحظة التي تستنطق فيها لتعبر من مستوى اللامقول إلى مستوى المقول. إن المعنى لا يتقدم الخطاب ولا يتأخر عنه. المعنى هو فعل من أفعال العلاقة يشترط حضوره بوجود شبكة ونسيج من التمثيلات.

من هنا تبدو الأركيولوجيا، بالرغم من كل ما قاله فوكو عن التأويل، أبعد ما تكون عن الفلسفات التأويلية. وهذا ما يؤكد فوكو نفسه عندما يقول بأن «تحليل الوحدات الخطابية إن كان تحليلاً تاريخياً، فهو يلبث بعيداً عن كل تأويل وبمناى عنه» (24) لأنه لا يطالب الأشياء التي قيلت بأن تكشف أسرارها وتفسح عما قالت دون وعي منها، وعن ذلك اللامقول الذي تخفيه. وإنما، على العكس من ذلك يطالبها بنمط وجودها وكيفية تجليها، وما ترتب عنها من آثار. «ومن زاوية النظر هذه لا سبيل إلى القول بوجود وحدات خطابية خفية، لأن ما يتوجه إليه اهتمامنا هو اللفة الفعلية الجلية الواضحة للعيان» (25).

تبدو الخفريات إذن منهجاً وصفيّاً أكثر منها منهجاً تأويلياً. وهذا لا يبعدنا فقط عما سبق أن قلناه عن التأويل عند فوكو، بل يبعد الخفريات نفسها عن كل تقرب من أقطاب الحدائق الذين يقدمهم فوكو نفسه على أنهم لم يضيفوا معاني جديدة وإنما أرسوا طرقاً مغايرة في التأويل، ويبعدنا بالأحرى عن الفلسفات الهيرمونوتيكية وخصوصاً فلسفة هايدغر.

ولعل ما يؤكد ذلك هو انتقاد فوكو نفسه لبعض المفاهيم الأساسية التي تقوم عليها هذه الفلسفة، وخصوصاً مفهوم اللامفكر فيه. يعتقد فوكو أن كل إعادة تفكير في اللامفكر فيه تظل مفتقرة إلى مصادرة «الأنأ أفكر»، وأن «اللامفكر فيه هو دوماً مسكون بنوع من الكوجيطو» (26). ومن شأنه إذن أن يجرنا إلى فلسفات الذاتية ويقحمنا «داخل» الميتافيزيقا. لكن الأدهى من ذلك أن بإمكان هذا المفهوم

Op. cité, p. 143 (24)

Ibid. (25)

Les mots et les choses, op. cité, p. 347 (26)

أن يحمي الاعتقاد في وجود معاني خارج القول ويحول بين الأركيولوجي وبين بناء «الوضعية».

ذلك أن القول بخطاب آخر خارج كل خطاب معناه الرجوع إلى نوع من الفلسفة الهيرمينوطيكية، وإلى مفهوم عن اللغة ينفيها في وجودها ذاته. فاعتبار اللغة دوماً مقطوعة بأخر هو تبديد لوجودها. لذا «فنحن ملزمون بأن ندخل في الاعتبار هذا الوجود ذاته، وبأن نسائل اللغة لا في الاتجاه الذي تحيل إليه، بل في البعد الذي يقدمها لنا كلفة، وبأن نصرب صفحاً عن قدرتها على الإحالة إلى الأشياء وتسميتها وإظهارها، وعن كونها معقل المعنى والحقيقة» (27).

ليس التأكيد على المقاربة الوصفية إذن نفيًا للتأويل وإنما هو أساساً إثبات لمادية الدال، واعتبار أن لا معنى ولا دلالة إلا ما يتولد عن قواعد الخطاب. «لذا فإن كان الوصف لا يسعى إلى الإحاطة بالإعجازات اللغوية بغية اكتشاف عنصر خفي أو معنى مختبئ فيها أو يرى النور خلف سطحها الظاهر، فإن الوحدة الخطابية وبالرغم من ذلك، ليست قابلة مطلقاً لأن ترى بشكل مباشر، ولا تتجلى بالكيفية نفسها التي تتجلى بها البنية النحوية أو المنطقية. بناء على ذلك فإن هذه الوحدة لا مرئية ولا مختفية في أن» (28).

على الرغم إذن من النصوص الصريحة التي تدین التأويل فإن الأركيولوجيا لم تفكر قط في إلفائه، لأن هذا يتنافى مع اختفاء الوحدة الخطابية، ولأن ما تقوم به الأركيولوجيا ليس في النهاية إلا تأويلاً لتأويلات سابقة. ذلك أن ما يشغلها أساساً ليس هو المجتمع من حيث هو مؤسسات، بل من حيث هو مجال الخطاب والحقيقة. يقول فوكو: «إن موضوعي العام، ليس هو المجتمع، وإنما خطاب الصواب والخطأ» (29)، لقد عملت الأركيولوجيا على تخليص تقنية التأويل من كل بطانة هيرمونيتيكية أو أترولوجية. وقد تطلب منها ذلك مراجعة لجل المفاهيمات

Foucault. "l'archéologie .. op. cité, p. 146 (27)

Ibid. p. 143 (28)

Foucault. L'impossible prison, Recherches sur le système pénitentiaire au XIX, (29)

Textes réunis par M. Perrot, Seuil, Paris. 1980, p. 55

الميتافيزيقية اقتداءً بجنيالوجيا نيتشه وأنطولوجيا هايدغر.

وبالرغم من هذا فيبدو أن الأركيولوجيا تريد أن تدفع بالمجهود الهيدغري خارج دائرته المغلقة محاولة اقتحام منطقة لم يخضعها بعد قانون اللوغوس، وأعني الجهة التي تتقدم كل تعارض ميتافيزيقي، الجهة التي لم تعمل فيها سلطة العقل بعد على الفصل بين المعنى واللامعنى.

ترقى بنا الأركيولوجيا إذن إلى نقطة لا يزال فيها المعنى مقروناً باللامعنى، تلك هي لغة الجنون، يريد فوكو للأركيولوجيا أن تتكلم لغة الحمقى دون أن يكف، ولو لحظة عن إظهار أن الحمق هو القطيعة التامة مع اللغة ومع الكتابة. إذ بمجرد ما نلج مجال التعبير يكون الجنون قد غادر هذه الأجواء ليسكن المعنى ويتوحد بآخره. يقول فوكو: «إن الجنون الكلاسيكي ينتمي إلى جهات الصمت. فمئذ زمن طويل سكنت تلك اللغة التي كانت تصدر عنه وتتوجه إليه لتتغنى بمدحه (...) الجنون شيء، أخرس في حد ذاته. إذ لا وجود في العصر الكلاسيكي لأدب الجنون، بدليل أنه لم يكن ليتوفر على لغة مستقلة، أي إمكانية للتعبير عن ذاته بلغة حقيقية» (30). دراسة الجنون إذن هي إقامة لأركيولوجيا الصمت ومحاولة للارتقاء إلى تلك الجهة التي لم يتم فيها قرار الفصل بعد بين المعقول واللامعقول. إنها حيلة من حيل تقويض الأزواج الميتافيزيقية ومحاولة لإفراغ التاريخ من مصادرتي المعنى والمعقولة وتحويله إلى آلية فضحة لتوليد المعاني.

ولكن، هل بالإمكان الانفلات فعلاً من رقابة اللوغوس؟ وهل بالإمكان القيام بتاريخ الجنون دون الوقوع في شرك الميتافيزيقا والخضوع لقانون العقل باعتبار أن لا لغة إلا لغة العقل؟ تلك هي الأسئلة التي يضعها جاك دريدا على فوكو في مقاله «الكوجيطو وتاريخ الجنون» (31)، جازماً بأن الشرط الأول للجواب عن الأسئلة

Foucault. Histoire de La folie. Paris, Gallimard, 1972, p. 57 (30)

J. Derrida. L'écriture et la différence, Seuil, 1967, p. 57 (31)

يقول دريدا «إننا لا نستطيع أن نكتب تاريخاً، أو بالأولى، أركيولوجياً ضد العقل، لأن مفهوم التاريخ، رغم المظاهر، كان دوماً مفهوماً عقلانياً».

Ibid. p. 59.

التاريخية التي يضعها فوكو «إنما يمر أولاً بالتحليل الباطني والمستقل للمحتوى الفلسفي للخطاب الفلسفي». مؤكداً أننا لا نستطيع الحديث عن مجاوزة فعلية للميتافيزيقا طالما أننا لا نزال مسكونين بلغة ميتافيزيقية، لغة تحكمنا أزواجها ويخفضنا منطقتها. وكل ما يتبقى في وسعنا هو أن نحافظ على الفتح السؤل واقتحام طريق التفكيك اللامتناهية.

== ثم يقول «هل الصمت نفسه تاريخي؟ ليست الأركيولوجيا، باعتبارها أركيولوجيا الصمت، منطقاً معيناً أي لغة منظمة، مشروهاً، نظاماً، جملة، تركيباً وأتراً؟ أن تكون أركيولوجيا الصمت أكثر الإحداثيات عقلية وأكثرها براعة، أن تكون تكررًا للفعل المتكرر ضد الجنون، وهذا في الحقيقة نفسها الذي هو مشهور به فيها؟».

ويستخلص :

«مادام الصمت المراد كلمة حصرية ليهو لغوس، أو لا - كلاماً أصلياً، وإنما صمتاً طارئاً، فإن الأمر يتعلق إذن، داخل لغوس سبق التمزق عقل / جنون، داخل لغوس يدع ما سميناه فيما بعد عقلاً وجنوناً (لا عقلاً) يتطوران فيه، يدع العقل والجنون يتحركان فيه بصورة ويتبادلان، كلما كان يتحرك الجنون يتحركون بالمدينة في العصر الوسيط، يتعلق الأمر، داخل لغوس التبادل الحرف هذا، بالوصول إلى أصل صيانة عقل يتمسك بأن يجعل نفسه في متجى من الجنان وحارساً لهم».

الفصل الرابع

تَفْكِكُ المِيتَافِيزِيقَا

« يتعلق الأمر بشيء » يخالف أتم الاختلاف النفي الجدلي ، فما ينبغي أن نفكر فيه ، هو العلاقة بين الحقيقة والحاضر ، وذلك عن طريق فكر لن يكون حقيقياً ولا حاضراً ، فكر يضع المعنى وقيمة الحقيقة موضع سؤال ، وذلك بكيفية لم تتم داخل الفلسفة حتى عند الشكاك ومن دار في فلكنهم . إن النفي الجدلي ، الذي مكّن الفكر الهيجلي من الإسهام في كثير من التجديدات العميقة ، قد ظل سجين ميتافيزيقا الحضور والكون والاستمرار ، سجين المفهوم العادي عن الزمان .

ج . دريدا

مهما قيل عن علاقة التفكيك بكل من الجنيالوجيا والتقويض ، ومهما كُتب عن علاقة دريدا بكل من نيتشه هايدغر ، وكيفما فهمنا تصريحات دريدا نفسه بصدد هذه العلاقة (1) فإننا نستطيع أن نؤكد أن أفق التفكير لا يختلف هنا وهناك ،

(1) نقرأ ، على سبيل المثال في مواقف « إن نص هايدغر هو نص بالغ الأهمية في تفكري . إنه يشكل خطوة إلى الأمام لم يسبق لها مثيل ، خطوة لا يمكن أن ترتد إلى الوراء ، خطوة ما زلنا حتى الآن لمجد ما نكون من الاستفادة من ثرائها النقدي » .

وأن دريدا لا يأخذ على المفكرين مآ «انعدام التماسك المنطقي» (2) لأفكارهما، بقدر ما يعتبر «أن تردد أفكارهما وحيرتهما» هما بالأولى من قبيل «الرجة التي تميز كل المساعي التي أعقبت الهيكلية والتي تطبع الانتقال من عصر إلى عصر آخر» (3).

ذلك أن الأمر لا يتعلق بصدد نصوص نيتشه أو هايدغر بنقد «خارجي»، وهذا يطبع استراتيجية التفكير إذاً جميع النصوص. فهناك في كل نص، حتى في أكثر النصوص الميتافيزيقية تقليداً، هناك قوى عمل، هي في الوقت نفسه قوى تفكيك للنص. وما يهم التفكير هو الإقامة في البنية غير المتجانسة للنص، والعثور على توترات أو تناقضات داخلية يقرأ النص من خلالها نفسه ويفكك ذاته se déconstruit في النص نفسه قوى متنافرة تأتي لتقويضه ويكون على استراتيجية التفكير أن تعمل على إبرازها.

ذلك أن النص لا يكون نصاً إلا إذا أخفى عن النظرة الأولى «قانون تركيبه وقاعدة لعبته، وهو يظل لامدركاً على الدوام» (4) ولا يعني ذلك أنه يحفظ معناه ويحجبه «فالقانون والقاعدة لا تحميان وراء سر لن يفضح، كل ما في الأمر أنهما لا يمثلان في الحاضر» (5).

= كما نقرأ في الكراماتولوجيا،

«إن جميع التحديدات الميتافيزيقية المعتمدة، بما فيها ذلك التحديد الذي ذكرنا به هايدغر، هي ما وراء الأثرية تيولوجيا الميتافيزيقية، ليست قابلة لأن تشمل من مقام اللوغوس أو، على الأقل، من مثل مصدر أسره من اللوغوس، أيما كان المنفى الذي نعده به».

De la grammatologie, Minuit, 1967, p. 21

كما نقرأ في ص. 37 من الكتاب نفسه :

«يتجنى إذن أن تسلك مسلك هايدغر وتجنبه في السؤال الذي طرحه عن الوجود، وطرحه وحده، وذلك من أجل النفاذ إلى الفكر الصارم لهذا الاختلاف القريب، وتجيده تحديداً دقيقاً».

ثم في ص. 32،

«لإنتفاذ نيتشه من قراءة من النمط الهايدغري...» وفي الصفحة نفسها،

«ربما كان لا يجب إذن، اقتفاء نيتشه من القراءة الهايدغرية، وإثاء على العكس من ذلك، فتحه لها كلياً، والوقوف بلا تحفظ إلى جانب ذلك التأويل».

Derrida. De la grammatologie, op. cit. pp. 38 - 39 (2)

Ibid. p. 39 (3)

Derrida. La Dissémination, Seuil, 1972, p. 71 (4)

Ibid. (5)

لا يتجاوز التفكيك الميتافيزيقا بمهاجمتها وإنما يسعى إلى أن يبين أنها لم تتوفر قط على ما تدعيه من اكتفاء ويقين وحضور أمام الذات. يتعلق الأمر بتوسيع شرح لازم الميتافيزيقا، وشق هوة لم تنفك عن الوجود. ذلك أن الميتافيزيقا رغم ادعاءاتها، لم تحقق هذا الحضور إلا كوهم(6). فمثلاً أن الحلم يحقق رمزياً رغبة ما تسد نقص عدم الإشباع الفعلي للرغبة، فإن ميتافيزيقا الحضور تحاول أن تكمل نقص رغبة الحضور بالتعلق بحضور وهمي. لا إمكان إذن لمجاوزة فعلية للميتافيزيقا إلا بفصح هذا التعلق وإعادة النظر في مفهوم الحضور هذا، مفهوم الوجود كحضور، ومفهوم الزمان كحاضر. يستعيد دريدا «التقد» الهايدغري للمفهوم الميتافيزيقي عن الزمان(7). إلا أنه يبين قصوره وحدوده. «فإذا كان هايدغر قد فكك بصفة جذرية سيادة الحاضر على الميتافيزيقا، فلكني يقودنا إلى التفكير في حضور الحاضر، بيد أن فكر هذا الحضور يقتصر على مجرد الاستعمال المجازي للغة التي يزعم تفكيكها، وذلك نتيجة ضرورة عميقة لا نفلت منها بمجرد أن نتخذ قراراً من أجل ذلك»(8). يبين دريدا أن التفكيك ينبغي أن يذهب أبعد من ذلك، ويمتد إلى مفهوم الحضور ذاته، كما يؤكد أن المفاهيم الميتافيزيقية عن التاريخ والمعنى والوحي والذات والهوية، ما كان لها أن تكون، لولا أن نمط الحاضر هو الذي حدد المفهوم الميتافيزيقي عن الزمان والكائن(9). لذا فهو يقف عند المعنى الذي ترد إليه كلمة

(6) نقرأ في الكراماتولوجيا :

«يتعلق الأمر بلفظان ما لم يوجد قط. حضور أمام الذات لم يمت أبداً، وإنما حلم به» .
pp. 164-5

(7) أنظر بهذا الصدد مقال «Ousia et Gramme» .

وقد نشرت في البداية ضمن كتاب :

L'endurance de la pensée (recueil collectif, pour saluer J. Beaufret). Plon, 1968.

لم أجد نشرها ضمن :

Marges de la philosophie, Minuit, 72.

Derrida. "Les fins de l'homme", in Marges, op. cit., pp. 157 - 8. (8)

يقول دريدا :

«كل ما أقوم به يتل في أنني أضع سؤال تعيين معنى الوجود كحضور، وهو التعين الذي رأى فيه هايدغر قدر الفلسفة» .
positions, op. cit., p. 15.

(9) نقرأ، على سبيل المثال، في عراكس الفلسفة :

«إن أي معنى لم يكن له أن يملك ويصير في تاريخ الميتافيزيقا إلا انطلاقاً من الحضور، وإلا ياحضر حضوراً» .
Marges. op. cit., p. 58.

اختلاف *différence*. ويلاحظ أننا عندما نقحمها في الهوية فهي لا تفيد خلخلة لمفهوم الحضور. ذلك أن *différence* تحيل إلى الاختلاف بمعنى التمايز لا إلى الاختلاف بمعنى الإرجاء. إنها تحيل إلى الفعل *différencier* لا إلى الفعل *différer*. لذا يقترح دريدا تعديلاً في كتابة تلك الكلمة بحيث تفيد في الوقت ذاته الخلاف والإرجاء. وهو يضع حرف *a* بدل حرف *e* فيكتبها على هذا النحو *différance* (10) لتعني:

1 - الإرجاء الذي يأخذ بعين الاعتبار «الزمان والقوى في عملية تقتضي حساباً اقتصادياً ولفاً ودوراناً وتأخراً».

2 - الخلاف واللاتطابق الذي «يقتضي مسافة وبوناً وابتعاداً».

ولعل اللفظ العربي مبينة يفصح عن هذين المعنيين بحيث يدل في الوقت ذاته على الاختلاف والتمايز، كما يدل على البون والابتعاد والمسافة والتأجيل.

المبينة إذن *la différance* هي حركة توليد الفوارق. إنها ما يجعل حركة الدلالة غير ممكنة اللهم إذا كان كل عنصر «حاضر» متعلقاً بشيء آخر غيره، محتفظاً بأثر العنصر السابق، فاتحاً صدره لأثر حالته بالعنصر الآتي. فإذا أقمنا الاختلاف بهذا المعنى داخل الهوية «تكون هناك مسافة تفصل الحاضر عما ليس هو لكى يكون هو هو ذاته» (11) ويدخل الزمان في «تحديد» الكائن لا لحصره وضمه، وإنما لجعله معلقاً في حركة إرجاء دائم، بحيث «يدخر نفسه» ولكن، لا كما هو الأمر في الجدول الهيجلي حيث فهم الادخار داخل اقتصاد ضيق (12) وإنما «يدخرها بمعنى أنه يحفظها ويرجوها إلى حين» (13).

« ثم في ص. 17 .

« ما يمدق على الرمي يطبق على ما يسمى الوجود الذاتي بمقتضى حابة. فطبعاً أن مقولة الذات لا يمكن أن ينكر فيها، ولم ينكر فيها. دون الرجوع إلى الحضور كحجر. فإن الذات كومي لم تدركه قط إلا كمشول أيام نفسها. إن الاختيار الذي يسلط للوعي هو امتياز للحضور».

وأخيراً اقرأ في ص. 59 من الكتاب نفسه:

« إن تحويل الحضور إلى متول أيام الذات، والوجود لأعلى إلى ذات تفكر في نفسها، وتكتسك على ذاتها في الحركة لا يخرج من المفهوم التقليدي عن الزمان كما حدد منذ أرسطو»

« Cf. "La différance" in Marges. op. citée, p. 8 (10)

Derrida. Marges. op. citée, p. 13 (11)

Cf. "de l'économie restreinte à l'économie générale" in L'écriture et la différence, (12)

op. citée,

Marges. op. citée, p. 21 (13)

للدلالة على هذا الحاضر المدخر المتصدع يستعير دريدا من ليفيناس مفهوم الأثر (Trace) (14) الذي لا نتفenna في تحديده أنماط الزمان الميتافيزيقية «فلا مفهوم الحاضر ولا مفهوم الماضي ولا مفهوم المستقبل، إن المفهومات الميتافيزيقية عن الزمان بصفة عامة، ليس باستلاعتها الوصف المطابق لبنية الأثر» (15).

إن الأثر لا يحضر، إنه ليس حضوراً وإنما هو سيمولاكر (16) الحضور. إنه «حضور ممزق متصدع متحرك مرجأ، حضور لا يكون، حضور يشكل الامحاء بنيته» (17) وهو يتنافى مع أنماط الزمان التقليدية، يتنافى مع مفهوم الزمان الميتافيزيقي، بما فيه المفهوم الجدلي. ذلك أن بنية التأجيل والتأخير «تمنعنا من أن نجعل من الزمن مجرد تعقيد وتركيب جدليين للحاضر الحي» (18).

لمجاورة الميتافيزيقي ينبغي أن يكون هناك أثر موشوم على النص الميتافيزيقي، يحيلنا لا إلى حضور آخر، أو أي شكل من أشكال الحضور، وإنما إلى نص آخر. وأن وسمه هذا الأثر على النص الميتافيزيقي لا يمكن أن تدرك إلا كمحو للأثر نفسه. وبالرغم من ذلك فإن هذا المحو يخلف أثره في النص وحينئذ «فإن الحضور بدل أن يكون، كما يعتقد عادة، ما يدل عليه الدليل، وما يحيل إليه الأثر، فإنه يصبح أثر محو الأثر. ذلك بالنسبة إلينا هو النص الميتافيزيقي، وتلك هي اللغة التي تتكلمها. وذلك هو الشرط الذي ينبغي توفره لكي نحيلنا الميتافيزيقي واللغة التي نتكلمها إلى مجاوزتهما» (19).

(14) يقول،

«وهذا يسمح لنا أن نطلق قسط الأثر على ما ينتج من التحديد في مفهوم الحاضر».
De la grammatologie, op. cité, p. 97.

ثم يقول في هوامش الفلسفة،

«الماضي الذي لم يحضر قط، هذه العبارة هي التي يصف بها إيدنويل ليفيناس الأثر والنسبة المعلقة أي الآخر... ومن وجهة النظر هذه، فإن فكر الاختلاف يلتقي مع هذا الأطولوجية التقليدية كما سنده ليفيناس».

Marges. op. cité, p. 25

De la grammatologie, op. cité, p. 97 (15)

(16) حول مفهوم السيمولاكر، انظر الفصل الثاني من القسم الثاني من هذا البحث.

Marges. op. cité, p. 25 (17)

Ibid. p. 21 (18)

Marges. pp. 76 - 77 (19)

ذلك أن الحدّ بين ما للميتافيزيقا وما ليس لها يمر عبر كل نص، فلا يتعلّق الأمر بالتمييز بين داخل وخارج، والإقامة في خارج مطلق، وإنما بـ «استراتيجية شاملة للتفكيك» (20) تنفّذ الوقوع في فخ الثنائيات الميتافيزيقية، وتقيم «داخل» الأفق المطلق لهذه الثنائيات عاملة على خلخلته: «فإن تفكك الفلسفة معناه أن تقيم جنيا لوجيا مفاهيمها وفق أكثر الطرق أمانة، وأقربها إلى الداخل، ولكن في الوقت ذاته، انطلاقاً من خارج لا تستطيع هي أن تصفه أو تسميه» (21) ومع ذلك فإن هذا «الخارج» ليس خارجاً مطلقاً. فلا يتعلّق الأمر بإقامة حقيقة ضد الحقيقة، كأن نواجه الحقيقة الميتافيزيقية بالحقيقة العلمية. إن الخارج المقصود مقيم داخل الامتلاء الميتافيزيقي. ذلك أن هذا الامتلاء، كما سبق أن قلنا امتلاء وهمي، وهو ينطوي على فواغيات وتباعدها وخارج. فإن كان التفكيك يضع نفسه في الخارج، فإن هذا الخارج مرتبط على الدوام بداخل متعدد متنوع، يقول دريدا: «لا يمكن للخلخلية الجذرية أن تأتي إلا من خارج (...) هذه الخلخلية تكمن في العلاقة العنيفة بين الكل وخارجه. سواء أتلحق الأمر بالعلاقة العرقية أو الاقتصادية، السياسية أو العسكرية (...) بناء على ذلك، لن يكون الاختيار إلا بين استراتيجيتين:

1 - أن نحاول الخروج وفك البناء دون أن نغير من موقعنا، وذلك بالفحص عما تنطوي عليه المفاهيم الأساسية لإشكالياتنا، مستعملين ضد البناء الأدوات والأحجار التي تتوفر عليها داخل البيت، أي داخل اللغة كذلك...

2 - أن نغير من موقعنا، منفصلين عنه بفترة، مقيمين ترواً في الخارج، مؤكدين الانفصال والاختلاف (...).

ومن الواضح أن الاختيار بين هاتين الصيغتين من التفكيك وفك البناء لا يمكن أن يكون بسيطاً ولا واحداً. إن الكتابة الجديدة ينبغي أن تلعب اللعبتين معاً، وهذا يعني أننا ينبغي أن نتكلم عدة لغات، وأن ننتج نصوصاً متعددة في الوقت ذاته» (22).

Positions, p. 56 (20)

Ibid. p. 15 (21)

Marges, p. 162 (22)

هذا التعدد هو ما يجعل دريدا يتقف عند بعض الكلمات التي تنطوي على معان متعددة بل ومعان مضادة. إنها كلمات يحكمها الاختلاف ولا تخضع لمنطق الحصر والحد، وهي تشكل بذلك نصيحة بالنسبة لمنطق الميتافيزيقا، إنها كلمات مزدوجة المعاني تحمل في «داخلها» خارجها، وتنطوي على قوة للخلخلة والتفكيك عملت الميتافيزيقا على الدوام علي الخط من أحد معانيها، وتقوم استراتيجية التفكيك على بحث طاقة التعبير الحية في المعنى المهشم لكل هذه الكلمات.

ذلك هو شأن لفظ الأثر الذي مر معنا، والذي يعني النسخ بالمعنى العربي المزدوج لهذه الكلمة، «النسخ إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه، تبديل الشيء من الشيء وهو غيره» ثم «النسخ نقل الشيء من مكان إلى مكان وهو هو» كما يقول لسان العرب. النسخ هو الإبطال والإلغاء والإزالة، ثم هو الاحتفاظ والإبقاء. ذلك أيضاً هو شأن الفارماكون الذي يعني السم والتريق، والمالحق الذي يضاف لسد فقص فيبين عن النقص. إنه الزيادة والنقصان اللذان يصدهان كل مقابلة مطلقة بين الإيجاب والسلب. ثم الهامش الذي يشير في الوقت ذاته إلى الامتلاء والنقصان، الإيجاب والسلب.

كل هذه «الألفاظ» ليست هي هذا الطرف ولا ذاك، ولكنها هما معاً. وكل هذه «الألفاظ» تعكس بعضها، كلها تحيل إلى السلب والإيجاب، الزيادة والنقصان، الحياة والموت، والهوية والاختلاف. فمن ورائها توجد حركة توليد الاختلافات، توجد المباينة *la différence*. وبالرغم من ذلك فلا نستطيع أن نقول إن المباينة والاختلاف هو مبدأها وأصلها. ليست المباينة هي الأصل الميتافيزيقي. فرغم أن المباينة هي ما تتولد عنه الفوارق، وما تتمخض عنه مفعولات الاختلاف «فهذا لا يعني أنها حاضرة حضوراً بسيطاً في ذاتها لا تتبدل ولا تتغير ولا تختلف عن ذاتها. إن المباينة هي الأصل اللامتناهي واللابسيط. لذا فإن اسم «الأصل» لا ينطبق عليها» (23).

تصدع الحضور يطال مفهوم الأصل ذاته، ويتحطم العود الأبدي داخل الكائن

فيجعل من التفكير استراتيجية شاملة تلتقي مع الجنياولوجيا في «هدمها» للأوثان الميتافيزيقية. إلا أن التفكير يختلف عن الهدم النيتشوي في الصبغة الأكاديمية التي يتخذها. فهو أساساً تفكير للنص الفلسفي. إنه نقش على النصوص. وهذا ما يبرر ولع دريدا بتاريخ الفلسفة، واهتمامه الدقيق بنصوصها. وهو اهتمام يبدو، في بعض الأحيان، أمراً مبالغاً فيه كما قال فوكو (24). وبالرغم من ذلك فنحن لن نذهب حتى القول، مع أستاذ دريدا ومعلمه، بأن التفكير هو المسؤول عن «إعادة صياغة النص إلى ما لا نهاية له». أليست هذه «طبيعة» النص بما هو كذلك حتى عند فوكو نفسه؟ أليست هي حياة الدليل كما يدعي كل الموالين لنيتشه والقاتلين بالعود الأبدى وسيادة التكرار؟ ألا يتعلق الأمر بمتابعة حياة الحقيقة ونظام الخطاب وسياسة المعرفة؟ لقد سبق أن أكدنا أن مجاوزة الميتافيزيقا لا تعني عند فوكو نفسه مواجهة حقيقة بأخرى. ويبدو أن الأمر لا يختلف عن ذلك حتى عند دريدا نفسه، فليس التفكير نقداً للنصوص الفلسفية ولا تحليلاً لها. وإنما هو استراتيجية (25). وهو لا يخرج بذلك عن السمة التي طبعت الفلسفة بعد هيجل حيث لم يعد لها موضوع، وحيث أصبحت تنشغل بنفسها، وتعيد قراءة تاريخها بغية تجاوزها.

(24) كتب فوكو رداً على دريدا .

«وان أكتفي بالقول إنها ميتافيزيقا، الميتافيزيقا أو انقلابها للذات يوجدان من وراء خفية الممارسات الخطابية، وإلا لأذهب حتى القول إن الأمر يتعلق بيداولوجيا مشروطة تاريخياً أخذت تظهر لإنها بيداولوجيا تطم التلميذ أن لا شيء خارج النص (...) وأن لا شيء في الحقيقة بعيداً عنه، وأن معنى الوجود يتجلى في النصوص. إنها بيداولوجيا تجمع أصوات المعلمين سيادة بلا حدود تخولها أن تعيد صياغة النص إلى ما لا نهاية له»

M. Foucault. Histoire de la folie, Gallimard, 1972, Appendice, p. 602.

معروف أن دريدا كان قد رد على هذا المأخذ بأنه لا يأخذ مفهوم النص في معناه الضيق. وإنما في معنى أوسع كذلك الذي يتقبله بالانشور حينما يقول «بأن العالم نص وأنه حركة للكتابة ذاتها». ولظاهر أن كل أنباع نيتشه بن فهم فوكو، ملزمون مبدئياً بقبول هذا التمييز للنص. فالجنياولوجيا، كما مر معنا، ترى أن الوجود كله حركة تأويل. لذا فإن انتقاد فوكو يبدو موجهاً لنيتشه نفسه.

(25) كتب دريدا .

«إننا نصل إلى فكر الاختلاف عن طريق موضوعة الاستراتيجية»

Marges, op. cité, p. 7.



خلاصة القسم الأول

تسمح لنا الفصول السابقة أن نتكلم عن طريقتين لتأريخ الحقيقة: الطريقة الأولى تصدر عن مفهوم معين عن الحقيقة، وتعتبر أن قيام الحقائق لمو وتراكم، وأن تأريخ الحقيقة عملية بناء تحاول أن تلاحق ميلاد الحقائق ونمو «الحقيقة»، أما الطريقة الثانية، فتصدر عن مفهوم مغاير، بل ومفهوم مضاد، يعتبر نشأة الحقائق قضاء على الأخطاء، وفضحاً للوهم وتأريخ الحقيقة عملية تقويض وتراجع، وحفر وتفكيك.

في الطريقة الأولى، التي يمكن أن ندعوها الطريقة الأفلاطونية تكون المعرفة تذكراً، كما يكون تاريخها استرجاعاً للكيفية التي أثبتت عليها الحقائق، ورجوعاً إلى المصدر الذي برزغت منه. وهنا يمتزج الأصل بالبداية الزمنية. أما في الثانية فإن التاريخ يصبح قلباً للأفلاطونية ومحاولة لإقامة ذاكرة مضادة. وهنا ينفصل الأصل عن البداية ويتميز عنها. الطريقة الأولى تقوم على مفهومات الهوية والذاكرة والاتصال، أما الثانية فعلى مفهومات التكرار والنسيان والانفصال.

المسألة التي تواجه التحليل التاريخي في المنظور الأول هي معرفة السبل التي سلكها الاستمرار لقيامه، والكيفية التي استطاع بها المصير ذاته أن يدوم ويرسم أفقاً واحداً بالنسبة لقول متباينة متعاقبة، والنهج الذي استطاع به الأصل أن يد سيطرته

ويبقى على البداية في طهارتها. أما في المنظور الآخر فلن تعود المسألة مسألة الأساس الذي يدوم ويبقى، والأصل الذي يخلد حضور البداية، وإنما مسألة التحولات التي تعمل كتأسيس وتجديد للتأسيس، فتجعل الفروع ملونة للأصول مؤسسة لها. الطريقة الأولى تتم انطلاقاً من مفهوم معين عن الزمان ومن إدراك للكائن من خلال غط معين من أنماطه هو غط الحاضر، أما الثانية فتروم أساساً تقويض فلسفة الحضور، وتحديد الزمان كعود أبدي.

الطريقة الأولى هي الطريقة التي أرستها الميتافيزيقا، أما الثانية، فهي ما أطلقنا عليه، في الفصول السابقة، البحث في الأصول أو جنياالوجيا الحقيقة أو حفریات المعرفة أو التاريخ التكويني. وقد تبيننا أن هذا التاريخ لا يمكن أن يقوم، ولم يتم في انعزال عن التاريخ الميتافيزيقي، وإنما قام أساساً ضده ولتقويضه والحفر في مسبقاته. ذلك أن مجاوزة الميتافيزيقا، كما سبق أن أكدنا، لا يمكن أن تتم بمزول عن تاريخ الميتافيزيقا والتاريخ الميتافيزيقي، ذلك التاريخ الذي حرص كل الحرص على تقصي الأصول والارتقاء للامحدود نحو الأسلاف، وبناء التراث، ومتابعة خطوط التطور، وتعيين الغايات، واللجوء دون انقطاع إلى مفهوم الحياة لاستعارة معانيه، فأبدى نفوراً حاداً من التفكير في الاختلاف، ووصف التباعد والتشتت، وتقويض الصورة المطمئنة للهوية والتطابق.

تدعونا مجاوزة الميتافيزيقا وإعادة النظر في مفهوم التاريخ إذن إلى الالتفات إلى ذلك الاختلاف والانفصال، وإعادة النظر في مفهوم الهوية والتطابق لإرساء مفهوم مغاير عن الحقيقة. فالنظر في منطق التاريخ لابد وأن يجرنا إلى النظر في منطق الهوية ومنطق المعنى.

القسم الثاني

الميتافيزيقا، الهوية والحقيقة

« ليس السلب حاضراً في الماهية حضور القوة في ما تستمد منه فعاليتها .
إن السلب، على العكس من ذلك يصدر عن هذه الفعالية . إنه يتأتى من وجود قوة
فعالة ومن إثباتها لاختلافها »

ج. دولوز

تمهيد

رأينا، فيما تقدم، أن تحديد الذاتية كحركة لتوليد الفوارق وانتقال من مخالف لآخر، يَكُننا من أن نعيد النظر في جميع الأزواج التي أقامتها الفلسفة، والتي تتغذى منها خطاباتنا، لا لنرى فيها قضاء على التقابل، وإنما علامة على ضرورة، بحيث يظهر كل طرف من طرفي الأزواج مخالفاً للآخر، وقلنا إن هذا الاختلاف يمين الحضور كأثر، ويقيم تباعداً بين الحاضر وبين نفسه، بين الذات وبين نفسها. فكان مجاوزة الميتافيزيقا تقول في النهاية إلى نقل للاختلاف من «خارج» الذاتية إلى داخلها للقضاء على الذاتية، وعلى الداخل والخارج معاً.

مجاوزة الميتافيزيقا إذن هي إعادة النظر في العلاقة بين الذات والآخر، بين الذاتية والاختلاف، هي إقامة «نظرية» عن الاختلاف، وإعادة النظر في منطق الذاتية. لا عجب إذن أن يكثر الحديث في عصر ما بعد الهيكلية عن الاختلاف، ولا عجب أن يتخذ هايدغر عبارة "الذاتية والاختلاف" عنواناً للمحاضرة التي ألقاها لاستخلاص نتائج مناظرة انعقدت حول كتاب المنطق لهيكل. فما المقصود بالاختلاف في هذا السياق؟ وفيه يتجاوز الجدل؟ وما آثاره في تحديد الحقيقة والمعنى؟

سنلغي أنفسنا من جديد ، ونحن نحاول الإجابة عن هذه الأسئلة في الفصول اللاحقة، في مواجهة هيجل. وسنسمى مرة أخرى أن «نفلت من قبضته» المنطقية، بعد أن حاولنا في الفصول السابقة «الانفلات من قبضته» التاريخية.

الفصل الخامس

الهوية والاختلاف

« إن الذاتية التي تفصلها عن ذاتها مسافة تقطنها معنى ما وتشكلها معنى آخر، والتكرار الذي يولد الذاتي ولكن في صورة تباعد، يكونان من دون أدنى شك، صميم الفكر المعاصر (...) فما يتجلى في هذا الفكر كأساس لتاريخ الأشياء وتاريخية الإنسان، هو البون الذي ينخر الذاتية والتباعد الذي يصدعها ويهدد أطرافها ».

م. فوكو

إذا كان مفهوم الهوية قد ارتبط دائماً بمفهوم الوحدة، فذلك لا يعني أن هذه الوحدة هي الفراغ الذي يدوم في انسجام قاتر بعيداً عن كل علاقة. لكي تتجلى علاقة الهوية مع نفسها، ولكي يفهم ذلك التوسط كتوسط، ولكي يتخذ ذلك التوسط الذي يخترق الهوية مكانه، لزم الفكر الغربي ما يزيد عن الألفي سنة. ذلك أن الفلسفة المثالية التأملية، بعد أن مهد لها الطريق كل من لايبنتز وكنت، هي التي أرست للهوية أسسها على يد فيشته وشيلينج وهيغل. ومنذ عصر المثالية التأملية، لم يعد من حقنا أن نتمثل وحدة الهوية كمجرد انسجام، وأن نهمل التوسط الذي

يتأكد في صميم الوحدة(1). إن كانت الهوية ترد إلى الوحدة، فإنها الوحدة التي ليست هي ما هي عليه، الوحدة التي هي اختلاف وتغاير. منذ المثالية الألمانية، وهيجل على الخصوص، لم يعد بالإمكان طرح مسألة الهوية بعيداً عن مسألة الاختلاف.

ما يؤكد ذلك، هو أن هيجل نفسه، في طرحه لمسألة الهوية والاختلاف، يبدأ بإبعاد الموقف الساذج الذي يتمثل وحدة الهوية كانسجام، ويدرك الاختلاف كتنابؤ بين وحدات مغلقة. وهذا ما يدعو به الموقف الاختباري.

يعبر هيجل عن وجهة نظر هذا الموقف في كتاب المنطق بقوله: «إن الأشياء المتباينة، حسب هذا الموقف، تختلف عن بعضها البعض اختلافاً بحيث لا يبالي أحدها بالآخر، مادام كل منها مطابقاً لذاته، ومادام التطابق يشكل مجال كل منها والعنصر الذي يتحرك داخله (...)». ينتج عن ذلك أن الشيء لا يخالف الآخر في ذاته، بل إن الاختلاف الذي يفصلهما هو مجرد اختلاف خارجي(2). إن ما يقف عنده الموقف الاختباري، هو التنوع، هو الأشياء من حيث إن بعضها يتميز عن الآخر. وإذا كان هذا الموقف يعرف الاختلاف كما يعرف التطابق، إلا أنه لا يبلغ معرفة الاختلاف الباطني أو الجوهرية، ولا يدرك التطابق العميق. «فالاختلاف يظل بالنسبة إليه تنوع الأشياء التي لا يبالي أحدها بالآخر (...) والكائن يظهر له مجزءاً إلى عناصر متعددة. والاختلاف الذي هو اختلاف التطابق يتبعثر في حدود وأطراف متعددة خارجة بعضها عن بعض (...) وهذا التنوع هو وحدة التطابق والاختلاف(3)». وهكذا تقوم الموجودات، كل من أجل ذاته، مخالف للموجودات الأخرى.

هذا الاختلاف من حيث هو تعدد رياضي ليس في نظر هيجل إلا تجزئاً محض. وسينحصر كل مجهوده في رد هذا التنوع الاختباري إلى التعارض والتناقض.

(1) انظر بهذا المبدأ

Heidegger (M). " Identité et différence" in Question I, Op. cité, p. 259

(2) أورده ج. هيبوليت في:

Hypolite (J) Logique et existence. P.U.F. 1953, P. 143

(3) المرجع نفسه، ص. 146.

صحيح أن هيجل لا ينكر هذا التنوع الذي يتحدث عنه الموقف الاختباري ومنطقه يشمل لحظة التنوع، ولكن، كملحظة من بين لحظات أخرى. ولا بد، في نظره، من التعارض. لأنه ليس هناك تعدد أشياء متعددة، وأحوال متناهية ومونادات فحسب. بل لأن كلا من هذه الأشياء يدخل في علاقة مع الأشياء الأخرى، مع كل الأشياء الأخرى. بحيث يكون تميز الشيء تميزه عن كل ما عداه: «فالتمييز العام للشيء هو الذي يربطه بالكون كله، وهو الذي يرد الاختلافات إلى الاختلاف الجوهرى الباطنى، أى اختلاف شيء أو تعيين عن آخره» (4).

وهكذا، يأتي الفكر ليملا النقص الذي يعيب التجربة الاختبارية. فيفهم التنوع كتنوع، ويعطيه مكانته، ويجمله في سلسلة من التعارضات الضرورية: «فالتنوع يؤول إلى التعارض من حيث إنه يؤول إلى زوج. في هذا الزوج، يرتبط كل طرف ارتباطاً جوهرياً بآخره، ويصبح الاختلاف اختلافهما» (5). يقول هيجل: «إن التنوع والتعدد لا يستعش ويحيا إلا إذا ذهب به إلى حد التناقض. آنذا تتلقى الأشياء التي تشكلهما السلب الذي هو الباعث على الحركة التلقائية (...) حينما نذهب بالاختلاف إلى ما يكفي من البعد، نرى التعدد قد أصبح تعارضاً، وبالتالي تناقضاً» (6).

هذا الانتقال من التنوع إلى التعارض، يمكن أن يبين على نحوين: فمن جهة ينعكس التنوع في الذات العارفة التي تصبح أساس التعارض وميدانه. ثم إن التنوع الكمي الخارجى يتبلور في الاختلاف الباطنى - وهذا الاختلاف الباطنى يصبح هو تعارض الشيء وتناقضه الداخلى. يقول هيجل: «الاختلاف في ذاته هو الاختلاف الجوهرى. إنه الإثبات والنفي، الإيجاب والسلب، بحيث إن الإيجاب هو علاقة التطابق مع الذات. بمعنى أنه ليس سلباً. أما السلب فهو المخالف من أجل ذاته، فليس هو الآخر. ولكن كلا منهما يظهر في الآخر. ولا وجود له إلا بوجود الآخر.

(4) المرجع نفسه، ص. 148.

(5) المرجع نفسه، ص. 149.

(6) هيجل، المنطق، الجزء الثاني، أورده.

الاختلاف الجوهرى إذن هو التعارض الذي لا يواجه فيه المخالف آخر بمعنى عام. وإنما آخره هو وأعني أن أي مخالف لا يتحدد بتعيينه الخاص إلا بالنسبة للآخر، وكل ما هو آخر الآخر⁽⁷⁾. وهكذا يكفّ الانعكاس والتفكير عن أن يكون ذاتياً ليصبح انعكاس المحتوى. وينبغي للانعكاس الخارجى أن يدرك تقيضه في المحتوى ذاته. وهو يتمكن من ذلك بانتقاله من التنوع إلى التعارض، وذلك ليس ذاتياً فحسب، وإنما موضوعياً كذلك.

الأشياء يعكس بعضها البعض. وهذا الانعكاس المتبادل هو التعارض، «فليست المساواة إلا تطابق حدود ليست هي ذاتها. إنها حدود لا تتطابق. والمساواة هي العلاقة التي تربط حدّين غير متساويين. هذان الحدّان لا يتفرعان إلى حدود ووجهات نظر متباينة لا يبالي أحدهما بالآخر. بل إن أحدهما يظهر في الآخر التنوع إذن هو اختلاف الانعكاس. أو هو الاختلاف ذاته. إنه اختلاف متعين»⁽⁸⁾.

وهكذا يكفّ التنوع عن أن يكون مجرد تعدد وتبعثر، ويمتزج الانعكاس الذاتى بالانعكاس الموضوعي، ليصبح الاختلاف اختلافاً باطنياً هو اختلاف الماهية، وليظهر كتعارض بين نفي وإثبات، وإيجاب وسلب. فكل تعيين سلب. إنه تناقض الموجود المتعين الذي لا يكون مطابقاً لذاته، إلا إذا خالفها. فبينما كان الاختلاف الاختباري مجرد اختلاف كمي لا يمس إلا سطح الكائن، نرى الاختلاف الهيجلي قد بلغ جوهر الأشياء، لأنه وضع داخل الهوية، فأصبح التعارض وحدة التطابق والتنوع. لا تقوم الهوية إذن إلا بـ/في معارضتها للآخر. ولا معنى للوحدة إلا كتركيب، ولا للتطابق إلا كاختلاف. ولكن، ألا يظهر الآخر عند هيجل، بالرغم من كل ما سبق، تمايزاً وعلاقة منسوجة على إرضية الوحدة؟ وما منزلة الآخر بالنسبة للذات خارج ضمير الهاء الذي يجر الآخر نحو الذات ليجمعه آخرها، ويوحده بها؟

معروف أن الآخر يشكل، في الجدول الهيجلي، لحظة استلاب تخرج فيها الذات عن نفسها لكي ترتد إليها وقد اغتنمت بذلك الخروج. فلكي يكون الشيء ينبغي أن

(7) هيجل. المرسعة، الفترة 119 أوردته ميوبلث في الكتاب الآف الذكر من ص. 152 - 153.

(8) هيجل، أوردته ميوبلث في الكتاب الآف الذكر، ص. 153.

يكون مخالفاً. ولكي يكون مخالفاً ينبغي ألا يكون هو ذاته. وهكذا لهما أن الاختلاف يقوم هنا على التعارض، وبما أن الآخر مجرد مقابل معارض فهو آخر الشيء، آخره هو. هذا الآخر لا يمكن قط أن يخون الذات ولا أن يهزها ويصدعها أو يتنلع بالنسبة لها. فلا معنى للآخر إلا إذا عاد ليلحق الكل الذي لا يكون إلا لحظة من لحظاته. ذلك أن كل عنصر من عناصر الحركة الجدلية عند هيجل يعمل كتعيين يعبر عن مبدأ يتحقق جزئياً في كل عنصر. وقد بين التوسير أن الكلية الهيجلية هي «التطور المستلزم لوحدة بسيطة، ومبدأ بسيط. هذا المبدأ الذي ليس إلا لحظة من لحظات تطور الفكر. بذلك تصبح الكلية على وجه الدقة، ظاهر هذا المبدأ البسيط وتجليه الذاتي» (9).

هناك إذن علاقة وثيقة بين الكلية الهيجلية وبين المبدأ البسيط، وهي علاقة تتعدد بكونها علاقة تعبيرية. تقوم هذه الكلية إذن على أساس عملية بسط لمبدأ بسيط يسترجع ذاته خلال كل تلك العملية. حينئذ سيصبح التناقض وسيماً بين شكل أدنى للمبدأ، وبين شكل أكثر كمالاً، أو قل إن التناقض هو العلاقة بين الكلية ونفسها، بين الكلية كمبدأ والكلية كنتيجة. هنا يصبح المبدأ هو الغاية والغاية هي المبدأ. للكلية الهيجلية إذن «وحدة روحية المطابع»، كما بين التوسير «لا تطرح فيها الاختلافات إلا لكي تنفى، وتكون عملياً متساوية بين بعضها البعض كظواهر مستلبة للمبدأ» (10).

إن الفكر الذي يقوم على الكلية فكر يقضي على غيره الآخر ويحتفنها. وهو فكر عاجز أن يفكر في الآخر بما هو كذلك دون أن يكون آخره. إن هيجل لم يذهب بالاختلاف إلى أبعد مدى، ولم يذهب إلى التذكير في آخر ليس له آخره، وبالفضب لأنه لا يمتلك حتى ذاته. (هذا ما يطلق عليه بلانشو اسم المحايد الذي لا آخر له، وبالفضب لأنه دوماً آخر -). لكن الذات، في الجدول الهيجلي لا تضيق إلا لتسترجع ذاتها. وهي لا تفقدها إلا لتملكها من جديد.

لخلطة هذه الذات وهز وحدتها، يحاول معظم المفكرين المعاصرين أن يفكروا

في الهوية خارج منطق الميتافيزيقا، وأن يدركوا الاختلاف بعيداً عن التعارض، ويذهبوا بالتناقض الهيجلي إلى أبعد مدى. لذا فهم يميزون الهوية عن التطابق، *Le même, l'identique*، محاولين إدراكها خارج مفهوم التعارض والتناقض. وهكذا نجد موريس بلانشو، على سبيل المثال، يميز بين مجرد التناقض، وبين ما يطلق عليه مفارقة. (كما يميز الغرابية (11) عن الاستلاب، والمعابد عن الآخر). المفارقة تعين، وتقيم التباعد الذي لا يمكن قهره. فالتباعد الذي يفصل، في الجدل الهيجلي، تعييناً عن آخر، يصبح هنا تباعداً ينخر كل تعيين، ويعدد كل وحدة، ليمنع التعيين ويجعل الشيء في بعد دائم من ذاته. فبينما يثبت التناقض: $A = A$ ، فإن المفارقة تقول: $A \neq A$. الصيغة الأولى إنما تثبت، في حقيقة الأمر، علاقة بين طرفين يتحركان نحو التطابق، ويسميان نحو التوحيد والتركيب، أما الثانية فإنها تجعل كل طرف يفقد، بفضل الآخر، كيانه الذاتي، التناقض مجابهة تثبت فيها الأزواج طريقها نحو الوحدة، أما المفارقة، فإنها تعمل على تصدع الوحدة ذاتها.

إن الاختلاف الهيجلي، عندما يقذف به داخل حركة الجدل، يصبح مجرد لحظة من لحظات الهوية الحقبة التي هي تطابق الهوية مع الاختلاف. صحيح أن هذا الجدل يسمح للاختلاف بالعمل، ولكن شريطة خضوعه لقانون السلب، فالتجاوز الهيجلي يتم بحذافيره داخل الخطاب، داخل النسق، أو في العمل المولد للمعاني. كل تعيين ينتفي ويحتفظ به في تعيين آخر يكشف عن حقيقته. فمن لا تعيين إلى تعيين، ومن تعيين تنتقل إلى آخر. وهذا الانتقال، الذي يولده اللامتناهي، هو الذي ينسج المعنى. وهكذا يقحم التجاوز داخل دائرة المعرفة المطلقة، ولا يحيد مطلقاً عن حدودها، ولا يقتضي على كلية الخطاب والعمل والمعنى والقانون (12). «إن الاختلاف الهيجلي اختلاف في خدمة الحضور، وعمل بناء تاريخ المعنى» (13).

إن التناقض عند هيجل يشكل جوهر الاختلاف، وليس مجرد نمط من

(11) ليست الغرابية مذوداً بالقياس إلى ميار.

(12) أنظر بهذا الصدد

Derrida (J), "De l'économie restreinte à l'économie générale" in *L'écriture et la différence*. Seuil, 1979, p. 405.

(13) المرجع نفسه، ص. 386.

أماطه وهو يبدو كأنه يذهب بالاختلاف إلى أبعد مدى. إلا أن الطريق التي يسلكها هي الطريق التي تردّه نحو التطابق، فتجعل التطابق كافياً لإيجاد التناقض وفهمه. فليس التناقض الهيجلي أكبر اختلاف إلا بالنسبة للتطابق وبدالاته (14). إن هذا التناقض يفهم في أفق هوية يسعى الجدل إلى صيانتها وحفظها في نهاية الأمر. كما أن هذا الاختلاف يفهم كسوة داخل تطابق مسبق، فيقاد نحو منحدر التطابق الذي يحمله بالضرورة حيث يشاء، ويجعله ينعكس حيث يريد التطابق، أي في السلب (15).

ولكن، إن تجاوزنا التناقض نحو المفارقة، والاستلاب نحو الغرابة، والآخر نحو الحياء، والاختلاف المبني على التعارض نحو اختلاف يؤسس التعارض ذاته، فيبدو أن الحديث عن الوحدة والتركيب لن يعود في استطاعتنا، بل ربما لا يبقى مجال حتى لإقامة الهوية وتحديد ما؟ وبعبارة أخرى إن نحن رفضنا الاختلاف الهيجلي، واستبعدنا هوية التطابق، فهل يبقى مجال لهوية مقابلة؟

للإجابة عن هذا السؤال، يحاول هايدغر نحت مفهوم مقابر عن الاختلاف، بحيث لا يظل الاختلاف تحت رحمة التطابق، ولا يقتصر على مجرد التعارض والتناقض.

سبق أن رأينا أن ما يعيب الاختلاف الهيجلي خضوعه لقانون السلب، وسجنه داخل دائرة المعرفة المطلقة. يتعلّق الأمر إذن بتحرير السلب من هيمنة (16) الكل، وعدم توقيف عمله بفعل أي تركيب، أو سجنه داخل منطق التعارض. هاهنا لا تقوم الذات في تعارضها مع الآخر، وإنما في اختلافها. بل إن الذات لا تقوم وتطابق، وهي في تباعد دائم عن نفسها. إنها لا تحضر. زمانها ليس زمان الحضور والميتافيزيقا

(14) انظر بهذا الصدد

G. Deleuze. *Différence et répétition*. op. cit. p. 338.

(15) المرجع نفسه. ص. 73.

(16) سبق لنتشبه أن بين أن كل وحدة ليست كذلك إلا بما هي تنظيم وتماثل «مظما هو الأمر عندما تشكل جماعة بشرية أمة ووحدة» فهي إذن تقابل فرضي الذات، وهي تنطوي على تية هيمنة. ينطوي مفهوم الوحدة إذن على مفهومي الهيمنة والخضوع. انظر

La volonté de puissance. T. I. L. 1. §. 143. p. 81

ولما زمان العود الأبدي. إن الذات لا تنفك تكون. وليس السلب هنا هو هذا الذي يجيء من خارج، ليتعارض مع الذات. ولما ذلك الذي ينخرها من الداخل (إن صح الكلام عن داخل). السلب هو الحركة اللامتناهية التي تبعد الذات عن نفسها. فالمساواة أ = أ، كما يقول فوكو، تنطوي على حركة داخلية لا متناهية تبعد كل طرف من طرفيها عن ذاته وتقرب بينهما بفعل ذلك التباعد ذاته. «يتعلق الأمر ببعد إيجابي بين المتخالفين: إنه البعد الذي ينقل أحدهما نحو الآخر من حيث هما مختلفان» (17).

يظهر أن هذا المعنى «الجديد» للاختلاف، لا من حيث هو تعارض بين تقيضين، بل من حيث هو ابتعاد يقارب فيما بين الأطراف المختلفة، هو المعنى الاشتقاقي لكلمة *différence*. يقول ج. بوفري: «لتأمل كلمة اختلاف، *différence* هذا نقل فرنسي يكاد يكون حرفياً للكلمة الإغريقية *ديافورا*. فوراً آتية من الفعل فيري الذي يعني في الإغريقية، ثم في اللغة اللاتينية *Feri*، حمل ونقل (...) الاختلاف ينقل إذن، فماذا ينقل؟ إنه ينقل ما يسبق في الكلمة *ديافورا* فوراً، أي السابقة ديا الذي يعني ابتعاداً وفجوة... الاختلاف ينقل طبيعتين لا تتميزان في البداية، مبعداً إحداهما عن الأخرى. إلا أن هذا الابتعاد ليس انفصاماً. إنه، على العكس من ذلك، يقرب بين الطرفين اللذين يبعد بينهما. لذا كان هيراقليطس يقول *عَمَنَ لا يَكُنْ لَهُ المحبة*، إنه لا يعلم أنه لا يتفق مع نفسه إلا نتيجة الاختلاف» (18).

هذا هو معنى الاختلاف الأنطولوجي عند هايدغر. فإذا كان الوجود والوجود يعتمدان عن بعضهما، فلأن أحدهما يجيء نحو الآخر. إذا كان الوجود عند هيجل هو اختلافه، فإن الوجود عند هايدغر، كاختلاف أنطولوجي، اختلاف الوجود عن الموجود، يحول دون الحضور أن يحضر، ودون الوجود أن يتبين ويتطابق. الهوية هنا اختلاف، إلا أن الاختلاف ليس مجرد تعارض بين تقيضين. إنه انتقال: «إن وجود الموجود هو ما يكونه الموجود. في هذا الفعل يكون تتجلى حركة انتقال» (19)

Deleuze, *Logique du sens*, Coll. 10 / 18, Minuit, p. 237 (17)

Beaufret, *Dialogue avec Heidegger III*, op. cité, p. 188 (18)

A. de Waelhens, "Identité et différence : Heidegger et Hegel" *R.I.P.* N° 52, 1960, (19)

و«الاختلاف هو الذي يبعد الوجود عن الموجود وينقله نحوه» (20).

هذه الوحدة كحركة لا متناهية للجمع والتفريق، والإبعاد والتقريب، هي ما كان هيراقليطس يعنيه باللوغوس - يقول هايدغر: «هذا التوحيد الذي ينطوي عليه فعل ليفين لا يعني أننا نقتصر على جمع الأضداد وضمها والمصالحة بينهما، الكل الموحد يعرض أمامنا أشياء يتنوع وجودها ويتباين وقد اجتمعت في الحضور ذاته، مثل الليل والنهار، الشتاء والصيف، السلم والحرب، اليقظة والنوم، ديونيزوس وهاديس، إن هذا الذي ينقل (الشيء نحو ضده)، عبر المسافة البعيدة التي تفصل الحاضر عن الماضي، إن هذا الديانايرومتون، هذا ما يعرضه اللوغوس في حركة انتقاله. وفعل اللوغوس ينحصر في عملية النقل هذه. إنه ما ينقل، الوجود الموحد ناقل وحامل» (21). فالاختلاف هو اللوغوس الحق. «لكن اللوغوس هو التيه والضلال الذي يقضي على الحدود الثابتة» (22).

نحن أمام توحيد لا يصالح بين الأضداد، وإنما يعرضها أمامنا متباينة مجتمعة في الحضور ذاته، وأمام وحدة لا تتوخى لحظة التركيب، واختلاف لا يرتد إلى التناقض، وهوية لا تؤول إلى تطابق. فأى معنى يظل للهوية والحالة هذه؟ ألسنا فحسب أمام مشروع هوية، أو بالأحرى، أمام بقايا هوية خلفها الاختلاف الأصلي؟ (23) ألا ينبغي أن نقول إن هذه الهوية لا تتمتع إلا بوجود ظاهري مفتعل؟ وإنها من توليد النسق الذي يحمل المخالف نحو المخالف بفعل الاختلاف؟ «إن الذاتي والمشابه أوام يولدها العود الأبدى» (24).

الهوية مفعول لعمل الأنساق التي يحكمها العود الأبدى (25). إنها عودة الاختلاف، وهي انتقال من مخالف لآخر، من طرف تعارض للطرف الآخر، وهذا

Heidegger, "Identité et différence" in *Question*, 1. op. cité. p. 305, (20)

Heidegger, "Logos" in *Essais et conférences*, Gallimard, 1980. pp. 276 - 8 (21)

Deleuze (G), "Paille et feux locaux" in *critique* N° 275. Avril. 1970 (22)

Deleuze, *Différence et répétition*. op. cité. p. 165 (23)

(24) المرجع نفسه.

(25) هذه النظرة للزمان كمخطومات يتغيرها الاختلاف، منظومات تتكون من سلاسل مفتحة تذكركما بما سبق أن قلناه من مفهوم

السلسلة عند فوكو. أنظر القسم الأول من هذا الكتاب.

بالضبط للقضاء على أطراف التعارض، ومحو كل تطابق (26). فليس العود الأبدي للهوية عودة الأمور ذاتها، وإلغاء الاختلافات، إنه يعني على العكس من ذلك، أن الغرابة والاختلاف يشبتان في العودة وعن طريقها. فليست الذات ذاتية إلا في / عن طريق العودة التي لا تنفك تعود. وعندما قال تيتشه بالعود الأبدي فهو لم يكن يعني شيئاً غير هذا، إن العود الأبدي لا يمكنه أن يعني عودة المطابق ما دام يفترض، على العكس من ذلك، عالماً لا مكان فيه للهويات، عالماً يحوي فيه التطابق وذوب. إن العود الأبدي هو الوجود، ولكنه وجود الصيرورة. العود هو ذاته ما يصير. العود هو أن تصبح الصيرورة هوية. العودة إذن هي الهوية الوحيدة. ولكنها الهوية كقوة ثانية. إنها هوية الاختلاف.

هذه الهوية التي تتولد عن الاختلاف تتحدد كتكرار (27). فالعود الأبدي هو الهوية الوحيدة في عالم لا تطابق فيه ولا هوية إلا بفضل التكرار. ولكن، ما الذي يكرره التكرار. هل التكرار مجرد عملية استنساخ للشيء ذاته؟ هل هو نسخة لا متناهية لنموذج أصلي؟ علينا إذن أن نتساءل عن علاقة النسخة بالنموذج في عالم يسود فيه العود الأبدي. علينا أن نقف عند مجاوزة الميتافيزيقا كقلب للأفلاطونية، بعد أن وقفنا عندها هنا كقلب للهيجلية.

(26) يقول ج. دريدا :

والهوية هي بالتبسيط حركة توليد التناقض والاختلافات، إنها انتقال ملتو ملتبس من مختلف للأخر، انتقال من طرف التعارض للطرف الأخر. انظر :

Marges. Minuit, 1975. p. 18.

Deleuze, Différence et répétition. op. cité. p. 165 (27)

الفصل السادس

النُّمُودَج والنُّسْخَة

«ألا ترى إلّا التشابه، وأن تسوّي بين الأشياء... إن هذا علامة على ضعف نظرك».

ف. نيتشه.

يحدد نيتشه مهمته الفلسفية، بل ومهمة الفلسفة كما يراها هو، كقلب للأفلاطونية. ويظهر أن هذا القلب يعني قضاء على عالم الماهيات وعالم المظاهر. لكن قلب الأفلاطونية، كما هو معروف، ليس وفقاً على نيتشه. إن محاولة قلب الأفلاطونية معروفة منذ أرسطو، بل إنها معاصرة لميلاد الأفلاطونية ذاتها. فمنذ أن ظهرت الأفلاطونية وهي تتعرض لعملية القلب. فما هو المعنى الجديد الذي يعطيه نيتشه للقلب؟

الظاهر أن الجواب عن هذا السؤال يقتضي منا تحديد طبيعة الأفلاطونية التي نريد قلبها، قبل أن نحدد طبيعة القلب نفسه. فهل يكفي أن نحدد الأفلاطونية بأنها الفلسفة التي تميز عالم المعاني عن عالم المحسوسات، والنماذج عن النسخ؟ بيد أن

مفهوم النموذج عند أفلاطون، وكما بين دولوز⁽¹⁾، لا يتدخل هنا كي يتقابل عالم النسخ ويتعارض معه في مجموعه ولا تقف مهمته عند هذه المقابلة والتعارض. إنه يتدخل كي يتقي النسخ الجيدة التي تشبه الأصل في صميمه وباطنه، أي الإيقونات (icônes)، ويستبعد النسخ الرديئة أي السيمولاكر (simulacres). النسخة - الإيقونة صورة تتمتع بالتشابه، والسيمولاكر صورة بلا تشابه. الإيقونة تقوم على الشبه والوحدة مع النموذج، أما السيمولاكر فهو يقوم على الاختلاف وينطوي على اللاتشابه. الإيقونة «تكرر» النموذج، والسيمولاكر يخونه ويتنطع بالنسبة إليه. يولد الزوج الميتافيزيقي نموذج / نسخة زوجاً آخر يحل محله، إنه الزوج إيقونة / سيمولاكر، بحيث تكاد المقابلة الأساسية تصبح هنا محصورة في عالم النسخ ذاته. ولا يتدخل النموذج إلا كمعيار للتمييز بين النسخ والمفاضلة بينها، وانتقاء الوفي واستبعاد غيره.

ليست الأفلاطونية بهذا المعنى هي التمييز بين عالم المعاني وعالم المحسوسات، بين النماذج والنسخ، وإنما هي وقوف عند النسخ ذاتها، وفحصها لإظهار ما ينتسب إلى الأصل وما لا علاقة له به: هناك النسخ التي تجيء مباشرة بعد النماذج، والتي تقوم عليها، ضامنها في ذلك الشبه الموجود بينها وبين النماذج. ثم هناك السيمولاكر الذي يفترض اللاتشابه والخلل، وينطوي في جوهره على نوع من التنكر والخداع. هناك النسخ التي تقوم على أساس، وتلك التي تسقط في هاوية الاختلاف، والأفلاطونية هي محاولة ضمان انتصار النسخ الإيقونة على السيمولاكر. وحينئذ لا يقوم الزوج الظاهر نموذج / نسخة إلا خدمة لتلك التفرقة الأولى إيقونة / سيمولاكر. الزوج معنى / نسخة هو الذي يضمن التمييز الضمني بين نوعين من النسخ، وهو الذي يزودنا بالمعيار الذي نميز عن طريقه بينهما: فليست الإيقونة نسخة جيدة قائمة على أسس متينة وأرض صلبة إلا بفعل الشبه الذي يربطها بالنموذج والمعنى والصورة، إنها ليست كذلك إلا لأنها صورة للصورة، إلا لأنها

صورة مضاعفة، «ووحدة النموذج وذاتيته وتطابقه هو ما يؤسس وضعية النسخة» (2).

كل ما لا يخضع لقانون التشابه، كل ما لا يجره الشبه نحو النموذج فهو مخالف، مخالف لقانون الشبه، مخالف للقانون. إنه السفسطائي، ذلك الشيطان المخادع المتظاهر.

مع أفلاطون إذن تم في الميتافيزيقا اتخاذ موقف حاسم يخضع بمقتضاه الاختلاف لهيمنة الذاتي والشبيه، وي طرح الاختلاف من حيث إنه لا يمكن أن يكون موضع فكر، فيرمى به هو والسيمولاكر في هوة ساحقة.

لذا فنحن نعجز، من هذا المنظور، عن تحديد إيجابي للسيمولاكر، عن حصره وسجنه في لفظ محدد أحادي المعنى، سجنه داخل منطق الميتافيزيقا.

ذلك أن السيمولاكر يفترض أبداً كثيرة، يفترض أعماقاً ومسافات يعجز الملاحظ عن إخضاعها وقهرها. وما أنه لا يقهرها، فإن الأمر يشبه عليه. إن كانت خاصية الإيقونة هي التشابه فإن «خاصية السيمولاكر هي اللاتشابه» (3). إن السيمولاكر ينطوي على ميل نحو الحلق والتأخيد وخرق المقول، وعلى سعي إلى أن يصبح آخر. إنه ينم عن تنكر للتشابه ومحو للتساوي وقضاء على التحدد. إنه يكون دوماً أزيد أو أقل، ولا يكون قط مساوياً. وإذا أظهر نوعاً من الشبه فكأنهم لا كمبدأ داخلي. وما ترمي إليه الأفلاطونية هو وضع حد لهذا السعي يرد السيمولاكر إلى التطابق وجره إلى التشابه. إن ما تسمى إليه هو إغفال ما يتمرد وما يتنطع عن التحدد والرمي به في هاوية ساحقة، هاوية الاختلاف وعدم التكرار. وهكذا ستؤسس الأفلاطونية الميدان الذي ستعتبره الميتافيزيقا ميدانها الخاص، إنه مجال التمثل الذي يعج بالنسخ - الإيقونة، تلك النسخ التي لا تتحدد

Deleuze (G). Logique du sens, coll. 10 / 18 Minuit - Bourgeois. 1969. p. 350 (2)

(3) يقول بولان: «لقد عرفنا العقيدة المسيحية، لا عرفت من تغير الآباء الأفلاطونيين الفكرة، على صورة بدون شبيه الإنسان صبرة من الله وشبيه به. لكن الخطية ألقنا الله وأبقت على الصورة... هذا هو السيمولاكر بالضببط، إنه صبرة شيطانية قدت التشابه الذي يضمها إلى الشبيه، أو بالحرى فإنها، على عكس الإيقونة، طردت التشابه وأبقت على الاختلاف».

Deleuze. Différence et répétition. op. cité. p. 167.

في علاقاتها الخارجية مع موضوع معين، وإنما في علاقة حميمة صميمية مع النموذج والأساس.

ليست الأفلاطونية هنا مجرد مذهب فلسفي له موقعه المكاني والزمني، وله أتباعه والمشايعون له. إنها بنية الميتافيزيقا ذاتها.

سبق أن قلنا إن مجاوزة الميتافيزيقا لا تعني معارضة مذهب بآخر أو التخلي عن دراسة من الدراسات، فلا يعني قلب الأفلاطونية، والحالة هذه، الاعتراض على مذهب أفلاطون، وانتقاده في هذه النقطة أو تلك، وإنما مجاوزة للميتافيزيقا و«قلبها» لبنيتها، لما المقصود إذن بذلك القلب؟

إذا كانت مسألة الأفلاطونية أساساً لا تتعلق بالتمييز بين الماهية والمظهر، بين المعقول والمحسوس، بين النموذج والنسخة، أصبح قلبها لا يعني قلب هذه الأزواج والإعلاء من المظاهر ضد الماهيات، أو المحسوسات ضد المعقولات، ذلك أن هذا التمييز يتم بأكمله داخل عالم المفهوم والتمثل، عالم الميتافيزيقا. أما قلب الأفلاطونية، فيهدف إلى خلخلة هذا العالم ذاته. إنه يهدف إلى الطعن في عالم الهوية والتشابه، ومنطلق الهوية والمفهوم الذي يتم داخله التمييز بين المظهر والماهية والمفاضلة بينهما.

سيكون القلب إذن وقوفاً عند النسخ ذاتها، مثلما هو الشأن في الأفلاطونية، ولكن، هذه المرة، للإعلاء، من السيمولاكر والاعتراف بحقه إلى جانب الإيقونة «إنه تمجيد لسيادة السيمولاكر والانكاس»⁽⁴⁾، تمجيد للاختلاف. يقول دولوز: «لننظر إلى العبارتين، (لا يتخالف إلا ما يتشابه)، (إن الاختلافات وحدها هي التي تتشابه). يتعلّق الأمر بقراءتين متميزتين للعالم، باعتبار أن الأولى تدعونا إلى النظر إلى الفوارق انطلاقاً من تشابه أو هوية أولية. في حين أن الأخرى تدعونا، على العكس من ذلك، إلى النظر إلى التشابه، بل إلى الهوية كما لو كانت حصيلة اختلاف وتنوع أولي. العبارة الأولى تحدّد عالم النسخ والتمثيلات، وهي تنظر إلى العالم كما لو كان نسخة، أما الثانية فإنها تثبت، على العكس من ذلك، عالم السيمولاكر، وتنظر إلى

العالم ذاته كما لو كان استيهاماً *Phantasme* ولا يهم كثيراً، من وجهة النظر الثانية أن يكون التشبث الذي يقوم عليه السيمولاكر كبيراً أو صغيراً، وقد يحدث ألا يميز السلسلات الأساسية إلا فارق بسيط، ويكفي، مع ذلك، أن ننظر إلى التشابه الخلاق في ذاته، وألا نفترض أية ذاتية أصلية. فيكون التنوع هو وحدة قياسها واتلافها، حينئذ لا يمكن أن ننظر إلى الشبه كحيلة هذا الاختلاف الداخلي» (5).

في قلب الأفلاطونية يطلق التشابه على الاختلاف، ويطلق الذاتي على المخالف. فرق بين أن ننظر إلى التمايز والاختلاف انطلاقاً من اقتراض ذاتية ووحدة مسبقة، وبين أن نعتبر أن التشابه والوحدة يتولدان عن الاختلاف، وأن هذا الاختلاف هو ما يشكل الدينامية الحقيقية لوجود الهوية والوحدة، وأعني دينامية التكرار *répétition*. النظرة الأولى تنطلق من فكرة الأصل فتعتبر العالم نسخة تكرر الأصل، أما الثانية فتتفرع إلى الواقع وإلى معانيه في ديناميتها المتولدة عن فعالية. النظرة الأولى تعتبر أن النموذج والمعنى سابق للتكرار، أما الثانية فتذهب إلى القول بأن كل هوية تكرر (6). النظرة الأولى تعتمد الزمان التقدمي، أما الثانية فتقول بالعود الأبدي، الأولى تنظر إلى العالم على أنه نسخة أما الثانية فعلى أنه سيمولاكر. غير أن السيمولاكر لن يعود هنا مجرد نسخة مشوهة وإنما «النسق الذي يرتبط فيه المفارق مع المفارق عن طريق الفوارق ذاتها» (7). ولا يعني وجود هذا الارتباط اقتراض تشابه سابق أصلي، بل إن التشابه «يتولد نتيجة عمل النسق ونشاطه كمعلول ومفعول، ولا كعلة وشرط» (8)، لذا قلنا إن السيمولاكر هو المستوى الذي تدرك عنده الفوارق في ذاتها «كسلسلتين مختلفتين يقوم عليهما ذلك المستوى دون مراعاة للتشابه ودون الحديث عن أصل ومصدر ونسخة» (9). ها هنا يحتمي كل تدرج إذ لا فصل لسلسلة على أخرى. ولا واحدة من السلسلات تتمتع بصفة النموذج. فكل سلسلة

(5) Deleuze, *Logique du sens*, op. cité, p. 356.

(6) بهذا المعنى فإن عنوان كتاب ديلوز *Différence et répétition* موصفة لخرق لعادة *Différence et Identité*.

(7) Deleuze, *Différence et répétition*, op. cité, p. 355.

(8) Ibid, p. 95.

(9) Deleuze (G), *Logique du sens*, op. cité, p. 357.

تتألف من فوارق، وعلاقتها بالسلسلات الأخرى تتحدد هي أيضاً بمجموعة من الفوارق. لذا فإن السيمولاكر ليس نسخة مشوهة محرفة خائفة. بل إنه يفصح عن قوة إيجابية تنفي الصورة الأصلية والنسخة معاً، كما تنفي النموذج والاستنساخ.

في مقال هام (10) يحصي فوكو استعمال كلمة سيمولاكر فيقول:

- السيمولاكر هو الصورة التافهة في مقابل الحقيقة الفعلية.

- ثم إنه يعني تمثيل شيء ما (من حيث إن هذا الشيء يفوض أمره لآخر، من حيث إنه يتجلى ويتوارى).

- ثم إنه يعني الكذب الذي يجعلنا نأخذ علامة بدل أخرى.

- وهو يعني أخيراً القدوم والظهور المتأني للذات والآخر.

Simuler, c'est originalement, venir ensemble.

تتمخض عن هذه التعاريف، وعن إثبات عالم السيمولاكر وقلب الأفلاطونية نتائج أنطولوجية نجعلها فيما يلي:

- عالم السيمولاكر عالم لا مركز له ولا تضمه وحدة، وهو، بالأولى، عالم مرايا.

- ثم إنه عالم بلا صورة نموذجية.

- وهو عالم التعدد اللامتناهي، لا الوحدة اللامتناهية.

- وهو عالم البدائل والنظائر doubles حيث يسكن الآخر الذات، ولا يكون

إلا بعد الذات عن نفسها، ذلك البعد الذي يجعلها، في اختلافها، شبيهة بالآخر.

- لكن الأهم من كل هذا هو أن عالم السيمولاكر عالم يحكمه العود

الأبدي (11). عالم لا وجود فيه للشيء إلا في عودته، إلا من حيث هو نسخة من

نسخ لا متناهية، ولكنها نسخة لا أصل لها. إنه عالم لا معنى للهوية فيه إلا كتكرار.

(10) Foucault, "La prose d'Actéon" in N.R.F. Mars. 1964. pp. 448 - 9

(11) يقول ديلوز:

«يكون السيمولاكر هو الخاصة أو الصورة الأساسية الموجود عندما يصبح المرء انطباعي قوة الرجوع».

Deleuze, Différence et répétition. op. cit. p. 92

عالم يتنافى مع زمان الميتافيزيقا، يتنافى مع خلية الزمان وتقدمه، ويفترض بالأولى دورانه وعودته⁽¹²⁾.

عالم السيمولاكر إذن عالم يحكمه الاستنساخ وتصبح فيه الهوية تكراراً، عالم لا وجود فيه للمشيء إلا في عودته ولا حضور له إلا بنظائره وبدائله، إنه عالم تتصدع فيه الذات وتنهار فيه الذاتية.

لقد تبينا في الباب الأول من هذا البحث أهمية انتقاد زمان الميتافيزيقا وإثبات العود الأبدي، كما تبينا في الفصل السابق من هذا الباب أن المجاوزة تفترض إعادة النظر في منطلق الهوية، وإقامة ذات لا يكون فيها الآخر إلا بعد الذات عن نفسها «ذلك البعد الذي يجعل الآخر، في اختلافه شبيهاً بالذات دون أن يكون مطابقاً لها»⁽¹³⁾، ويظهر أن النتيجة التي يفرضها علينا هنا إثبات عالم السيمولاكر هي خلخلة مفهوم الذات نفسها وتقويض فلسفات الكوجيطو. وهذا ما سنتعرض إليه في الفصل اللاحق.

(12) يقول بلاشوت:

«إن فكرة العود الأبدي عند زرقته هي أقوى إثبات للفكر المعاصر. لأنها تضع محل الوحدة الالهيانية التعدد الالهي، ومحل الزمان الخطي زمان الخلاص والتقدم زمان الكائن العائلي (...) ولأنها تضع موضع سؤال الكائن رخاصية وحدة ما هو الآن وفقاً، وتبعاً لذلك لأنها تضع موضع سؤال وحدة الـ *l'ego*، وبالتالي وحدة النفس. فضلاً عن كل هذا فإن هذه الفكرة تضعنا في عالم تكاف فيه الصورة عن أن تكون مثقوبة بالنسبة للنموذج، عالم يكون فيه للضمة نصيب من الحقيقة، عالم لا أصل له، وإنما ومضات لا تنقضي يحتاج فيها في إشرافه ألف والعشرات غياب الأصل».

Cl. M. Blanchot "le rire des dieux" in N.R.F. Juillet, 1965

Cl. M. Blanchot "le rire des dieux" in N.R.F. Juillet, 1965 (13)

الفصل السابع

الذَّاتُ وَالْمَوْضُوعُ

« يتعلق الأمر في الكوجيطو للحاضر بالتأكيد على المسافة الشاسعة التي تفصل وتغصم في الوقت ذاته، الفكر المائل لذاته وما فيه يضرب بجذوره في ما لم يفكر فيه (...) فما أن ظهر أن «الأنا أفكر» حارق في سمك كيف يكاد لا يثقل فيه، حتى لم يعد من الممكن أن نلحقه بمهارة «أنا موجود».

م. فوكو

« أفكر حيث لا أوجد، وأوجد حيث لا أفكر. أنا لا أوجد حيث أكون لعبة لتفكيري، وإنما أوجد حيث أكون لعبة في يد لا شعوري».

ج. لاكان.

ربما كان من الصعب علينا أن نتصور، قبل ديكرت، فكراً يتولد عن ذات تتمتع بحرية الخطأ. ذلك أن الخطأ كان يجد حله جهة الموضوع. إن وضوح المعرفة والوجود عند أفلاطون كان ينطوي على القوة الكافية لإثباته دون أن نكون في حاجة

إلى إرادة ديناميكية تقضه. وإن حصل وكان هناك خطأ، فذلك ليس إلا نتيجة إغفال، والذات لا شأن لها بذلك.

مع ديكارت ستأسس الذاتية، ستصبح الذات المريدة سيده اللعبة، وهي وحدها المسؤولة عن إصلاح نفسها واتخاذ القرار في ألا تقبل من الأفكار «إلا ما كان واضحاً متميزاً» (1).

إذا كانت الذات *sujet* هي ذلك الموجود الذي يكون تطابقه من الصلابة والتلاحم بحيث يتحمل التبدل والتحول (*Support, Supporter*)، فإن أكثر الموجودات ذاتية عند ديكارت، أكثر الذوات ذاتية هو الموجود المتأكد المتيقن من تطابقه وهويته؛ إنه الأنا المفكر. الذاتية إذن هي الفكر والشعور والوعي.

عندما ستصبح هذه الذات ترانسندنتالية مع كانط فإنها ستزداد تميزاً عن باقي الموجودات الأخرى، من حيث إنها لا يمكن أن تكون قط موضوعاً، إنها ما يقابل الموضوع. ذلك أن كانط سيفرغ الذات الديكارتية من كل محتوى وجوهرية. ولن تعود موضوع معرفة. لن تعود موضوعاً. فسواء أعرفناها مع نقد العقل النظري كذات ترانسندنتالية، أو مع نقد العقل العملي كحرية، فهي لن تعود موضوعاً، وهي بمعنى ما، لن تعود موجوداً بين الموجودات؛ إنها غائبة في مستوى المعرفة رغم أنها تؤسسها، لكنها مستحيلة في مستوى الأخلاق ما دامت نفعياً لكل معطى (2).

لن يبقَ كانط من الذات إذن إلا على الأنا كهوارة فارغة وكضرورة منطقية (3)

(1) يقول مايفسر ذلك انشأته الملاحظة في اللحظة التي تحرر فيها الإنسان ليعبره إلى ذلك من حيث هو ذلك الكائن الذي يتأمل نفسه برده كل الأشياء نحو ذاته كحكم على (...). لقد أصبح للمنى الأفلاطوني تصوراً يدركه ويهتفك مستقلب مامة المعنى والبرية والعصور الأفلاطوني إلى تمثل يمثل أمام ذلك الذي يتأمل الأشياء ويضعها أمامه.

Heidegger, Nietzsche II. op. cité, p. 183.

كما يقول:

«إن اسم «الذات» اتخذ معنى جديداً أيغفر اسم اللطم الذي يطلق على الإنسان. ومعنى ذلك أن كل ما ليس إنساناً نسيغفر موضوعاً يوضع أمام الذات».

المراجع نفسه، ص. 136.

(2) ولا يمكننا إلا أن نعرف أن «الذات» التي يتحدث عنها كانط كذات خلاقية لا تعرف شيئاً إلا سلباً. كذات تتميز عن ذات المعرفة».

Ph. Lacoue - Labarthe, J.L. Nancy. L'Absolu littéraire, Seuil, 1978, p. 44.

(3) وسيقول نيتشه فيما بعد هي ضرورة نحوية.

تصبح ثلاثتنا. وبالرغم من ذلك فإن كل الكتطين الجدد سيقتنون نزعة إنسانية مفرطة. وسيقيمون الذات أساساً للمعرفة والأخلاق. فلن تظهر لهم موضوعية العلوم إلا من فعل ذاتية مؤسسة تجني، بفضل بنيات مقولاتها، عالماً من الموضوعات، كما ستبدو لهم الحياة الأخلاقية والسياسية دائرة حول الشخص الأخلاقي القادر على أن يكون مصدر أفعاله وأعماله، مثلما أن الذات الترنسندنتالية هي مصدر عمليات بناء الموضوعية.

أما الفينومينولوجيا فهي ستصبح فلسفة الذات بمعنى جديد كل الجدة. فعند تأليف هوسرل للمباحث المنطقية (1900 — 1901) ستدفعه معاداته للنزعة السيكلوجية إلى أن يجعل البنيات المنطقية تتمتع بحقيقة «في ذاتها» خوفاً عليها من أن تصبح عمليات ذهنية لذات تجريبية. وفيما بعد، سترتبط «موضوعات الفكر» بالوحي القصدي الذي يرمدها ويتجه نحوها. حينئذ سيصبح الوحي الترنسندنتالي هو الميدان الترنسندنتالي لتكوين كل موضوعات الفكر. وعند تأليفه لكتاب المعاني (1913) حتى كتاب التأملات الديكارتية (1929) (نشر سنة 1931) ظهر لهوسرل أن العلاقة بين أفعال الفكر وموضوعاته - وهي علاقة قصدية - كانت تستدعي، كمنبع ومصدر ومركز توحيد وتطابق، ذاتاً قادرة أن تنعكس على نفسها وتفكر فيها كأنها. حينئذ ستصبح وحدة «الأنا أفكر» أساساً لكل العمليات التي نلاحظ فيها تشكيل وحدة المعنى في تجلياته المختلفة. لن يعود «الأنا أفكر» إذن مجرد وظيفة وحدة أنا غير شخصي، وإنما وحدة أنا متفرد. ذلك أن ما شغل هوسرل أساساً هو مسألة التأسيس؛ إن سؤاله الأساس كان حول إمكانية وحدة معنى الموضوعات المنطقية، وكيفية الانتقال من الصوري إلى الترنسندنتالي.

لا يظهر إذن أن بإمكان الفينومينولوجيا، رغم إلحاحها على القصدية، ورغم تحديد لها للوحي على أنه خروج، أن تخرجنا عن فلسفات الكوجيطو. صحيح أنها قامت ضد كل نزعة سيكلوجية، وأن هوسرل «لم يدخر جهداً في أن يثبت أننا لا نستطيع أن نذيب الأشياء في الوحي» (4)، ولكن لا ينبغي أن نخلط بين فلسفة الذاتية

Sartre J.P. "Une idée directrice dans la phénoménologie de Husserl: l'intentionnalité". (4) in Situation I Gallimard, 1974, pp. 31 - 35.

وسيكولوجيا الوعي. فالذات ليست هي ما استشعره. إن القيام ضد النزعة السيكلوجية عند هوسرل، كان يتجه أساساً ضد إدراج الوعي ضمن كائنات الطبيعية. بيد أنه كان يصون الذات ويحفظها في صميميتها داخل المثالية الترنسندنتالية. فالذاتية الترنسندنتالية كانت تؤسس كل معرفة، والقصدية التي كان الوعي يتفتح عن طريقها، كانت تشكل كمحتوى الزمان المحايث «وفي نهاية الأمر فإن أفعال التفكير noemes وموضوعاته noeses القصدية كانت تتم داخل الوعي المتيقن من ذاته» (5).

لم تكن «القصدية» إذن كافية لتخرج الوعي عن ذاته ولا لتبعد الفينومينولوجيا الترنسندنتالية عن فلسفة الذاتية. ولكن ألم يهدد هوسرل، بالرغم من ذلك، إلى فكر من شأنه أن يقوض فلسفات الكوجيطو؟ صحيح أن الفينومينولوجيا ساهمت، كما يذهب لفيناس، في إنقاذ الإنسان والجهاز النفسي من وضعية الملل الطبيعية. ولكنها «ساهمت كذلك في تطهير الوعي نفسه مما كان يحدده كمجال لحالات الشعور؛ فالقصدية تفرغ الوعي من الشعور، وتجعل من هذا الفراغ علاقة لا تقتأ تتميز عن أطرافها وتجاوزها لتكون على استعداد كي تحدد ما يتحدد كموضع شعور» (6) إن القصدية أفرغت الوعي، وجعلته دون محتوى. فبفضلها «صفا الوعي، كما يقول سارتر، وأصبح واضحاً كريح شديدة. أصبح الوعي لا يشوبه شيء إلا حركته ليخرج من ذاته. وإذا حدث ما لا يمكن حدوثه ودخلتم «في» وهي ما، يأخذكم الدوار ويقذف بكم إلى الخارج، قرب الشجرة، وسط الغبار، لأن الوعي لا «داخل» له. ليس الوعي إلا ما فيه خارج، وإن هروبه الدائم هذا ورفضه أن يكون جوهر؛ ذلك هو ما يجعل منهوعياً. تصورو الآن سلسلة مترابطة من الانفجارات تنزعنا عن «ذواتنا» ولا تترك لذواتنا الوقت كي تتشكل خلفها، بل على العكس من ذلك، ترمي بنا من ورائها في غبار العالم الجاف، فوق الأرض الصلبة، وبين الأشياء، تصورو أننا ألقى بنا هكذا وقد أهملتنا طبيعتنا في

Levinas (E). Sans identité in *Humanisme de l'autre homme* Fata Morgana (5)
Montpelier 1972, Note, p. 109.

Blanchot (M). "L'Athéisme et l'écriture". in *N.R.F. N° 178* 1967, (6)

عالم عنيد يناصتنا العداء ولا يكثر بنا، عندئذ تكونوا قد أدركتم المعنى العميق للاكتشاف الذي يعبر عنه هوسرل بهذه العبارة العجيبة « كل شعور هو شعور ب... » (...) إذا حاول الوعي أن يعود إلى ذاته ويتحد معها وينفلق على نفسه انعدم (7).

الظاهر إذن أن الفينومينولوجيا، حتى إن لم تغادر أرض الكوجيطو، فإنها تمهد لتقويض الأسس التي قامت عليها فلسفات الذاتية سواء « في شكل النزعات التجريبية النقدية » أو « الكنتية الجديدة ». يتضح لنا هذا أشد الوضوح عند الفيلسوف الفينومينولوجي الذي استطاع، وربما لوحده وفي ظروف لم تكن يسيرة، أن يدخل في حوار مع فلسفات اللاوعي، كالماركسية والتحليل النفسي. ذاك هو الفيلسوف الفرنسي م. ميرلو بونتي الذي كتب، وبالفصط، تمهيداً لكتاب حول « أعمال فرويد »: « كلما مارسنا الفكر الفينومينولوجي، وكلما ازددنا اطلاعاً على مشروع هوسرل، بفضل ما ينشر من أعماله غير المعروفة، ازداد تمييزنا لها دقة من فلسفة الوعي الجديدة التي كان يعد بها في البداية (...) كلما تقدم هوسرل في تحقيق برنامجيه، فإنه يكشف عن جوانب الوجود التي تعرقل غو إشكاليته: فلا الجسم الذي هو ذات - موضوع، ولا انسياب الزمن الداخلي الذي ليس منظومة من وقائع الشعور، ولا الآخر الذي يصدر عني كجزء مني، ولا التاريخ، الذي هو حياتي في الآخر، وحياة الآخر في، والذي هو، مثل الآخر، موضوع ينفلت مني، كل هذا لا يمكن أن يفهم كارتباط بين الوعي وموضوعاته (8) ».

لم يعد الوعي عند ميرلوبونتي يعرف بقدرته الانعكاسية، بقدرته على إدراك ذاته في شفافية حضوره لنفسه، إنه أصبح عملاً وجهداً. لذا فإن ميرلوبونتي قد

(7) سارتر: المرجع الأول للترك.

(8) Merleau - Ponty (M). Préface du livre de Hesnard l'oeuvre de Freud, Payot, 1960, pp. 7 - 8.

إن ميرلو بونتي الذي يلعب هذا اللعب هنا، كان قد كتب في المعنى واللامعنى: « إن كل إنسان، حتى ولو كان ماركسياً موعم أن يلعب مع ميكارو إلى القول بآلنا، إن كنا نعرف واقعة خارجية فشرطاً أن نعرف في أنفسنا عملية المعرفة ماتة وإن أي شيء في ذات لا يمكن أن يولفت ما لم يكن في الوقت نفسه شيئاً من ليلنا. وأخيراً إن المعنى الذي نجده فيه يتوقف على مصادقنا. لا يمكن لأي إنسان أن يرفض الكوجيطو أن يفكر الرعي ».

Merleau - Ponty. Sens et non sens, p. 138.

تخلّى في فلسفته الأخيرة عن لغة الذاتية (9). لقد انتقل الوعي عنده من اليقين ليصبح لغزاً، ولعل هذا ما يفسر تفتحه على فلسفات الشك من تحليل نفسي وماركسية.

يبدو إذن أن الفينومينولوجيا تفتح الطريق، إن لم نقل إنها تؤدي، إلى انتقاد فلسفات الكوجيطو، ولن يعمل هايدغر، تلميذ هوسرل، في «انتقاده» لفلسفات الكوجيطو، إلا على التصريح بما هو ضمني عند معلمه.

ولكن، لنعد من جديد لهذه الجدة التي يبرزها ميرلوبونتي هنا والتي ألح عليها سارتر فيما قبل. فهل الجديد في فلسفة هوسرل جديد فيها بما هي فينومينولوجيا أم بما هي ترنسندنتالية؟ أليس في إثبات البعد الترندنتالي للوعي ما يتنافى وكل جوهرية للأنا وكل امتلاء للكوجيطو؟ ألسنا نجد عند المثالية الترندنتالية كل ما أبتناه الآن بصدق «نقد» الكوجيطو؟ فالنقد الكنططي، كما أشرنا، لم يبق، هو أيضاً، من الذات إلا على الأنا كصورة فارغة، كضرورة منطقية تصاحب تمثلاتنا. وهذا لأن صورة الزمان «التي هي صورة الحس الباطني» لا تسمح بأي تمثّل جوهرية للأنا. فمنذ كانط لم يعد الكوجيطو جوهرية كما كان عند ديكارت، منذ كانط أصبح الكوجيطو فارغاً لا «داخل» له. ولكن، وهذا هو المهم، لا يعني هذا مطلقاً أن كانط قوض فلسفة الذاتية، وهو سيلقي في الأخلاق والعمل ما فقد في النظر وسيكون فقداناً للذات النظرية «على حساب انتعاش الذات الأخلاقية» (10).

إن تقويض فلسفة الذاتية لا يعني فحسب نقد الكوجيطو. «وفلسفة الذاتية لم تفتأ تتعرض للانتقاد منذ أن ظهرت، وليست هناك فلسفة واحدة للذاتية» (11). كما أن ذلك التقويض لا يعني إخراج الذات عن ذاتها فحسب. ولا يكفي أن نتحدث عن الجسم والغير والتاريخ لنكون خارج «الوعي». بل إن فلسفات الذاتية حاولت كلها، بعد أن أقامت الذات كأساس، أن تخرج عنها. يرى هايدغر أن مسألة «الإخراج» هذه لم تكن ممكنة إلا على أرضية تؤسسها فلسفة الذاتية. «فحينما

Cf. *Le Visible et l'invisible*, Oeuvre posth., Gallimard, 1963 (9)

Ph. Lacoue - Labarthe, J.L. Nancy. *L'Absolu littéraire*, op. cité. p. 44 (10)

Ricour (P). *Le conflit des interprétations*. Seuil, 1969, p. 233 (11)

أصبح الإنسان ذاتاً *sujet*، ويمقدار ما أصبح كذلك، صار في الإمكان أن تطرح بالنسبة إليه مسألة معرفة ما إذا كان يريد ويجب أن يظل مجرد أنا مجاني لا يخضع لأي ضرورة، أم «نحن» ينتمي إلى المجتمع، وما إذا كان يريد ويجب أن يظل منزلاً أم ينتسب إلى مجموعة بشرية، وما إذا كان يريد ويجب أن يكون شخصاً داخل معشر أم مجرد عضو ينتمي إلى مجموعة في إطار «جسم اجتماعي»، وما إذا كان يريد ويجب أن يوجد كدولة وأمة وشعب أم إنسانية عامة للإنسان الحديث، أما إذا كان يريد ويجب ألا يكون ذاتاً إلا ككائن حديث فهو كذلك، فحينما يكون الإنسان في ماهيته ذاتاً حينئذ وحينئذ فحسب، تطرح إمكانية الإغراق في نزعة ذاتية فردانية. ولكن إلى جانب ذلك، لا يكون للنضال ضد الفردانية، دفاعاً عن الجماعية كمجال وغاية لكل مجهود، من معنى إلا حيث يظل الإنسان ذاتاً» (12).

كل المسائل الفلسفية التي عرفتھا الفلسفات الفينومينولوجية والوجودية والشخصانية لإخراج الذات عن ذاتها، مثل مسألة الغير والتاريخ والجسم، لم تكن لتطرح إلا لأن تلك الفلسفات كانت فلسفات كوجيطوا فالإخراج لا يكون إلا حيث تقوم الدواخل. على هذا النحو، مثلاً، ينبغي أن نفهم عبارة سارتر معلقاً على هوسرل: «كل شيء موجود في الخارج، كل شيء، حتى نحن أنفسنا، في الخارج، في العالم، بين الآخرين. إننا لا نكتشف أنفسنا في عزلة ما، بل في الطريق، في المدينة، وسط الجماهير، شيئاً بين الأشياء، أناساً بين البشر» (13). بل على هذا النحو أيضاً ينبغي أن نفهم كل الانتقادات والتنقيحات التي عرفتھا فلسفة الكوجيطو ابتداء من ديكرت عبر كانط وفيشنه وهيجل حتى هوسرل... وسارتر، بل على هذا النحو ينبغي أن نفهم حتى الفلسفات المضادة لفلسفة الكوجيطو والتي قامت ضد الفردانية التي تؤدي إليها تلك الفلسفة لتؤكد على فلسفة جماعية. إن هذه المواقف المضادة ليست إلا محاولات لتغيير مدلول الذات *sujet*، فبدل أن تكون تلك الذات فرداً قد تصبح طبقة أو أمة أو دولة أو مجتمعاً بكامله: «فكل نزعة قومية هي، على مستوى

الميتافيزيقا، نزعة أنتربولوجية، وبما هي كذلك فهي نزعة ذاتية (...). النزعة الجماعية هي ذاتية الإنسان على مستوى الكلية، وهي الصيغة المكتملة لتأكيد هذه الذاتية» (14).

إن معرفة ما إذا كانت فلسفة ما «تغادر بالفعل أرض الكوجيطو» تقتضي أن نسألها كيف يتعين عندها الوجود وكيف تفهم ماهية الحقيقة؟ لا أن تتساءل ما إذا حاولت أن تخرج عن الذات والوعي لتتعمق «بالجسم والغير والتاريخ»، بعد أن تضع الذات أساساً. إن الكيفية التي يتعين بها الوجود وتدرك بها ماهية الحقيقة هي التي تحدد عصور العالم. ونحن نقول إن ديكاوت أقام فلسفة الكوجيطو «لأن الوجود تعين عنده، ولأول مرة، كموضوع للتمثل، ولأن الحقيقة تحدت كيقين للتمثل» (15) وليس هذا بالأمر اليسير، «إذ أن ماهية الإنسان نفسها ستتحول (...) ويصبح الإنسان مركزاً ومرجعاً للوجود بما هو كذلك. ولكن هذا لم يكن ممكناً إلا شريطة تحول معنى الوجود رأساً على عقب. (...) لقد أصبح ينظر إلى الوجود في كليته على أنه لا يوجد حقاً ولا يكون موجوداً إلا إذا كان موضع تمثيل وإنتاج (...) أصبح يبحث عن وجود الوجود ويبحث عليه في الوجود. المتمثل للوجود» (16). مع ديكاوت ابتدأ اكتمال الميتافيزيقا الغريبة. والميتافيزيقا الحديثة بكاملها لن تحيد قط عن تأويل الوجود الذي أقامه ديكاوت ولا عن تأويله للحقيقة (17). لقد أصبحت الفكرة موضع تمثيل وصارت المعرفة تقوم في وضع شيء ما أمام الذات وانطلاقاً من الذات. بهذا خرجت الميتافيزيقا الديكاوتية عن الميتافيزيقا التقليدية لتصبح ميتافيزيقا ذاتية بحيث يكون الوجود بمقتضاها وجوداً يعطى لذات وتمصيح الذاتية أساس الوجود. صحيح أن هذه الفلسفة ستعرف بعض التحولات كما أن الكوجيطو،

Heidegger (M). Lettre sur l'humanisme, in Questions III. Gallimard, 1966, p. 118 (14)

Heidegger. Chemins. op. cité. p. 114 (15)

انظر كلامه :

Heidegger. Nietzsche II. p. 155.

حيث يقول «تتميز الذاتية انطلاقاً من ماهية الحقيقة كيقين، ومن الوجود كتمثل».

Heidegger. Chemins. op. cité. p. 114 (16)

Ibid. (17)

كما سبق أن قلنا، سيخضع لتعديلات وتقويمات «إلا أن التغيرات الجوهرية التي لحقت الموقف الديكارتي الأساس، والتي عرفها الفكر الألماني ابتداءً من لايبنتز، لم تتجاوز قط هذا الموقف بأي شكل من الأشكال. بل إنها عملت، على العكس من ذلك، على توسيع حمولته الميتافيزيقية واضعة بذلك الشروط التي سيعرفها القرن التاسع عشر (...) إنها عملت على تدعيم الموقف الديكارتي الأساس واتخذت أشكالاً جعلتها لا تعرف بكل سهولة» (18).

الظاهر أننا لا نستطيع أن نقول الشيء ذاته عن هيجل، فمعروف أن الحركة الجدلية للفكر ليست عند هيجل مجرد تعاقب لتمثلات وهي الإنسان، تمثلات يمكن أن تكون محل ملاحظة سيكلوجية. بل إن الحركة الجدلية هي حركة الوجود في كليته. كما أن الفكر ليس فكر إنسان بعينه، إنه لا يدور في دماغ فرد بعينه ويجول بخلده. إن الفكر، عندما اتخذ بعداً جدلياً، لم يعد تمثلات سيكلوجية. وحينما تتمثل الفكر كقدرة بشرية فإن ذلك مجرد تجريد. الفكر هو الذي يحدد وجود كل قدرة سيكلوجية. وهو فكر تاريخي لا يكون وليد لحظة بعينها. ذلك أن هيجل لا يكتفي بأن يفسر الفكر عن طريق «تأويلات سيكلوجية أو بالاجوء إلى نظرية المعرفة» (19). إن قوانين الفكر، بما هي قوانين الجدل، هي قوانين الوجود. «فالوجود هو الفعل المطلق للفكر الذي يفكر في ذاته. والفكر المطلق يشكل وحدة حقيقة الوجود. إنه وحدة الوجود» (20). هل يعني هذا أن هيجل يخرج الفكر عن كل ذات مفكرة؟ هل يعني أن المثالية المطلقة تفادى «الأرض التي عينها أبو الفلسفة الحديثة»؟ هل يخرجنا الجدل الهيجلي من فلسفة الذاتية؟ هل يتجاوز الميتافيزيقا؟

عندما يحاول هايدغر أن يجيب عن هذه الأسئلة، ليشق «طريقته نحو فكر يعيد النظر في الفكر»، ينطلق من سؤال الفكر ذاته ويبدأ بالتساؤل عما نعنيه عندما نتحدث عن «قوانين الفكر ومبادئه». وعند استنطاقه لهذه العبارة يكشف هايدغر أنها تدل على أن الفكر يخضع في فعالياته لقوانين تضبطه. الفكر موضوع

Ibid. p. 129 (18)

Heidegger. Identité et différence in Questions I (19)

op. cit. pp. 277 - 8 (20)

هذه القوانين، والقوانين هي قوانينه. إلا أن أمراً آخر سرعان ما يتجلى وهو أن قوانين الفكر هي صور أساسية للفكر، ومبادئ الفكر من هوية وعدم تناقض هي قضايا يصوغ بفضلها الفكر صورته. فهذه المبادئ إذن موضوع للفكر، ولكن هذه المرة بمعنى أن الفكر يضعها. إنها من وضعه. الفكر هو الذات التي تضع هذه المبادئ.

يتضح مما سبق أن الميتافيزيقا، عندما تتحدث عن مبادئ الفكر، فهي لا تعني بحسب أن الفكر موضوع لتلك المبادئ وإنما فاعلها وواضعها الذاتي. وهذا ما أوضحه كانط، بعد ديكارت، عندما بين أن كل فكر هو في جوهره كوجيطو، وأن الفكر يفترض دوماً وحدة الأنا - أفكر. إن كل تفعل، بما هو كذلك، يعود إلى وحدة الأنا - أفكر. وبالنسبة لكل فكر يكون الأنا في أنا - أفكر واحداً بالنسبة لذاته. في وحدة مع ذاته. يكون ذاتاً.

هذا ما أقره فيشته في سيفته الشهيرة أنا = أنا. إن هذه القضية في نظر فيشته لا تشكل فحسب صورة خاصة من الصور اللامتناهية التي يتخذها مبدأ الهوية وتتخذها القضية أ = أ كأن نقول كتاب = كتاب، شجرة = شجرة. بل على العكس من ذلك إن القضية أنا = أنا هي إثبات لفعل الأنا أي للذات التي توضع بفضلها القضية أ = أ وتؤسس. فالقضية أنا = أنا هي التي تؤسس أ = أ. الأولى أكثر اتساعاً من الثانية لا العكس.

وهكذا إن توقفنا عند قوانين الفكر كما كرستها الميتافيزيقا لنسألها سرعان ما نتبين أن الفكر ليس فحسب موضوعاً تنطبق عليه قوانين ومبادئ وإنما هو ذات تضع تلك القوانين وتؤسسها. والأهم من ذلك أن الفكر الجدلي، كما أقامته المثالية الألمانية عندما حاول «تفجير» تلك القوانين لتعني أكثر مما تقول لم يفجرها بما فيه الكفاية ولم ينقلها من الأرض التي بذرت فيها ولا من الشجرة التي ترعرعت فيها. ذلك أن الجدول لا يخرجنا من فلسفة الذاتية. وهيجل، عندما يوحد الفكر والوجود يردّ الوجود إلى موجود أسمى هو المطلق ليجعل المطلق ذاتاً.

إن هيجل يحدد الوجود بالذاتي لا العكس. إنه يجعل الذاتي علامة من علامات الوجود ويضع مبدأ الذاتية كمبدأ للفكر والوجود. وهذا أساساً لأنه يضع

ذاتية بين الفكر والوجود ويوحد بينهما في ذات واحدة. وعندما يطلق على مبحث الأنطولوجيا منطقاً، فذلك لأنه يعين الوجود موضوعاً للفكر. ولأن الوجود وحده يمكن أن يؤخذ كأساس، وهذا من شأن الفكر أن يحققه بفضل قوة الفهم والتوحيد (ليجين) التي تميزه. «وإلا فكيف أمكن للوجود أن يمثل من حيث هو الفكر؟ اللهم لكون الوجود يتعين مسبقاً كأساس، ولكون الفكر من جهته يرى الوجود كأساس» (21). إذا كان الجدول الهيجلي منطقاً فذلك لأن موضوع الفكر هو الوجود ولأن هذا الأخير، منذ أن تحدد كأساس ولوغوس أصبح يستدعي الفكر بما هو مؤسس.

الوجود في الجدول الهيجلي هو إذن موضوع للفكر. إنه ما يضعه الفكر كأساس. وإذا كان الوجود أساساً فالفكر تأسيس. الفكر «ينظر» إلى الوجود كشيء وعلة أولى. إنه «النظر» إلى الوجود كأساس مطلق لإقامة كل موجود على أساسه ووضعه كعلة أولى لكل الموجودات، كموجود يؤسس الموجودات.

إن هيجل ظلّ وفياً لديكارت، حتى وإن كان يدعي أنه «غادر أرض الكوجيطو». فالمعرفة المطلقة عند هيجل تجعل من الفكر تمثلاً «يؤسس الموجود، بما هو كذلك، ويطبقه على أساس الوجود المطلق» (22) وهي لم تحد عن فلسفة الذاتية؛ «ذلك أن التمثيل الهيجلي يجعل الموضوع ماثلاً وحاضراً عندما يستحضره أمام الذات. وفي هذا التمثيل نفسه تمثل الذات لذاتها» (23). المطلق ذات تفكر في نفسها وتعني بالنسبة لذاتها، وهذا في المعرفة المطلقة وعن طريقها. المطلق عند هيجل هو الفكر «أي ما هو ماثل بالقرب من ذاته في يقين معرفته بذاته» (24). والمعرفة المطلقة هي «ذاتية الذات كيقين مطلق» (25).

المعرفة المطلقة نفسها لم تحد عن فلسفة الذاتية ولم تتنكر للتحديد الذي أعطاه ديكارت للموجود كتمثيل وللحقيقة كيقين. صحيح أن موضوع الوعي سيتخذ بعداً تاريخياً، كما أن الفكر سيقتني بالواقع ولن يبقى «فكراً مجرداً بسيطاً بعيداً

Ibid. p. 279 (21)

Ibid. p.p. 291 - 2 (22)

Heidegger. "Hegel et son concept de l'expérience" in Chemins, op. cité, p. 164 (23)

Ibid. p. 159 (24)

Ibid. p. 164 (25)

عن الواقع»، وأن الأنا سيحتاج إلى توسط ليرتد إلى ذاته، ولكن كل هذا لم يؤد إلى تحويل الموقف في جوهره، ولم يطرح إلا لأن الإنسان أصبح ذاتاً، ولأن الموجود أصبح موضوع تمثّل. فليست مجاوزة الديكارتية زحزحة الكوجيطو وتعديله «إن ديكارت لن يتجاوز إلا بمجاوزة ما أقامه، أي مجاوزة الميتافيزيقا الحديثة. أي الميتافيزيقا، إلا أن المجاوزة هنا تعني طرح مسألة المعنى في أصوله» (26).

لن تتم مجاوزة ميتافيزيقا الذاتية إذن بإخراج الذات عن ذاتها، نحو الغير والتاريخ والعالم، وإنما بإخراج المعرفة عن اليقين، والمعنى عن التمثّل والمثول والحضور. إنها لن تتم إلا بإعادة النظر في منطق المعنى.

لا عجب إذن أن نلغي التفويض الفعلي لفلسفات الكوجيطو عند كل المواقف التي ربطت انتقادها للكوجيطو بانتقاد مجال إنتاج المعاني. فعندما تعرف البيوية اللغة كمنظومة بلا «حدود» ولا «ذات» ولا «أشياء» (27) فإنها تشكل تحدياً كبيراً بالنسبة لفلسفة الذات. ذلك أنها، على عكس الفينومينولوجيا، تضع إشكالية المعنى كلها بعيداً عن تصدية الذات. إن اللغة عندها منظومة مخلقة مكتفية بذاتها. وهي ليست واسطة وأداة، ليست وسيلة تعبير. ليست الرسالة والخطاب تعبيراً عن تجربة ذاتية وإنما هو بالأحرى تعبير عن إمكانيات وحدود الشفرة code المستعملة.

إن اللغة هي التي تتكلم. والمعنى قد يتولد عن اللامعنى. لهذا فمن الخطابات ما يؤكّد المعاني الشربة حتى وإن بدأ بلا معنى كالخطاب الشعري.

كما أن الظواهر الثقافية منظومات من العلامات لا تكثرت بالمعيش الذي يحياه الأفراد مثلما لا تكثرت ظواهر اللغة بالذات المتكلمة. يقول لينني ستروس:

Tbid. p. 130 - 131 (26)

(27) يمكننا أن نجعل الموقف البيوي من اللسان في تلك الحالة :

1 - اللسان منظومة من الاختلافات. بدون حدود مطلقة. والمساواة بين اللفظيات الصوتية هي واقع اللسان الذي يندر بفعل ذلك من غير مادة جوهريّة لا طبيعية ولا ذهنية.

2 - لا تتوقف الشفرة للتحكم في المنظومات على الذات المتكلمة وإنما هي بالأحرى التضخيم القولي الذي يسمح بممارسة الكلام من طرف اللفظ الذين يستعملون اللسان.

3 - الدال نفسه يتكون من اختلافات. ولا يستعني الدال أية علاقة خارجية لذا فإن اللسان، والحالة هذه، منظومة بلا محدد، ولا نتائج ولا طائفة.

« إن اللغة عقل إنساني له حججه وقواعده التي لا يعرفها الإنسان » (28). بهذا المعنى فإن الذات مفعول للغة وليست فاعلاً متحكماً فيها.

لقد بين فرويد أن الوعي عرض من الأعراض وأنه مكان مفعولات المعاني، كما اكتشف في الإنسان مجالاً ذاتياً يتجاوز التنظيم الفردي. وقد أوضح لاكان أن الذات ليست « ذاتية » إلا في مجال معين من بنيتها، وهو المجال الذي يكون فيه للذات صورة عن نفسها. أي مجال الأنا. لكن الذات لا تنحصر في الأنا، وإنما هي البنية الرمزية التي تنظم الكل. ولن يعود الأنا إلا طرفاً من العناصر التي تدخل في تكوين الذات وبناء مستوى الخيال. إن الذات ليست نقطة متفردة وإنما هي بنية معقدة ومجال شاسع يستغرق كل العناصر بشكل يصير معه « الأنا » منطقة انعكاس لجزء من الذات ضمن لعبة مرآوية سيطلق عليها لاكان اسم « المستوى الخيالي ». إن الذات هي حامل مفعولات اللاشعور، ذلك أن اللاشعور يظل في نهاية المطاف هو هذه الذات التي يجهلها الأنا. وقد بين فرويد في عدة مناسبات بأن الكبت ليس المجال الوحيد الذي يكون مسكوناً باللاشعور، فأغلب القطاعات التي تكون المعرفة الواعية تظل في حالة تكتم لاشعوري. يقول فرويد: « كل ما هو مكبوت يظل بالضرورة لاشعورياً، غير أننا نتشبه بافتراض أن المكبوت لا يستغرق اللاشعور كلية. فاللاشعور ذو امتداد واسع، أما المكبوت فهو جزء من اللاشعور » (29).

تتمخض قراءة فرويد إذن عن كوجيطو عاجز أن يمتلك ذاته، إنه كوجيطو جريح لا يدرك حقيقته إلا عبر وهم الوعي المباشر وخداعه ولا تطابقه.

Levi-Strauss. La pensée sauvage, op. cité, p. 334 (28)

يقول بلاتشو:

« نستخلص من الملاحظات السابقة حول اللغة نقلاً أساسية. وإسل أهمها هي الخاصية الانشائية للغة، ووجودها المستقل المطلق الذي تحدث عنه المارسي. فهذه اللغة كما تبتنا. لا تقترض أي شخص يتكلمها ولا أي شخص يسمعها. إنها تكلم ذاتها وتكتب نفسها. وذلك هو شرط سيادتها. والكتاب هو رمز هذا الوجود المستقل. إنه يتجاوزنا ولا حول لنا ولا قوة أمامه. ولأن كانت اللغة تتعلم من الإنسان وتعلمه عن الأشياء. لذا لم تعد فعل شخص يتكلم اتجاه من يسمعه، فهناك ماذا نعت بالنسبة لمن يسمها على هذا التصور سحرية. إنها نوع من الوعي من غير ذلك، انفصل عن الكائن. رغداً هو نفسه انفصلاً رغبياً وقدره لا متناهية على خلق الفراغ ».

Blanchot (M). La part du feu, Gallimard, 1972, p. 48.

Freud. "L'inconscient" in Métapsychologie, trd. La planche et Pontalis, Idées / (29)

Gallimard, 19, p. 65.

إن الفلسفة المعاصرة، كما بين فوكو، ترمي إذن إلى اقتفاء كل القوى الغامضة التي حركت الإنسان وأقامت خارج محيط التمثل والاستحضار. وما هذا إلا واحد من بين المؤشرات التي دلت على إمكانية التفكير في ما اعتبر غير قابل للتفكير فيه. نحن إذن أمام عالم جديد بعيداً عن أرض الكوجيطو لنتاد آفاقاً خارج المباشرة والاتصال ونتابع تلك الأفكار التي توجد خارج دائرة التفكير، وتلك القوى الملموسة في غياهب النسيان، وتلك اللغة التي تسبق الذات وتفعّل خارج كل رقابة شعورية. نحن إذن، بتعبير فوكو، أمام « كوجيطو معاصر » أضحى يطرح على الفلسفة أسئلة من نوع جديد: « ماذا يتعين عليّ أنا الذي أفكر وأشكل تفكيري، لكي أكون ذلك الذي لا أفكر فيه، ولكي يكون تفكيري غير ما أنا عليه؟ » (30). نحن إذن أمام لعبة الخفاء والتجلي التي تطبع الحقيقة، حيث لا يحضر المعنى إلا في اختفائه وتواريه. فما هو « المنطق » المتحكم في هذه اللعبة؟ وما الذي يميز الاختفاء هنا عن الاختفاء الميتافيزيقي الذي ظلّ يطبع مفهوم الحقيقة؟ هذا ما سنحاول أن نجيب عنه في الفصل اللاحق.

الفصل الثامن

الحَقِيقَةُ وَالْخَطَأُ

«ربما كان علينا أن نُمجِّد تمجيداً أكبر الحفصة والوقار الذي يطبع الطبيعة ويجعلها تستر وراء اللز وعدم اليقين. ربما كانت الطبيعة امرأة تعرف لماذا لا تفصح عن أسسها ودوافعها؟ (...) عجباً لهؤلاء الإغريق! لكم كانوا يعرفون أسباب العيش. إن ذلك يستلزم البقاء على السطح، في ثنايا القوب، عند القشرة والبشرة. إنه يقتضي عبادة المظهر والإيمان بالشكل والأصوات والكلمات، الإيمان بأولب المظهر. هؤلاء الإغريق كانوا سطحيين... من شدة همهم.

فما، نيتشه

ليس من شك أن الفكر الجدلي غير منزلة الخطأ والمكانة التي كانت تعطى له. فإذا كان اليونان قد تحدثوا عن قوة خداع كونية تناهض الحق، وتوقع الإنسان في مهاوي الخطأ والفساد هي قوة «الهيبريس» التي كانت وراء سقوط أثينا واضمحلالها، وإذا كانت الفلسفات الدينية تضع الشيطان مصدراً لكل شر وضلال،

وإذا كانت العقلانية الديكارتية فرضت وجود شيطان مآكر يخدع العقل ويغشه، فإن الخطأ هنا لم يكن من القوة بحيث يصمد ويستمر في الوجود. فقد كانت هناك دوماً لحظة يرتفع فيها ويقهر. وحتى الفلسفة الديكارتية التي جعلت الخطأ من صميم الفكر ووضعت في العقل ذاته قدرات تعوقه عن المعرفة اليقينية، بحثت عن وسيلة رفع الخطأ والقضاء عليه، قرأت في اتباع قواعد المنهج ما من شأنه أن يجعل العقل سليماً لا تعوقه عوائق الحس ولا الخيال ولا الذاكرة.

الظاهر أننا لا نستطيع أن نقول الشيء ذاته عن كانط. ففيلسوف كوكسبرغ جعل الوهم يسكن العقل ذاته، وأعطى لشر المعرفة وجوداً فعلياً لا يقوى على رفعه الاستنجاد بمعارف حدسية أو قواعد منهجية. إنه ما يجعل العقل يضيع في أوهام ويجادل، هناك خطيئة أصلية للعقل هي خطيئة الميتافيزيقا. فإن كان يتناقض ويجادل فليس ذلك بفعل قوى خارجية. يقول هيغل: «إن كانط أعلى من شأن الجدل. وهذا ما يشكل أكبر حسناته. فهو قد نزع عنه مظهر الوجود الاعتباري الذي كان التصور التقليدي يضيفه عليه، وعرضه كفعالية ضرورية للعقل» (1). الظاهر إذن أن كانط رفع الوهم والخطأ إلى مستوى الوجود الضروري، وجعل التناقض من صميم العقل ذاته. إلا أنه، بالرغم من ذلك، لم يرق به إلى مستوى التاريخ. وهذا بالضبط هو ما يأخذه عليه هيغل: «لبقدر ما كانت فكرة سطح عميقة، بقدر ما كانت الحلول التي أعطيت للتناقض حلولاً سطحية، لقد شمر كانط بنوع من الحنان أمام العالم واعتقد أن التناقض سيكون وصمة عار على جبينه، وأن العقل هو الذي ينبغي أن ننسب إليه التناقض (...) في حين أن النقطة الأساسية التي ينبغي أن ننتبه إليها هي أنه لا توجد أربع تناقضات فحسب، بل إن التناقض في جميع الموضوعات مهما كانت طبيعتها، مثلما أنها في جميع تمثلاتنا وأفكارنا ومفاهيمنا» (2). ليس الانخداع إذن كامناً في العقل. إنه يوجد على مستوى التاريخ والكائن والعقل الكوني. الحقيقة والخطأ ليسا خصائص خطاب. كما أنهما ليسا يقيناً ذهنياً. وليس المنطق قواعد صورية تتحكم

(1) Hegel, Morceaux choisis. Trd. Lefebvre et Gueterman, T. 1. Idées / Gullimard, (1)

1969, p. 78.

Ibid. (2)

في القول أو تضبط العقل المجرد . إنها قوانين الوجود بأكمله . المنطق أنطولوجيا . والتاريخ مسرح الخطأ . إنه ليس تقدماً خطياً لإنسانية لا تفتأ تسعد وترضى عن مصيرها . ذلك أن الفكر الجدلي تجاوز بكثير المفهوم المطلق الذي أشاعته الأنوار عن التقدم . فالفكر المطلق الذي يظهر في التاريخ ليس مجرد تحقيق إنسانية راضية حكيمة . صحيح أن التاريخ صيرورة للعقل المطلق والحرية الحققة للفكر . بيد أن العقل ليس هو العقل المجرد الذي لدى الأفراد ، والذي يعكس بطبعه الحقيقة في صحتها . وليس هو مختلف الآراء الشخصية وما لدى الأفراد من وعي بذاتهم . ذلك أن هذه ليست إلا لحظات للتاريخ . وهي أدنى أن تريد ما تكون . إنها في خدمة ما يتجاوزها ، فإن كانت تحقق بشكل أو بآخر معنى التاريخ ، إلا أنها لا تقرر ذلك المعنى . لأنه هو المطلق ، ولأنه موضوعي بقدر ما هو ذاتي . إنه جوهر التاريخ العام . وبالرغم من ذلك ، فلا وجود له إلا عن طريق وعي الأشخاص الذين يكونون أدوات في يد المطلق .

وهكذا فإن الإنسان الفرد ، بما هو كذلك ، يحقق تاريخياً غير ما يعتقد أنه يريد ، حتى وإن كان ما يحققه بالفعل ليس غريباً عنه تمام الغربة . بهذا المعنى يتكلم هيجل عن مكر للعقل في التاريخ . بيد أن هذا لا يعني أن الإنسان في أيدي قوى خفية تفعل به ما تشاء . إذ لا وجود للمطلق إلا في الإنسان . ولا يتعلق الأمر مطلقاً بشر أخلاقي كوني أو خطيئة أصلية بالمعنى الديني . يقول هيجل : « في التاريخ العام ينتج عما يقوم به الأفراد غير ما سموا نحوه ويلفوه ولا علموا به أو أرادوه مباشرة . إنهم يحققون مصالحهم ، لكن ، يحدث في الوقت ذاته ، أمر يظل مستترا لا يدركه وعيهم ولا ترقى إليه أنظارهم (...) . فالعمل المباشر يمكن أن يسع أكثر مما يتجلى في إرادة صاحبه ووعيه . إن جوهر الفعل ، وبالتالي الفعل ذاته ، يتردد ضد صاحبه ، ويصبح بالنسبة إليه صدمة تقضي على الفعل وتلغيه » (3) . صحيح أن هناك من يقع على الضرورة التاريخية . هؤلاء هم عظماء التاريخ الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف ، والذين تضم مقاصدهم الخاصة العامل الجوهري الذي هو الإرادة العامة . على

Hegel. La raison dans l'histoire, Introduction à la philosophie de l'histoire, (3)

Trad Papaïounou U.G.E Coll 10 / 18, Paris 1965, pp. 111 12.

هؤلاء، ينبغي أن نطلق لقب الأبطال. لأنهم استقوا مراميهم ومطامحهم، «لا من المجرى الطبيعي الهادئ المنتظم للحوادث (...)»، ولكن من منبع مازال محتواه خفياً لم يبلغ الوجود الحالي». هذا ما يجعل المطلق يسكن بجوارنا بالرغم منا، ومع ذلك فلا وجود له من دوننا.

تعطي الميتافيزيقا المكتملة إذن مكانة للخطأ. وهي تعتبره لحظة هامة في بناء الحقيقة. والعقل عندها لم يعد مجرد نور يعكس بطبعه الحقيقة في صحتها. وهو لا يرقى إلى الصواب إلا عبر مزالق الخطأ.

جل الذين حاولوا مجاوزة الميتافيزيقا وقفوا عند هذا المفهوم عن العقل وعند ما يعنيه هيجل بـ مكره. إلا أنهم اختلفوا في تأويله، كما اختلفوا في فهم الفكر المطلق؛ ذلك أن فلسفة هيجل، رغم إلحاحها على المنظومة والنسق، لم تكن لتخلو من التباس. إذ يمكن أن تجد امتدادها في اتجاهين متباينين: فلسفة في التاريخ تؤدي إلى نزعة إنسانية بالمعنى الذي سيعطيه كل من فويرباخ وماركس (على الأقل في مؤلفاته الأولى)، وهي تتجلى أساساً في كتاب فلسفة الحقوق حيث تكون الفكرة هي الإرادة الكلية للدولة، والدولة هي محقق التاريخ؛ أو فلسفة المعرفة المطلقة التي تنتهي إلى كتاب المنطق. في المنحى الأول يكون الإنسان مقياس الأشياء والفاعل التاريخي الأساس. أما في المعرفة المطلقة فلا يكون إلا صدى لمنطق التاريخ ناطقاً باسمه. في الحالة الأولى يكون الإنسان مسؤولاً عن غوايته، أما في الأخرى فإن الانخداع خطيئة ولعنة يقع الإنسان تحت نيرها.

لا يعني هذا أن هؤلاء المفكرين انقسموا قسمين، كل اتخذ منحى خاصاً من المنحيين. إذ أننا نلقيهما عند المفكر ذاته حسب مراحل تطوره الفكري (هذه هي حال ماركس كما يذهب ألتوسير). ولكن ما يهمنا هنا أن جل الذين نحتوا نظرية عن الوعي الخاطئ والاستلاب والاختراب والإيديولوجية، أخذوا فكرة مكر العقل ليطوروها في سياق المنحى الأول، وأعني في إطار فلسفة تاريخانية إنسانية النزعة. فلم يتجهوا إلى النسق والمعرفة المطلقة، وإنما إلى أعمال الشباب ليجندوا فيها تمهيداً للفلسفة الوجودية أو الماركسية الإنسية. وانطلقوا من فلسفة التاريخ ليجعلوا من

المطلق أمراً في متناول الإنسان وغاية للتاريخ البشري - ورغم أن كتاب فينومينولوجيا الروح يمزج بين الاتجاهين (حيث يبين هيجل أن المعرفة المطلقة لا تظهر إلا في التاريخ وبفضله)، فقد اتجهوا إليه أساساً باعتباره علماً لظهور العقل، وتاريخاً للوعي البشري وهو يرقى نحو المعرفة المطلقة. أي باعتباره نظرية في الوعي. لذا استوقفهم فصله عن الوعي الشقي واجدين فيه واقع الوجود البشري. ولم يكن هذا الأمر وقفاً على الفكر الفرنسي (أعمال جان فال 1929 ودروس كوجيف 33 - 1939 وأعمال هيبوليت 46 - 1947 وهنري لوفيفر). بل إننا نجد عند هيرم من حاول بناء مفهوم الاستلاب والإيديولوجية، وخصوصاً عند الماركسيين المجريين، وعند لوكاش على الأخص (الذي يهدف في كتابه عن أعمال الشباب عند هيجل 1948 إلى إبراز البعد الإنساني التاريخاني لفكر هيجل الشاب). سيحاول هؤلاء أن يترجموا الفكر المطلق إلى هذه اللغة الإنسية. وسيقول فويرباخ إنه الإنسان الفرد، وسيقول لوكاش إنها الإنسانية في كليتها وهي ترمي إلى تحقيق مساعيها الأساسية. إلا أنهم سيعتبرون جميعهم أن نظرية الحقيقة والخطأ هي نظرية الإيديولوجية، وأن هذه نظرية في الوعي، وأن الإيديولوجية وهي مغلوطة وأوهام لا واعية. كما أنهم سيقولون إن الأوهام تتولد عن خلط بين عصور التاريخ وعدم احترام لمراحل تطوره. ومجمل القول إنهم يقيمون نظريتهم في الحقيقة والخطأ على نظرية الوهم، ويقيمون هذه على فلسفة تاريخانية تقوم في النهاية على الكوجيطو.

لعل هذا هو ما يفسر هجوم مفكر مثل ألتوسير على النزعة التاريخانية والإنسانية، وحرصه على تطهير مفهوم الإيديولوجية من الرواسب التي علق بها بفعل الإشكالية التي نحت داخلها. يقول مثلاً، وبالضبط في مقال تحت عنوان لا يخلو من دلالة، «الماركسية والنزعة الإنسانية»: «تعودنا أن نقول إن الإيديولوجية تنتمي إلى منطقة «الوعي». ينبغي أن نحترس من هذه التسمية التي لم تزل محتفظة بآثار الإشكالية المثالية السابقة على ماركس. الحقيقة أن الإيديولوجية لا شأن كبير لها بـ «الوعي»، هذا إذا اقتربنا أن لهذا اللفظ معنى واحداً (...). صحيح أن الإيديولوجية منظومة من التمثلات، بيد أن هذه التمثلات لا صلة لها بـ «الوعي»،

إنها في أغلب الأحيان صور، وأحياناً تصورات، لكنها لا تفرض ذاتها على معظم الناس إلا كبنيات دون أن تمرّ بـ «وعيم». إنها موضوعات ثقافية تدرك وتقبل وتعاين وتعايش، تتفعل فعلها في البشر عبر مسلسل يفلت من أيديهم. إن الناس يحيون إيديولوجيتهم مثلما كان معتق الديكارتية يرى، أو لا يرى، القمر على بعد مائتي قدم منه؛ ليس كشكل من أشكال الوعي، وإنما كموضوع من موضوعات عالمهم، بل كما لهم ذاته» (4).

بل إن ميشيل فوكو يعلن صراحة رفضه لمفهوم الإيديولوجية بالضغط لما علق به من جراء الإشكالية الإنسية الميتافيزيقية التي نحت داخلها. يقول: «تبدو لي صعوبة استخدام مفهوم الإيديولوجية راجعة لأسباب ثلاثة: أولها أنها تقابل دائماً، شيئاً ذلك أم أيّناه، شيئاً مثل الحقيقة. (...) ثانيها أنها تحيل بالضرورة إلى ما يقوم مقام الذات. وأخيراً فإن الإيديولوجية هي على الدوام في موقع ثان بالنسبة لشيء، يشكل قاعدة وبنية سفلى» (5).

نستطيع أن نقول إن فوكو يجمع هنا مختلف الدواهي التي حدث بأغلب المفكرين الذين حاولوا مجاوزة الميتافيزيقا إلى نبذ هذا المفهوم، بالرغم من إلحاحهم على أهمية الوهم والضلal، أمثال نيتشه وفرويد وهايدغر، والتي نحت نظرية في الحقيقة تخرج هذه من سجن المنطق الصوري دون أن ترمي بها في دواخل الوعي. ولعل المفكر الذي استطاع أن يقيم نظرية في الحقيقة تتجاوز الطرح الهيغلي دون الوقوع في كمين الأنتربولوجيا هو هايدغر.

سبق أن رأينا أن الفكر عند هايدغر لا يرد إلى تفكير فرد بعينه، فتاريخ الفكر عنده، كما أصرنا، وكما هو الشأن عند هيغل، هو تاريخ الوجود. واللامفكر فيه ليس ما غاب عن ذهن مفكر، ليس لا مفكر ذات مفكرة. الظاهر إذن أن هذا المفهوم قادر أن يخرجنا من فلسفة الوعي بحيث لا يعود الضلال لاوعياً أو وعياً مغلوطاً، وهذا مع الاحتفاظ بالمنزلة الأنطولوجية التي أعطاهها هيغل للمخطأ عندما رفع اللوغوس إلى مستوى التاريخ، وأخرجه من العقل المجرد والخطاب البشري ليجمعه

L. Althusser. Pour Marx, F.M. Paris, 1972, p. 239 - 40 (4)

Foucault. in L'Arc. N 70, p. 20 - 1 (5)

خطاب الوجود. فهل يتعلق الأمر إذن بتطوير لفكرة مكر العقل الهيجلية، لكن هذه المرة، من منظور المنحى الآخر لفلسفة هيجل؟ للإجابة عن هذا السؤال علينا أن نقف عند ذلك المنحى لتبيين المسالك التي يؤدي إليها.

يؤكد هيجل هنا أن الوعي بالذات الكوني ليس بالضرورة وعي الإنسانية التاريخية وللمشروع البشري بما هو كذلك. أو على الأقل أنه ليس أساساً كذلك صحيح أن مقولات المطلق تنمو هي كذلك في متاهات التاريخ، بيد أن الخطاب المرتبط بهذه المقولات، أي منطق هيجل، لوغوس المطلق، ليس هو التاريخ كما يؤكد هيغوليت. حينئذ لن يكون الوعي المطلق انعكاس الوعي، وإنما انعكاس المباشر ذاته وتفسيره الداخلي. لن يعود المعنى، والحالة هذه، معنى ذاتياً يقابل الوجود الموضوعي، وإنما معنى الوجود ذاته. وحدة المعنى والوجود قائمة سواء في بداية التاريخ أو عند نهايته. هاهنا نجد الدائرة الهيجلية. فالوعي الطبيعي هو الوجود ذاته وقد ابتدأ في الانفصال عنه لقوله. أما المعرفة المطلقة فهي الوجود ذاته وهو يعني بالنسبة لنفسه. وإذا صح الحديث هنا عن ذاتية، فإنها ستكون ذاتية الوجود. المطلق ذات *L'absolu est sujet*. من هذا المنظور ليس الإنسان هو الذي يفسر الوجود. الوجود يمرر عن ذاته من خلال الإنسان. والمعرفة المطلقة تعني ذاتها. وهي تدرك أن الفلسفة لا بد وأن تقترب وتظهر كطبيعة وعقل نهائي، أي كإنسانية في التاريخ. فالماهيات نفسها التي تكشف للتجربة البشرية هي ذاتها فكر الوجود، ووعي بالذات كوني يكشف معنى الوجود. والحقيقة هي في مستوى المطلق. أما اليقين البشري فهو دائماً دون هذه الحقيقة المتعالية. إنه ما يفتأ ينخدع. وهذا الخداع أيضاً من فعل الوجود؛ إنه مكر العقل الكوني وليس خطأ معرفياً.

يؤكد هايدغر، مع هيجل، أن الحقيقة والخطأ ليسا أساساً خصائص خطاب. فالحقيقة «لا تقيم داخل القضايا والأحكام» (6) مثلها مثل اللاحقيقة. ككلاهما تتمتع بوجود أنطولوجي. إنهما كيفيتا وجود ونمطا كائن. «فما جرت العادة على تسميته خطأ، وما تنتمته المذاهب الفلسفية كذلك، وأعني عدم مطابقة الحكم وخطأ المعرفة،

ليسا سوى كيفية من كفيات الضلال وأنماطه. وهي أكثر تلك الكيفيات سطحية» (7). الضلال مسرح الخطأ وأساسه. وهو ليس عثرة وغلطة تأتي صدفة، وإنما مملكة هذا التاريخ الذي تختلط فوق خشبته أنماط الضلال جميعها. قد يوحي هذا بأن المفكر الألماني يفترض قوة كونية متناهضة للحق تعمي الأبرار، وترمي بالإنسان في مهاوي الضلال، وأن هذا لا يملك أمامها قوة. لذا ينبهنا أن الأمر لا يتعلق «بمجر الإنسان وتقصير من جانبه» (8)، كما يدعونا أن نتخلى عن كل «أنتروبولوجيا وتحرير من كل لهم للإنسان كذاتية» (9) إن نحن أردنا أن ندرك ماهية الحقيقة. ذلك أن هذه ليست خاصية أحكام تصدرها ذات بشأن موضوع (10). وعيب الفلسفة الهيكلية مهما كان التأويل الذي يعطي لها، أنها لم تستطع أن تغادر فلسفة الذاتية. صحيح أن هيجل، كما سبق أن رأينا، يقول إنه غادر أرض الكوجيطو، لكن المطلق عند هيجل هو الفكر، أي ما هو مائل بالتقرب من ذاته في يقين معرفته بذاته (11)، فليس المطلق الهيجلي إلا اليقين الذي كان ديكارت قد عزله ووضعه أساساً للفكر ومبدأ له، دون أن يعمقه حتى يجعل منه ذاتاً مطلقة. لقد سبق أن بينا أن هيجل ظل ولباً لديكارت فأبقى على الذات حتى وإن جعلها مطلقة. وهو لم يتجاوز عصر الميتافيزيقا التي تردّ الموجود إلى موضوع يوضع أمام الذات. فجعل من الوجود موجوداً أسمى، هو الأساس المطلق لكل موجود، وجعل من هذا الموجود الأسمى فكراً ومعرفة مطلقة، والاسم الآخر لهذا الموجود الذي لم يزل حاضراً، ويصاحب، عند حضوره، كل فكر هو الوعي (12)، وما الوعي؟ إنه، في جميع أشكاله، حضور بالنسبة للذات، إدراك الحضور لذاته. وما يصدق على الوعي يصدق على الذاتية بصفة عامة (13)، إن

Ibid. p. 187 (7)

Ibid. p. 179 (8)

Ibid. p. 194 (9)

Ibid. p. 178 (10)

M. Heidegger "Hegel et son concept de l'expérience". In *Chemins*, Gallimard, 1980, (11) p. 159

Ibid. p. 179 (12)

(13) نظر بصدق هذه النقطة.

هيجل أعلى من شأن الحضور فأعلى من شأن الذاتية والوعي. وقد سبق أن قلنا إن تحديد الميتافيزيقا للزمان والتاريخ، هو، في الوقت ذاته، تحديد للكائن وللوعي، لهذا فإن فلسفة هيجل عندما تصورت المفهوم كفعالية للفكر المطلق، لم تستطع أن تخرج مسألة الحقيقة من فلسفة الكوجيكلو (14).

تقودنا الفلسفة الهيجلية إذن إلى المصاعب ذاتها، مهما كان المنحى الذي اتخذناه لفهمها وتطويعها. فسواء أنظرنا إليها كفلسفة في التاريخ أو كأدولوجيا، فهي تردنا دائماً إلى الفلسفة نفسها. وأعني فلسفة الحضور، أي الميتافيزيقا. صحيح أن الحاضر الهيجلي، كما سبق أن رأينا، يمتد بجذوره في الماضي، ويرثي في المستقبل، إنه حاضر يفيض، إلا أن هذا الفائض يظل مدخراً محتفظاً به. إن الحاضر في تلك الفلسفة فهم، كما بين دريدا بعد باتاي، داخل اقتصاد ضيق، اقتصاد يدخر من أجل بناء المعنى والتاريخ والمعرفة المطلقة.

لن تتم مجاوزة الطرح الميتافيزيقي لنظرية الحقيقة والخطأ إلا بمجاوزة فلسفة الحضور هذه، ومراجعة الأزواج الميتافيزيقية حضور / غياب، ظهور / اختفاء، وتقويض زمان الميتافيزيقا.

في كتابه في ماهية الحقيقة، هذا الكتاب الذي كان ينبغي، كما يقول هيبوليت، أن يسمى «في ماهية الخطأ»، يلج هايدغر على ترجمة الكلمة الإغريقية أليثيا بالاختفاء. وهو يبينها أنه عندما يستعمل الاختفاء ترجمة لتلك الكلمة عوض لفظ الحقيقة، فذلك ليس حرماً منه على الحرفية في الترجمة فحسب، وإنما إشارة إلى ضرورة إعادة النظر في المفهوم المتداول للحقيقة (15). فكأنما يريد أن ينقلنا من إشكالية إلى أخرى. أو، إن أردنا أن نستعمل لفته هو، من عصر لآخر. وبالفصط إنه يريد أن يرجع بنا إلى الأصول الإغريقية للكلمة، إلى اليونان، وإلى هيراقليط على الخصوص، الذي كان يقول: «إن ما يميز الظهور هو الاختفاء». ذلك أن الوجود، بما هو حقيقة وانكشاف ولا اختفاء (أليثيا)، يخفي أكثر مما يظهر. بيد أن هذا الانسحاب والأقول لماهية الوجود ومنبعه هو الخاصية التي يتجلى فيها الوجود ابتداء.

Birault; Heidegger et l'expérience de la pensée, op. Cité, p. 295 (14)

(15) انظر المرجع السابق الذكر، ص. 176.

وهكذا، فإن ما يظهر ويضيء، أي الوجود، يتيه بالوجود، ولا يعرضه إلا في التيه. فيقيم بذلك عالماً من الضلال. ذاك هو مجال حصول التاريخ. وفيه يتيه كل ما هو جوهرى عبر ما يشبهه ويحاكيه. لذا فإن كل حصول تاريخي أصيل لا يؤول بالضرورة إلا تأويلاً خاطئاً. وعبر هذا التأويل الخاطيء ينتظر القدر ما ستنبته بذوره. ويضع من يهملهم الأمر أمام إمكانية ملءمة القدر أو عدم ملأمته. وبذلك يجرب القدر نفسه. وكل انسحاب للوجود تعقبه هفوات للإنسان» (16). وهكذا يتستر الوجود بكيفيات مختلفة ليفسح المجال لانكشاف يفكر في الحضور من خلاله. إن الوجود يكتم حقيقته ولا يبوح بها. وهذا الكتمان هو الكيفية الأولى لافتتاحه. لكن، ما هي هذه الحقيقة المخيفة؟ ما الذي يصونه الانكشاف عن طريق هذا الاختفاء؟ يجيب هايدغر، «لافي» غير الاختفاء ذاته» (17). إن الحاضر لا يحضر، وإن الظهور لا يظهر. يتعلق الأمر إذن بإعادة النظر في مفهوم الظاهر في عالم ينفي عالم - الحقيقة، وعند فكر يرمي إلى قلب الأفلاطونية، ومجاوزة الميتافيزيقا. إحدى الألاعيب التي تقوم عليها الميتافيزيقا تتمثل في تدليس لعبة الإخفاء هاته، وتحويلها بدورها إلى مظهر من مظاهر التجلي، لذا يعمل هايدغر على تخطي هذا التصور الذي يبلوره هيجل حين يكتفي بأن يعرض للحقيقة كما لو كانت في خاتمة المطاف سوى تاريخ اللاحقيقة وقد صارت حقيقة. «على عكس هذا فإن هايدغر يعلمنا التفكير في الحقيقة انطلاقاً من اللاحقيقة. وبهذا المعنى فإن اللاحقيقة أولية و «إيجابية»، أما الحقيقة فثانوية، أو إذا جاز التعبير فـ «سلبية» (18). إن التفكير في ماهية الحقيقة يمر بضرورة عبر ماهية الخطأ. ذلك لأن تاريخ الحقيقة ليس في واقع الأمر سوى تاريخ مكبوتاتها. ذلك التاريخ الذي يجعلها لا تعطي نفسها إلا

Heidegger. "La prole d'Anaximandre" in *Chemins*, op. cité, p. 295 (16)

Heidegger. "De l'essence de la vérité" in *Questions I*, op. cité, p. 182 (17)

نجد عند ليني - ستروس قراءة هايدغرية «لماركسية وتحليل التنسي». يقول في مدلولات حرة: «على مستوى مخالف، كانت الماركسية تبدو لي أنها تتبع الطريق الذي تتجهه الجيولوجيا وتحليل التنسي بالمعنى الذي أعطاه إياه مؤسسه، فالثلاثة تبين أن القوم يعني رد واقعة إلى أخرى، وأن الواقع الحقيقي ليس هو أكثر الواقع ظهوراً وتجلياً، وأن طبيعة الحقيقي تجلي في حرمه على الاحتجاب».

Levi-Strauss (C). "Tristes tropiques". Coll. 10 / 18. Minuit, p. 44

Birault; Heidegger et l'expérience de la pensée, op. cité, p. 298. (18)

عندما تحجبها، ولا تحضر إلا بقدر ما تتيه وتضلّ.

يرى نيتشه أن الحقيقة تخفي خداعها بإظهاره في المجاز. لقد سبق أن قلنا إن الموقف الجنياولوجي ينتدب نفسه للوقوف على «مجازية الوجود» فالوجود هو دوماً مجرد مؤشر لخداع مجازي يتم عبره خلق القيم وتوليدها. إنه مجموعة ألوان وكتلة من الأسماء والنموت، وما المعنى إلا بؤرة تناحر إرادات القوة. إذ أن الدليل ليس سوى الفضاء التفاضلي الذي تتصارع فيه التأويلات والقراءات.

سبق أن رأينا في الباب الأول من هذا البحث أن القضاء على عالم الحقيقة عند نيتشه معناه القضاء على عالم المظاهر، أي القضاء على الاختلاف بينهما (19). وقلنا إن الجنياولوجيا تقيم مفهوماً جديداً عن الظاهر يضم في الوقت ذاته الحقيقة والخطأ، الواقع والوهم، مفهوماً يضم الأضداد ويقرب بينها، فيفجر منطق الهوية (20).

هذا الظاهر «الجديد» لا يقوم على أساس، ولكنه يحيل ولا ينفك يحيل إلى ظاهر آخر، ومظاهر أخرى. كل شيء قناع، وكل قناع، عندما يكشف، ينكشف عن قناع آخر. وليس الوجود، ليست الصيرورة إلا حركة هذه الأقنعة والتأويلات. بهذا المعنى قلنا مع نيتشه بأن مجاوزة الميتافيزيقا وقلب الأفلاطونية يعنيان أن «يصبح عالم الحقيقة في النهاية حكاية» (21) أي شيئاً يروى، ولا يوجد إلا في السرد وبه.

Heidegger, *Chemins*, op. cité, p. 173 (19)

(20) يقول نيتشه :

«كيف يمكن للنبي أن يتولد من نفسه، كأن تتولد الحقيقة من الخفاء؟ يجب الميتافيزيقا، إن هذا الميلاد مستحيل. وإن القول به سيكون من قبل العالم أو أدهى من ذلك، إن الميتافيزيقا ترى أن أسس الحقائق يعني أن يكون لها مصدر آخر خاص بها. ولا يمكنها أن تتولد من هذا العالم السريع الزوال، هذا العالم المتنازع الوهمي المتغير. كلا، إن الميتافيزيقا ترى أن منبع الحقيقة ومهدأها يكمن في قلب الوجود، في ما لا يزول، في إله مستمر، في الشيء في ذاته، إن مثل هذا الكلام يشكل الحكم المسبق الذي يضم أشكال الميتافيزيقا عبر الصور، وهو يكون للحقيقة التي تكمن وراءها متاهجها المنطقية. إنطلاقاً من هذا الاعتقاد، نحاول الميتافيزيقا بلوغ معرفة وإدراك شيء يسمى حقيقة. إن الاعتقاد الأساس الذي يضم مختلف أشكال الميتافيزيقا، هو إيمانها بتقابل القيم».

(21) انظر مصدر هذه النقطة :

Klossowski (P), *un si funeste désir*, op. cité, p. 193.

يقول كلوسوفسكي :

«الحكاية تعني شيئاً يروى ولا يوجد إلا في السرد وبه. العالم شيء يروى، حدث مروى. إنه إذن تأويل. وما الدين والفن والعلم والتاريخ إلا أشكال مختلفة من التأويلات. أو أنها، على الأصح، أشكال متروكة للحكاية نفسها».

إنهما يعنيان إذن ألا ينفصل التأويل والقراءة عن نص العالم، وأن يصبح العالم، كما يقول بلانشو، حركة الكتابة ذاتها. يعنيان مجاوزة مفهومي القراءة والكتابة كما رُسختهما الميتافيزيقا.

الفصل التاسع

الْقِرَاءَةُ وَالكِتَابَةُ

« على الرغم من أن النص الميتافيزيقي هو دوماً نص مكتوب، إلا أنه ينطوي على الرغبة في أن يحمي ليدع المجال للمحتوى الذي ينتقله ويسمى، في الأغلب الأعم، إلى تعليمه. وهذا بالضبط هو ما يجعل منه نصاً ميتافيزيقياً ».

ج. دريدا

تنظر الميتافيزيقا إلى الكتابة كوسيلة تعبير. إنها الجسر الذي يسمح بعبور المعاني، والمجاز الذي يقوم بنقلها. وهي أداة لتبليغ المعاني وتمثيلها، ومناسبة لحضور المعنى ومثوله. تنفي الميتافيزيقا مادية الدليل وكشاقته. وهي تعتبر الدال مجرد مظهر للمدلول. فتعطي أسبقية زمانية ومنطقية - بل وشرقية - للمعنى على الدليل، للمدلول على الدال، للفكر على المادة، والنفوس على الجسد. وما دامت الكتابة ليست مجالاً لإنتاج المعاني، ومادامت مجرد جسم وتقطعه روح النص، ومادامت مجرد قنطرة وتعبير، فلا يصبح الدليل إلا مناسبة لاستحضار المعنى الأصلي المستقل عن كل

عملية إنتاج. سواء أكان ذلك المعنى قد وجد في عالم مفارق، أو كان محتوى ذهنياً أو مقصد ذات تعطي للموضوعات معانيها.

إن الميتافيزيقا تنظر إلى الكتابة كعملية حصر يهيمن عليها منطق الهوية. وهي لا ترى النص نسقاً يفيض بالمعاني ولا الدليل تكشيفاً لعدة تأويلات، وفضاء تفاضلياً، وإنما كلمة ولفظاً. واللفظ عندها هو الحد الذي يحصر المعنى ويحدده. إنه التعريف الأحادي الذي يعطينا ماهية الأشياء وحقيقتها (1).

ولكن، إذا كانت المعاني ليست مفعولات للكتابة، وإذا كانت الكتابة أمراً ثانوياً بالنسبة لتوليد المعنى، فلماذا تقبل الميتافيزيقا، أو على الأقل، لماذا قبلت في الأخير (مادام سقراط لم يكتب)، أن تسجن الحوار الفلسفي في جسم الكتابة وتلطيح المعاني الميتافيزيقية بمادتها؟

ذلك أن الكتابة لا تنحصر فحسب، في كونها وسيلة تعبير وتمثيل وتبليغ، وإنما في كونها أساساً أداة لحفظ المعاني وحمايتها ضد عبث الأقدار وفعل الزمن؛ فالميتافيزيقا إذ تلجأ إلى الكتابة فلتعطي معانيها طابع الخلود، وتجعلها تعيش في حاضر دائم. وقد يتم هذا، إما بتقليص الزمان وتحويله إلى نقطة، وهي بالضبط نقطة التملك اللحظي للمعنى. وهذا ما نجده على سبيل المثال، عند ديكارت، الذي يرمي إلى إدراك المعنى في فعل الحدس الذي يستمد يقينه مما يتميز به من وحدة تجعل المعاني حاضرة في ذهن المتنبه. فحتى الرياضيات عنده لا تستمد يقينها من كتابتها الاستدلالية وصرحها الاستنباطي (ذلك الصرح الذي يكون مناسبة لعمل الذاكرة وضياعها للحدس)، بقدر ما تستمد من كيفية إدراكها لموضوعاتها. لكن ضبط الزمان وقهره قد يتمان بطريقة أخرى كذلك التي نجدها عند هيجل، حيث تعكس

(1) يقول نيتشه :

« إن فلاسفة الميتافيزيقا قد ساهموا في ترسيخ هذا النحوس، عندما أوتوا أن الدلائل والمعاني هي الواقع الفعلي الذي لا يلحقه التغير، والذي يقبله الجميع. هذا في حين أن الفكر عندما يترك شيئاً يستعرض سلسلة من العلامات والدلائل التي تقدمها له الذاكرة فيهت صم يتجاذب ويتماثل، وأن الإنسان عندما يطلق دليلاً ما قالاً على شيء ما، يعتقد أنه تلكه ذلك الشيء. وألغضه وأنه يمكن من معناه (...) إن الكلمات التي تستعملها اللغة البشرية قد ظهرت دوماً، لا كعلامات ودلائل، وإنما كخفائن تتلصق بالأشياء التي تشير إليها ».

Nietzsche, La volonté de puissance, T. 1., Trd. Bianquis, Gallimard, p. 112.

الكتابة صورة الحركة التاريخية، وتتحول إلى ذاكرة ضخمة تختزن جميع اللحظات(2). إنها تقوم على الزمان والتاريخ، لكنه التاريخ التاريخي الذي يقوم، كما سبق أن بينا، على فلسفة الحضور، والذي يحول الزمان، في نهاية الأمر، إلى حاضر متحرك، ويجعل السلب تحت رحمة المفهوم، والاختلاف في خدمة التتابع.

هذا الحرص على الاستمرار والدوام هو ما يجعل الميتافيزيقا تنفر من النص البلوري المتقطع، وتحرص على الكتابة الموصولة التي تلائم الفهم الأفلاطوني للمعرفة التراكمية، المعرفة - الذاكرة، والتي يطبعها مفهوم الوحدة، تلك الوحدة التي تعكس وحدة الذات المتملكة للمعنى والمتحركة فيه، الذات التي تزود الكتابة بمضمونها. فالكتابة الميتافيزيقية تقوم في نهاية التحليل، على أنطولوجيا التتابع والوحدة، أي على أنطولوجيا تعتبر الكائن موحداً باستطاعة وحدة المفهوم أن تضمه وتجمعه في كل منسجم *con-cept*.

لقد ارتبطت الكتابة بمفهوم الاستمرار. واستخدم التدوين لقهر الإتلاف الذي يلحقه الزمان، والنسيان الذي يسببه التآكل. وذلك لترسيخ المعنى وحفظه من الكلام الذي ينسخ بعضه البعض. لذا ارتبطت النصوص المكتوبة دائماً بالمؤسسات التي تسعى إلى المحافظة والتقليد، كالمؤسسات القضائية والكنسية والتعليمية، حيث يكون النص المدون سلطة تحاول تلك المؤسسات أن تفرض عن طريقها، نفوذها وسيادتها. فكان الكتابة هي الوسيلة التي يصبح بها النص الميتافيزيقي موضوعاً أخلاقياً يقضي منا احترامه وتقديسه ومعاملته بـ «نزاهة علمية»(3).

(2) يقول دريدا،

« كان هيجل ذاته قد وقع في هذا الفخ، فمن جهة، خص فلسفة الفوغوس في مجموعها، وحدث الأنطولوجيا كمنطق مطلق. وحدث تمينات الوجود بكاملها كحضور، وأعطى الحضور معنى دينياً. فجعل منه التتابع الذات الاستيعابية من نفسها. وبهذه الأسباب ذاتها حدث من الكتابة وجعلها ثابتة. وهو عندما يعتقد اللغة التي وضعها لا يميز، ويحبب عليها ما تنتم به من نزعة سرورية واعتماد على الزمن التاريخي، فإنه لا يبعد عن ذات الأمر، ولا يميل إلا أن يفضح كون الفوغوس يوجد خارج الذات بعيداً عنها في صلبة التجريد، ويرى في الكتابة شيئاً للذات واختراقاً وخروجاً، أعني تقييداً للذاكرة المستوعبة للمعرفة. »
J.Derrida. De la grammatologie. Minuit, Paris, 1967, p. 39.

(3) هذا الحضور الذي يطبع الزمان هنا يطبع الكائن كذلك. والكتابة الميتافيزيقية تقوم، في نهاية التحليل، على أنطولوجيا التتابع والوحدة، أي على أنطولوجيا تشير للكائن موحداً باستطاعة وحدة المفهوم *concept* أن تضمه وتجمعه في كل منسجم، يقول ديتشه، « تطلي الميتافيزيقا لكتاب الطبيعة تأويلاً روحياً كذلك الذي كانت الكنيسة وقهرها بطون لكتاب المقدس. »

Nietzsche. *Humain, Trop Humain*, T. I. op. cit., p. 8

ولكن الكتابة، وبالرغم من ذلك، تظل ثانوية. فهي إن كانت تقوم بحفظ المعنى، فإنها لا تعمل على إنتاجه. هذا الدور الثانوي الذي تعطيه الميتافيزيقا للكتابة ليس في واقع الأمر إلا إعلاء لفعل القراءة، وتقديماً للصوت واللوحوس على العلامة والأثر. والقراءة هنا هي ذلك الفعل السحري البسيط الذي يلغى المادة المكتوبة ليتمكن من روح النص، ويسمع صوته، وينفذ إلى أغواره. إنها ليست، هي أيضاً، عملية إنتاج تحول المادة الخام، وإنما هي مجرد موقف انفعالي يتمثل في الإنصات لخطبة النص والاصغاء إلى صوته والتقاط معناه. هذه هي القراءة التي ينعت بها ألتوسير مؤلفات الشباب عند ماركس، حيث كان هذا الأخير «يقراً حضور الماهية المجردة في وجودها العيني الشفاف. في هذه القراءة المباشرة للماهية في الوجود، يتجلى النموذج الديني للمعرفة المطلقة الهيجلية، تلك الغاية التي يسعى التاريخ نحوها، بحيث يصبح المفهوم مرئياً منكفاً حاضراً بيننا بلحمه وعظمه (...). وهذا ما يسمح لنا بأن ندرك بأن الحنين إلى قراءة الكتاب المفتوح وقراءة كتاب الطبيعة الكبير الذي يتحدث عنه غاليليو، هي قراءة سبقت كل علم، وأنها مازالت تجتر الأوهام الدينية للحضور وأسطورة الكتب المقدسة، حيث كانت الحقيقة تتجسد في تلك الكتب، وترتدي كلماتها. وهذا ما يجعلنا نعتقد أنه لكي نعامل الطبيعة أو الواقع ككتاب، حيث ينطبق الخطاب الصامت للغة تتألف من مربعات ومثلثات ودوائر، كما يقول غاليليو نفسه، كان ينبغي أن تكون لدينا فكرة معينة عن القراءة تجعل من الخطاب المكتوب الشفافية المباشرة للحقيقة، ومن الواقع صوت خطاب» (4).

تقوم هذه القراءة إذن على إبستمولوجيا ديكارتيّة - غاليلية، أي على إبستمولوجيا المباشرة وعلى فلسفة الحضور. حيث تؤول القراءة إلى مجرد الشرح والتعليق، مع ما يقتضيه المنهج الديكارتي من حسن تنبيه، وتخلص من أحكام مسبقة وعدم تعجل...

واضح مما سبق أن كل كتابة / قراءة تريد أن تقوض الميتافيزيقا لا بد وأن تتخلص أساساً من فلسفة الحضور هذه. سواء أعلق الأمر بفهم الزمان، أو بفهم

Ahhusser (L). Lire le capital I, F.M.? Paris, p. 3 (4)

رد الواقع إلى صوت يجعل التوسير قريبا من درينا ورده الميتافيزيقا إلى للركنة الصوتية.

الكائن كحضور، أو تعلق بحضور المعنى بالنسبة لنفسه، أو بالنسبة للوعي. ولكنها مضطرة، قبل هذا، أن تقحم المعاني داخل عملية الكتابة/ القراءة التي عملت على إنتاجها. أي أن تنظر إلى هذه العملية كممارسة دالة تدخل ضمن مجرى التفاعل الاجتماعي للممارسات الاجتماعية. وبهذا تصبح مجالاً للصراع، وبؤرة التناحر بين إرادات القوة، وملتقى المنظورات المتباينة. لن يعود النص، والحالة هذه، حاملاً للحقيقة. لكنه لن يكف، مع ذلك، عن أن يكون مدار الصراع حولها. ومجمل القول، فإن هذه القراءة المقوضة للميتافيزيقا تنظر إلى النص من حيث هو منبع منفعولات الحقيقة، فتحاول أن تبرز حياة الحقيقة داخل المجتمع، والسياسة التي تتحكم في قراءة النصوص وكتابتها، وأعني مجموع القواعد التي يخضع لها إنتاج النصوص والاعتراف بها ونشرها وتداولها وتأويلها.

لا يهدف هذا التوقيف إذن إلى فك رموز المعاني والمفاهيم الميتافيزيقية، وإنما يرمي إلى الكشف عن الطريقة (أو الطرق) التي تستعمل بها هذه المفاهيم، وتروج وتداول، والتي تنتج بها ويعاد إنتاجها. يقول نيتشه: «إن ما يهمنا أساساً هو معرفة الكيفية التي تسمى بها الأشياء، لا معرفة ماهياتها. فما يشتهر به شيء ما، إن اسمه ومظهره وقيمه وقياسه ووزنه كل هذه الأمور التي تنضاف إلى الشيء، يحض الصدفة والخطأ، تصبح، من شدة ما نؤمن بها، يشجعنا على ذلك تناقلها من جيل لآخر، تصبح تدريجياً حكمة الشيء وسداه. فيتحول ما كان مظهراً في البداية إلى جوهر، ثم يأخذ في العمل كما هي» (5). لا يتعلق الأمر إذن بقراءة شارحة تفك رموز النص، وتحاول أن تنفذ إلى أعماقه لإدراك الحقيقة التي يحملها، والتي أودعها إياه كاتبه، بعد أن دارت بخلد، وسكنت ذهنه وجالت بفكره. وإنما بقراءة لا تميز بين النص وكتابه، قراءة فعالة تنتج النص اللامكتوب، الذي لا يكون مجال الكتابة إلا علامة عليه، وعرضاً من أعراضه.

سبق أن قلنا إن الجنياولوجيا، بما هي مجاوزة للميتافيزيقا، هي قراءة مشخصة للأعراض. والحديث عن العرض اعتراف بالاستحالة المبدئية لـ «عزل المدلول عن

الدال عن طريق التأويل والتعليق، وبالقضاء على الكتابة عن طريق الكتابة الأخرى التي هي القراءة» (6). هذه هي القراءة الثانية التي يرى ألتوسير أنه يجدها عند ماركس في كتب نصجه «وهي قراءة مشخصة للأعراض، لأنها تكشف اللامنكشف في النص الذي تقرؤه فترده إلى نص آخر حاضر بغيابه الضروري في النص الأول» (7). لا يمكن لهذه القراءة بالطبع أن تقوم على إبستمولوجيا المباشرة، ولا على أنطولوجيا المطابقة والوحدة. إنها لا يمكن أن تقرأ «الواقع» على أنه كتاب مفتوح يعطي للقارئ معانيه بصفة فورية، وإنما في تباعد عن نفسه. هذا التباعد هو من صميم الواقع ذاته، وليس راجعاً لنقائص القارئ أو لقصوره المنهجي. وهو تباعد يجعلنا لا ندرك مفعوله، بحيث إذا أردنا أن نقرأه قراءة مباشرة وقمنا في فخ الفيتيشية والوهم «فحيثما كان ماركس الشاب، في مخطوطات 44 يقرأ مباشرة وعلى كتاب مفتوح، الطبيعة البشرية في استلابها الشفاف، فإن كتاب الرأسمال يأخذ بعين الاعتبار، مسافة وتباعداً من صميم الواقع، حاليين في بنيته. بحيث يحجبان مفعوليتهما، ويتوجان ذلك المفعول بوهم قراءتهما المباشرة، أي بالفيتيشية» (8). حينئذ سيصبح الوهم من صميم الواقع وتنهار الثنائية وفهم / واقع. ولن يعود الوهم خطأ ذهنياً بقدر ما يصبح سمة من سمات الواقع الذي «لا يعطى إلا في تباعده عن نفسه». لا يعطى إلا منخورياً.

ذلك أننا إن تجاوزنا مفهوم الإيديولوجية كما يعرض في (الإيديولوجية الألمانية) حيث تعتبر مختلف الأشكال الإيديولوجية بما فيها الميتافيزيقا «لغة الحياة الحقيقية» وحيث تعتبر الفلسفة تأويلاً للعالم، إذا تجاوزنا هذا المفهوم نحو مفهوم سيظهر في مؤلفات النصج حيث ستعتبر الإيديولوجية علاقة من الدرجة الثانية سينظر إليها لا على أنها لغة تعكس العلاقات الاجتماعية بل على أنها تعكس علاقة الناس بالعلاقات الاجتماعية. «قالناس لا يعبرون في الإيديولوجية عن علاقاتهم مع

Derrida. De la grammatologie, op. cité. p. 229. (6)

Althusser (L). Lire le capital I, op. cité, pp. 8 - 9. (7)

(8) لا يشير ألتوسير كثيراً إلى مساحته، وهو لا يذهب إلى أصل مفهوم القراءة للشخصية للأعراض.

Ibid. p. 14.

ظروف عيشهم، بل عن (الكيفية) التي يعيشون بها علاقاتهم مع تلك الظروف. الشيء، الذي يفترض في ذات الوقت، علاقة حقيقية وعلاقة معاناة وخيال ووهم. فحينئذ تكون الإيديولوجية هي التعبير عن علاقة الناس بـ (عالمهم)، أي بوحدة تلتمح فيها علاقاتهم الحقيقية بظروف عيشهم مع علاقاتهم الوهمية بتلك الظروف، ففي الإيديولوجية توضع العلاقة الحقيقية داخل العلاقة الوهمية» (9). لو نحن أخذنا الإيديولوجية بهذا المفهوم لن يعود ماركس، كما يقول فوكو «مؤولا لتاريخ علاقات الإنتاج، وإنما مؤولا لعلاقة تقدم نفسها كتأويل مادامت تقدم نفسها كطبيعة» (10). حينئذ تصبح الميتافيزيقا باعتبارها شكلاً من أشكال الإيديولوجيا لا تأويلاً للعالم وإنما لغة للغة، وتأويلاً لشيء مؤول معيش، هاهنا أيضاً لن تحيل المعاني مباشرة إلى موضوعات وإنما إلى تأويل سبق أن أُعطِيَ لتلك الموضوعات. وحينئذ تصبح الأوهام الميتافيزيقية أقمعة ينسج تأويلها أو تأويل تأويلها لنفضح بعدها الإيديولوجي.

نحن إذن أمام قراءة تنهم المباشر. فتحاول أن تنتج العملية الفعلية للكتابة الميتافيزيقية ذاتها، تلك العملية التي ليست عملية إظهار وتملك للمعنى الوحيد، كما تريد الميتافيزيقا، وإنما عملية لتوليد الاستعارات - إنها إذن قراءة تروم فضح ادعاء ادعاء حق. لكن لا يتعلق الأمر برّد الحق وما ينبغي أن يكون، إلى الواقع وما هو كائن، وإنما بفضح احتباطية ذلك الادعاء وأوهامه. ثم هي قراءة لا تنظر إلى الدليل والنص من حيث يهيمن عليهما منطق التطابق، بل من حيث ينخرهما الاختلاف. ذلك الاختلاف الذي يجمّل الواقع ذاته ذا بنية لاشعورية تتكون من الفراغات والتباعد فيقضي على مفهوم الوحدة، وينفي قابليته للمضم الكلي.

لا عجب إذن أن تكون الكتابة الملائمة لهذه القراءة كتابة مقطعية تنبذ الاستمرار والوصل، وتقضي على الزمان كحضور، وتهاب الامتلاء والتحقق. فهي كتابة تقحم الزمان داخل النص ذاته. لكنه ليس زمان الميتافيزيقا، ليس زمان الحاضر

Althusser. Pour Marx, op. cité, p. 240 (9)

Foucault. "Nietzsche, Marx, Freud" in Nietzsche, op. cité (10)

بهذا المعنى، وبه قط يمكن أن يختار ماركس مفكراً للاختلاف، ونفس إلى جانب ديتشه وفرويد في قراءتهما للميتافيزيقا.

المتحرك، بل زمان العود الأبدي، الزمان الذي يتنخر الحضور ذاته، ويجعل الهوية مفعولاً لاختلاف، والوحدة نتيجة لتعدد، والعمق فعلاً لسطح. إنها تحاول أن تقضي على الوهم الأفلاطوني لمعرفة - ذاكرة، تنتظر إلى النسيان في قوته الفعالة (11). لا يمكننا، والحالة هذه، أن نفصل القراءة عن الكتابة، فالكتابة، بهذا المعنى، تقدم نفسها مقروءة مؤولة. والنص لا ينتظر العين التي ستجيء لترى فيه ما تراه. وإنما هو يرى ذاته. «فليست الرؤية هنا رؤية ذات فردية تمتلك القدرة على الإبصار فتمارسه، في انتباهها وشرودها. بل إن الرؤية تصدر عن الشروط البنيوية للنص. إنها علاقة الانعكاس المعايضة لجمال الإشكالية النظرية، والتي تربطها بموضوعاتها ومشاكلها. وبهذا تفقد الرؤية امتيازاتها الدينية التي كانت تعطيها إياها القراءة الأولى. فلم تعد إلا انعكاس الضرورة المعايضة التي تربط الموضوع، أو الإشكال بظروف وجوده، تلك الظروف التي تتحدد بشروط إنتاجه. وبعبارة أوضح: لم تعد الرؤية رؤية عين (حين العقل) ذات ترى ما يوجد داخل الحقل الذي تحده، الإشكالية النظرية. إن الحقل هو الذي يرى ذاته في الموضوعات والمسائل التي يعينها» (12). بهذا المعنى يرى نيتشه أن التأويل موافق للنص المؤول. فليس التأويل عنده تعليقاً على نص أولي. فما يسبق التأويل ويتقدمه، ليس نصاً. إذ لا وجود للنص من غير تأويل (13).

(11) ينهنا (مايدغر) إلى أن ما نقوله عن النسيان مادة من حيث هو «خسارة» وضياع ليس إلا نتيجة للهم الأفلاطوني الليتالينيني من الذاكرة من حيث هي امتلاء، وعلى عتول، ولقد تمودنا أن نرى في النسيان مجرد عدم الاحتفاظ، ومجرد ضياع (...) منا في حين أن تاريخ الفكر الغربي لم يبدأ بالتمكين فيما يمكن أن ينكر فيه بل بالعكس بتركه على النسيان "Qu'appelle-t-on penser? p. 154. إن نسيان الوجود جزء من الوجود من طريقه. إن النسيان من مضمون الوجود إلى حد أن نجر الوجود يبدأ كالكشف للمعاصر في حضوره. وهذا يعني أن تاريخ الوجود يبدأ بنسيان الوجود Chemins, p. 297.

Althusser (L.). Lire le capital I, op. cité p. 25 (12)

(13) كتبت إحدى الذكريات لنيتشه :

«ليس التأويل عند نيتشه تعليقاً على نص سابق، فما يسبق التأويل ليس نصاً وإنما خوله وكاووس. وهذا الخوا. حيث، وتلك هي حقيقة الوجود الذي هو غياب للمعنى والحقيقة. إن عالم الحقيقة هو عالم الكذب، العالم القومعي. هذه الحقيقة ليست «حقيقة» وإنما واقع. أما «الحقيقة» بالمعنى الحقيقي للكلمة فتتبع لعالم المعنى، أي لعالم التأويل».

S. Kofman. "Généalogie, interprétation, Texte", in Nietzsche et la métaphore, payot, Paris, 1972, pp. 197 - 8.

نحن إذن أمام مقروء يقرأ ذاته، أمام مقروء هو القارئ، وموضوع هو الذات. فلا يتعلق الأمر بذات ناظرة تقهرها صعوبة التأويل، وإنما ينص يفيض لوحده. وبالمثل، فإن ما يحجبه النص، إن اللامرئي، ليس هو ما غاب عن عين ناظر، ولا ما خفي عن رؤيته: «إن اللامرئي هو ما لم تره الإشكالية النظرية ذاتها في موضوعاتها. إنها الظلمة والعمى التي لا تبصر انعكاس الإشكالية النظرية على نفسها، عندما تستعرض لا - موضوعاتها ولا - مسائلها كي لا تراها» (14).

إنها إذن قراءة / كتابة بدون ذات. ولكنها قراءة / كتابة غنية لا تعطينا نفسها إلا فيما تحجبه عنا، وبالفبط «فيما تحمله في طياتها من رخاوة، خلف مظهر أقوى الحقائق بداهة، في الصمت الذي يتخلل خطابها، والنقص الذي يحوز مفاهيمها، والبياض الذي يتسلل إلى سواد كتابتها الدقيقة. ومجمل القول، في كل ما ينطوي على خواء رغم امتلائه» (15).

يبدنا هذا إلى ما سبق أن قلناه عن جدل الحضور والغياب، والظهور والاختفاء في الفكر المعاصر. ذلك الجدل الذي تقوم عليه الدراسات السيميولوجية المعاصرة. فقد أثبتت هذه الدراسات في حقول مختلفة، أن كل ما يدل، سواء أكان كلاماً أم شيئاً آخر، كل ما يعني ويدل على معنى لا يفترض تأويلاً لموضوعات تعطي نفسها للتأويل، وإنما يفترض تأويلاً لدلائل وعلامات أخرى. فلا يكون هناك موضوع من موضوعات التأويل إلا وقد أول من قبل. يقول نيتشه: «ليس هناك حادث لي ذاته. فكل ما يحصل ويتم، ليس إلا مجموعة من الظواهر التي انتقامها واختارها كائن

Althusser (L.). Lire le capital I, op. cité, p. 26 (14)

عنا أيضاً لا يحل الترسير إلى أسو له الهادغرية.

Ibid, p. 13 (15)

بري بودري، بعد ريكور، أننا نستطيع أن نضم أسماء نيتشه وفرويد وماركس فيما يتعلق بهذا الفهم من القراءة، ولم يعد الأمر يقتضي أن نبحث كلاماً يقلت من النص الذي يمر منه فيحرفه، بل أن نبرز، عن طريق الكتابة ما كان كلاماً وأدباً ولكن النص يحجبه، فما تخليه السلطة هو ما تعرضه من حيث إنها سلطة أي عمل مبدول. وما يخفيه للقول هو سواء ذاته، ذلك السؤال الذي يقسه نيتشه ويحيط حده الظلم، إنه التساؤل عن يتكلم؟ وما يحجبه النص الظاهر للعلم هو عمل الاختفاء والتستر ذاته. ذلك العمل الذي يهدف إلى أن يظهر للعلم كما لو كان ظاهرة تلتهم لا قيمة لها ولا يمكن قراءتها، أنظر:

Baudry (J-L). "Écriture, fiction, Idéologie" in tel quel, Théorie d'ensemble, Seuil, 1968, pp. 130 - 1.

مؤول». وعيب الميتافيزيقا هو أنها افترضت تأويلاً واحداً وقفت عنده، واعتبرت أنه التأويل الحق. هذا في حين، أن التأويل ليس بحثاً عن معنى أول، وإنما تفضيلاً، وإعطاء أولوية للمعنى على آخر. هذا ما سبق أن بيناه في الموقف الجنياولوجي، عندما قلنا بأن نيتشه عندما يطرح السؤال عن أصل المقولات الميتافيزيقية، فإنه لا يبحث عن مصدر أول، وإنما عن الأصل الذي تشكل هذه المقولات دليلاً عليه وعرضاً من أعراضه وعلامته من علاماته.

وتلك أيضاً هي القراءة التي يقوم بها فرويد لأعماق اللاشعور. «فليس فرويد منقّباً في أغوار الإنسان وأعماقه ليكشف عن المعنى الأصلي. بل إنه يبحث عن آليات اللاشعور الذي ينتج المعنى، ويتجه انطلاقاً من اللامعنى» (16). إن فن التأويل عند فرويد يقوم في إنتاج المعنى انطلاقاً من المركب اللاشعوري الذي يبرز لنا نفسه في الحلم والهفوات والفتنات. وإن إنتاج هذا المعنى يعني في ذات الوقت بناء وهدماً، فهدم المعنى الشعوري التلقائي يعني إنتاج المعنى اللاشعوري «فليس الحلم هو الذي يكون موضع تأويل وإنما نص الحلم كما يروى. إن المحلل يهدف إلى أن يضع مكان هذا النص نصاً آخر وهكذا فإنه ينقل معنى إلى معنى آخر» (17).

مقابل (القراءة الميتافيزيقية) إذن، تقوم قراءة مغايرة نجد معالمها عند كل من نيتشه وفرويد وماركس «إذا كان يمكننا أن نضم أسماء كل من فرويد ونيتشه وماركس بعضها إلى بعض... فذلك وليد ذلك العمل الأساسي الجذري الذي يوجد عندهم جميعاً والذي يُحدّد بمقتضاء أمام كل كتابة نوع من القراءة. ذلك العمل الذي قدم لنا نفسه أساساً كمنهج في القراءة يمكننا أن نميز فيه لحظات ثلاث:

أ - افتراض الموضوع المدروس كما لو كان عنصراً دالاً في نص يتلى بالفراغات، كما هو الشأن بالنسبة للسلعة عند ماركس، والتخير والشر عند نيتشه والحلم عند فرويد. وهذا الفراغ يتولد عن المصالح الإيديولوجية، كنتيجة للطبقة السائدة أو الحكم المسبق، أو الكبت.

ب - البحث عن القواعد التي تخضع لها العملية التي أعطت لذلك العنصر الدال

Deleuze. Logique du sens, op. cité, p. 99 (16)

Ricoeur (P). De l'interprétation, Seuil, Paris, p. 15 (17)

هذا الشكل بعينه (ميكافزمات الصبغة الفيتيشية للسلعة، بناء المثل العليا، عمل الحلم).

ج - إعادة بناء النص في مجموعه، ثم فحصه وتقصي معانيه. وهذا الفحص ينطبق مع النص المكتوب بأكمله بحيث لا يكون هناك وجود للنص الأول إلا عن طريق القراءة التي تقدمها لنا الكتابة» (18).

سبق أن رأينا في الباب الأول من هذا البحث كيف أن القراءة والتأويل لا يمكن أن يكونا إلا مفاضلة، وإعطاء أولويات لمعنى على آخر، وقلنا إن تلك الأولويات ترجع لإرادات القوة وللسلطات التي توجد وراء كل تأويل وقراءة بحيث يصبح البحث عن المعنى بحثاً عن استراتيجيات الهيمنة ولعبة الإرادات المتصارعة. فما هي طبيعة هذه اللعبة؟ وما علاقة المعنى بالقوة. ذلك ما سنراه في الفصل القادم.

الفصل العاشر

المَعْرِفَةُ وَالسُّلْطَةُ

«أعتقد أن المسألة لا تكمن في التمييز، داخل خطاب معين، بين ما يمت
إلى العلم والحقيقة، وما قد ينطبق بشيء آخر. إن المشكلة هو أن تبين، تاريخياً،
كيف تتولد مفعولات الحقيقة داخل خطابات ليست هي، في ذاتها، لا حقيقية ولا
خاطئة».

م. فوكو

قلنا فيما سبق إن مجاوزة الميتافيزيقا لا تعني استبدال حقيقة بأخرى، وأكدنا
إلى جانب هذا أن الأمر لا يتعلق، بالرغم من ذلك، بنفي الحقيقة، وإنما بتغيير نظرتنا
إليها، والاستعاضة عن السؤال حول خطاب الحقيقة، بالسؤال عن مفعولات الحقيقة
للخطابات.

يتعلق الأمر إذن بالنظر إلى الحقيقة كمفعول لا كفاعل، مفعول شيء آخر. هذا
الشيء الآخر هو ما يطلق عليه نيتشه القيمة والمعنى. من حيث إن معنى الشيء هو

علاقته بالقوة التي تتملكه⁽¹⁾، ومن حيث إن قيمته هي تراتب القوى التي تظهر فيه. ليست مسألة المعنى إذن هي مسألة الماهية، إنها ليست مسألة ميتافيزيقية. وقد سبق أن قلنا إن الجنيالوجيا قد أحلت محل السؤال ما هو؟ السؤال من؟ وما؟، أي ما هي القوى التي تتملك الشيء؟ لقد بين نيتشه أن إرادة المعرفة هي إرادة قوة، وأن المعرفة قوة وتسلط وأن المسألة النقدية هي معرفة قيمة القيم.

بناء على ذلك، فعندما يدعونا نيتشه إلى التخلي عن الطرح الميتافيزيقي لمسألة الحقيقة، بإقامة «سيكلوجيا» إرادة الحقيقة، ورصد التاريخ الجنيالوجي لهذه الإرادة، فهو لا يقصد شيئاً آخر غير رصد علائق القوى التي تشعذ الفكر وتخلق المعاني والقيم. لن تعود مسألة الحقيقة، والحالة هذه، مسألة معرفية، وإنما ستغدو مسألة أخلاقية. هذا ما أدركه نيتشه منذ كتاباته المبكرة، وما دفعه إلى قراءة تاريخ الميتافيزيقا من الوجهة الأخلاقية. يقول: «إن الناس لا يتلافون الخطأ والخداع بقدر ما يتلافون الحسارة التي تتولد عن الخطأ. فهم لا يكرهون الوهم، وإنما النتائج الوخيمة التي تتمخض عن بعض أنواع الوهم. إن الإنسان يتشبث بالحقيقة في مجال أضيّق، إنه يطمع في النتائج الممتعة للحقيقة، تلك النتائج التي تحفظ الحياة»⁽²⁾. بهذا المعنى ينبغي أن نفهم ما سبق أن أشرنا إليه في القسم الأول من هذا البحث، عندما قلنا بأن الجنيالوجيا ترد المسألة الميتافيزيقية إلى المسألة الأخلاقية، وأنها لا ترى في الأوهام الميتافيزيقية إلا عرضاً يدل على شيء آخر، وأن الفكر بالنسبة إليها لا يمكن أن ينتج، في نهاية الأمر، إلا استيهاماته وأحلامه. «فلذا ما أردنا أن نفهم ما الذي خلق الإثباتات الميتافيزيقية؟.. فإنه يجدر بنا أن نتساءل أولاً: إلى أية أخلاق تريد أن تعود بنا؟»⁽³⁾.

(1) يقول نيتشه: «إن منوج الحقيقة لم يوضع بدافع الحقيقة، وإنما من أجل دوافع القوة والهيمنة».

La volonté de puissance, T. 1, L. 1, aph. 190.

كما يقول: «كل معنى هو إرادة قوة».

Ibid. L.2, aph. 134.

Nietzsche, Le livre du philosophe, trd. A. K. Marietti, Aubier - Flammarion, 1969, (2)

p. 117.

Ibid. L.2, aph. 134. Nietzsche. Par-delà bien et mal, aph. 6 (3)

وراء إنتاج المعاني إذن قوى تهدف إلى الإخضاع والسيطرة. وما تفعله الميتافيزيقا هو اختزال تلك القوى، وحصر المعنى في الألفاظ اللغوية التي تحد المعنى وتحدده. لذا قلنا بأن نيتشه يرى في اللغة معقل الميتافيزيقا. ففي اللغة فقط تجد مفهومات «الوجود» و «الجوهر» و «الهوية» إمكانية دوامها وخلودها. إن الميتافيزيقا تنظر إلى الألفاظ اللغوية كخزانات تحفظ للمعاني أزليتها وتبقي على تطابقها. فعوض أن ترى في الدليل والعلامة مكان تناحر واختلاف، عوض أن تنظر إلى الدليل على أنه المكان التفاضلي الذي تؤثر فيه مختلف التأويلات، ترى فيه، على العكس من ذلك، مناسبة لحضور المعنى. يحاول نيتشه أن يقوم ضد هذا الاختزال الميتافيزيقي و «يبعث» العنف والقوة اللذين يؤسس بهما اللغوس فضاء السيميولوجي، ويضع بهما المعنى والنظام. يقول: «إن الفكر، في إدراكه لشيء ما، يخرق سلسلة من الدلائل التي تقدمها له الذاكرة فيبحث عن تشابهات. وإن الإنسان، عندما يطلق على شيء ما دليلاً بمثاله، يعتقد أنه قد تعرف على هذا الشيء، فيتملكه ويخضعه معتقداً بهذا أنه قد تملك أيضاً معناه. إن فعل الإخضاع والإمساك والاستحواذ كان يعني دائماً بالنسبة إليه طريقة في التعرف والمعرفة العنيفة» (4). بل إن الجنيولوجيا تذهب أبعد من ذلك فتكشف في الذات التي تتحدث عنها فلسفات الكوجيطو علاقة قوة وإرادة سيطرة: «إن ميلاد الأشياء من صنع ذلك الذي يتمثل ويفكر ويريد ويحسن (...) وحتى «الذات» فإنها ليست سوى اختلاق، كباقي الأشياء الأخرى. إنها تبسيط يراد به الإشارة إلى القوة التي تصنع وتخلق وتفكر» (5).

يريد نيتشه من وراء التاريخ الذي يقيمه للميتافيزيقا، التوصل إلى بنية القيم التي حكمت هذا التاريخ، البنية التي وضعت المعاني وأطلقت الأسماء وأولت العالم ولونته. من هنا تصبح اللغة ذاتها فعل سلطة، صادراً عن بيده الهيمنة وتصبح استراتيجية التسمية استراتيجية هيمنة وتسلط، يقول نيتشه: «إن حق السيد في إطلاق الأسماء يذهب إلى مدى بعيد، إلى حد أنه يمكن اعتبار أصل اللغة كفعل

سلطة صادر عن هؤلاء الذين يهيمنون. إن هؤلاء قالوا هذا كذا وكذا، وأصقوا بموضوع ما وفعل ما لفظاً معيناً قتملكوهما» (6).

مع نيتشه إذن هذا العالم مسكوناً بقوى تتناحر بغية الاستحواذ على كميات الواقع، ولما كان معنى الشيء هو القوة التي تستحوذ عليه وتملكه، أصبح توليد المعاني وعمليات التأويل أمراً لا يقف عند نهاية، مادامت القيم بسلاسلها وتراتها ترتد في النهاية لتلك القوى المتناحرة. يقول دولوز: «إن تاريخ شيء ما، هو على العموم تتابع القوى التي تستحوذ عليه وتعايش القوى التي تتصارع من أجل الاستحواذ عليه» (7). فإذا كان هناك تأويل، وتأويل لا متناه، فليس ذلك فقط لأن إرادة الحقيقة هي إرادة تأويل، بل لأن العالم ذاته لا يعرض علينا وجهه إلا على هيئة قناع، ولأن الواقع كتلة من الألوان والنوع. إلى حد أن نيتشه نفسه يذهب حتى القول بأن السؤال الجنيالوجي ليس حتى السؤال عما يؤول، مادام الواقع ينحل هو ذاته إلى حركة التأويل نفسها. يقول: «ليس من حقنا أن نتساءل: من ذلك الذي يؤول؟ إن التأويل ذاته، من حيث هو شكل لإرادة القوة هو الذي يوجد» (8).

ليست المعرفة بتراتها هي وحدها التي تخفي القوة، بل إن الواقع ذاته ليس إلا كمية من القوة سبق الاستحواذ عليها بعنف التأويل. يقول دولوز شارحاً الموقف الجنيالوجي: «لا وجود هنا لكمية من الواقع، فكل واقع هو مسبقاً كمية من القوة. لاشيء سوى كميات من القوة في علاقة توتر» (9).

اعتبار الواقع «كميات من القوة في حالة توتر» هو ما سيدفع فوكو إلى القول بأن الواقع من «إنتاج» السلطة، وبأن القوة والسلطة استراتيجية فعالة مهمتها «أن تنتج الواقع في غليانه وتعددده». سيدفع فوكو بالإشكالية النيتشوية إلى أبعد مداها. لذا فإن جنيالوجيا الحقيقة لن تنفصل عنده عن جنيالوجيا الذات والسلطة، حيث

Nietzsche. La généalogie ..., Chap. I, aph. 2 (6)

يقول نيتشه في المكان نفسه :

«أن تطلق الاسم هو أن تكون سيداً، هو أن تجعل من نفسك سيد الجميع».

Deleuze (G). Nietzsche et La philosophie, op. cité, p. 4. (7)

Nietzsche. La volonté de puissance, T. 1, L. 1, aph. 204 (8)

Deleuze (G). Nietzsche et la philosophie, op. cité, p. 45. (9)

يصبح التفكير في السلطة مدعاة إلى الاهتمام بالأتماط التي بموجبها تميز الثقافة ما بين مستويات القول وحدود الحقيقة. يتعلق الأمر بالأساليب التي يتحول معها الأفراد إلى ذوات، أي السبل التي بها يوضع الأفراد ذواتهم ويخضعونها لنظام خطاباتهم. لذا فإن السؤال الذي ما فتئ فوكو يطرحه على مواضيعه هو السؤال عن «إرادة المعرفة» التي تشحذ الخطابات وتدفعها إلى العمل.

نحن لسنا، في نظر فوكو، في حاجة إلى نظرية في السلطة بقدر ما نحن في حاجة إلى سياسة واقتصاد وتبوير جديد لعلائق السلطة. إن سؤال فوكو يمكن أن يصاغ على النحو التالي: كيف تشتغل السلطة وكيف تنتظم الحقيقة والسلطة معاً ضمن تشكيلة خطابية واحدة؟

ينطلق فوكو، تمهيداً للجواب عن هذا السؤال، من انتقاد احتكار الفكر السياسي لمفهوم السلطة. ذلك أنه لا ينبغي، في نظره، أن نبحث عن السلطة عند نقطة مركزية تكون هي الأصل، عند بؤرة وحيدة للسيادة تكون مصدر إشعاع لباقي الأشكال الثانوية التي تتولد عنها، وإنما ينبغي رسدها عند القاعدة المتحركة لعلائق القوى التي تولد، دوغماً انقطاع، وبفعل عدم التكافؤ بينها، حالات للسلطة، لكنها دوماً حالات محلية غير قارة. هناك مفهوم ميتافيزيقي لاهوتي من السلطة ينبغي لتوقيضه للوقوف عند تلك العلائق. فليست السلطة رأس هرم، وهي لا تنبع من فوق، ولا تنزل من أعلى، إنها تأتي من كل صوب، وهي حالة في كل مكان، حاضرة في جميع الأفعال وأنماط السلوك، وهي لا تفتأ تنتج نفسها في كل لحظة وحين. ولكن، ليس ذلك لأنها تتمتع بقدرة جبارة على احتضان كل شيء، وضمه تحت وحدتها التي لا تقهر، وإنما لأنها تتولد، كل لحظة، عند كل نقطة، أو بالأولى، في علاقة نقطة بأخرى.

إن المجتمع لا ينقسم وفق ثنائية ميتافيزيقية إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، إلى خير وشر، قاهرين ومقهورين، إلى من بيده السلطة ومن لا يمتلكها. ينبغي أن نفترض أن علائق القوى المتعددة التي تتكون وتعمل في أجهزة الإنتاج والأسر والجماعات الضيقة والمؤسسات تكون حاملاً للانقسامات التي تسري في

الجسم الاجتماعي بكامله. حينئذٍ ستشكل هذه الانقسامات العمود الفقري الذي يخترق النزاعات المحلية ويربطها فيما بينها. بناءً على هذا، فإن السلطة ليست متعالية على المجال الذي تظهر فيه، فيما هي علائق قوى، فإنها تكون محايثة للمجال الذي تعمل فيه تلك القوى، مكونة لتنظيم تلك العلائق فيما بينها. إن السلطة «لا توجد إلا كفعالية، حتى وإن كانت تنخرط في حقل من الإمكانات المتفرعة معتمدة على بنيات دائمة» (10)، إنها الحركة التي تحول تلك القوى فتزيد من حدتها أو تقلب موازينها بفعل الصراعات والمواجهات التي لا تنقطع. إنها السند الذي تجده تلك القوى عند بعضها البعض، حيث تشكل منظومة، أو على العكس تفاوتاً وتناقضاً يعزل بعضها عن بعض، السلطة هي الاستراتيجيات التي تفعل فيها تلك القوى فعلها، والتي يتجسد مرماها العام ويتبلور في مؤسسات أجهزة الدولة، وفي صياغة القانون وأشكال الهيمنة الاجتماعية. بناءً على ذلك، فإن علائق السلطة لا تقوم خارج أنواع أخرى من العلائق، وإنما هي محايثة لها. إنها النتائج المباشرة التي تتمخض عن التقسيمات والاختلالات التي تتم في تلك العلائق، وهي الشروط الداخلية للفروق الاجتماعية.

لا معنى إذن للقول بمراكز للسلطة، إن السلطة ليست متاعاً يكتسب، إنها ليست «شيئاً» يحصل عليه وينتزع أو يقتسم، شيئاً نحكركه أو ددعه يفلت من أيدينا. السلطة استراتيجية تمارس، وهي تمارس انطلاقاً من نقط لا حصر لها، وفي خضم علائق متحركة لا متكافئة. السلطة ليست مؤسسة أو بنية كما أنها ليست قوة خولت للبعض دون الآخر. وإنما «هي الاسم الذي نطلقه على وضعية استراتيجية معقدة في مجتمع معين» (11). وهذه الاستراتيجية لا تنحصر في وظيفتين: هما الحظر والمنع والإقصاء، ثم الإخفاء والتدليس والحمل على الاعتقاد. إن السلطة لا تقتصر على إنتاج القمع والإيديولوجيا وإنما تنتج «الواقع في غليانه وتعدد». فحينما يتساءل فوكو مثلاً في مطلع كتابه «إرادة المعرفة» عن خطابات الجنس فإنه ينبه أن

(10) Foucault. "Deux essais sur le sujet et le pouvoir", in Michel Foucault, un parcours philosophique H. Dreyfus et P. Rabinovitch, Gallimard, 1984, p. 312

Cf. Foucault. La volonté de savoir, Gallimard, 1976 (11)

« النقطة الرئيسية التي تشغله لا تتمثل في تحديد ما إذا كانت هذه الإنتاجات الخطائية، وهذه المفعولات التي تترتب عن السلطة قادرة أن تقودنا إلى الوقوف عند حقيقة الجنس أو على العكس، عند الأوهام الموضوعية قصد إخفاء هذه الحقيقة، إنها تمثل على الخصوص في إبراز « إرادة المعرفة » التي تلعب بالنسبة لها دور القاعدة والأداة في الوقت نفسه » (12).

لن تعود مسألة المعنى إذن متوقفة على تحديد مواطن الحقيقة. بل إن مفهوم الحقيقة ذاته سيتخذ معنى آخر ليصبح مجموع الطرق والعمليات التي يتم بفضلها إنتاج العبارات وتوزيعها وتداولها. صحيح أن الحقيقة ستظل مرتبطة بأنظمة السلطة التي تولدها وتدعمها، لكنها ستترابط أيضاً بمفعولات السلطة التي تتولد عنها. حينئذ سيصبح لكل مجتمع نظام معين للحقيقة، وسياسة للمعرفة، أي أنواع من الخطابات يقبلها ويسمح بتداولها وعملها على أنها خطاب الحقيقة، وآليات ومنابر تسمح بتمييز الصواب من الخطأ، وتقنيات وطرق للتوصل إلى الحقيقة، ووضعية معينة لأولئك الذين يوكل إليهم إصدار قول ما يعمل كحقيقة.

ليست مجاوزة الميتافيزيقا إذن هدماً لكل حقيقة، وإنما هي وعي الفكر أن كل تفكير ليس إلا مفعولاً لتأويلاته، وأن تاريخ الحقيقة والمعنى هو تاريخ ما قيل حول الحقيقة، وما أريد له أن يكون معنى.

خلاصة القسم الثاني

عندما تقحم المجاوزة الزمان في الكائن وتجعله في تباعد بينه وبين نفسه، وعندما تعين الذاتية كحركة لتوليد الفوارق فإنها لا تعلي مطلقاً من طرف من أطراف الأزواج الميتافيزيقية ضد الآخر، وإنما تسمى على العكس من ذلك، إلى التقريب بينهما. وقد أكدنا، غير ما مرة، أن الاختلاف لا يعني الانفصال والمصالحة. وما ينبغي أن نؤكد عليه هنا هو أن هذه المصالحة لا تعني إقامة وحدة، اللهم إن فهمنا الوحدة على أنها وحدة متصدعة منخورة. وقد اتضح لنا ذلك في القسم الأول من هذا البحث عند دريدا بوقوفه عند تلك الكلمات المتفجرة التي تنطوي على معنى وتقيضه فتنتطع بذلك عن كل تحديد وحصر، وتكون عاراً ونشازاً بالنسبة لمنطق الميتافيزيقا. لهذا قلنا إن التفكيك لا يعني الهدم، وإنما هو نوع من المصالحة والتوحيد.

إن تفكيك أزواج الميتافيزيقيا لا يمكن أن يقف عند زوج بعينه. وقد اتضح لنا من خلال هذا القسم الثاني من بحثنا أن الأزواج الميتافيزيقية التي تتغذى منها خطاباتنا أزواج متلاحمة، وأن خلطة مفهوم الهوية لا بد وأن يهز مفهوم النموذج

الأسلي ويثبت عالم السيمولاكر، وهذه الهزة بدورها لا بد وأن تؤدي إلى تقويض فلسفات الكوجيطو وخلطة الذاتية وتفكيك منطق المعنى وزعزعة مفهوم الحقيقة. وما كان لنا أن نصبل إلى هذا لو لم ثبت في القسم الأول الزمان كعود أبدي، ولم نخلخل فلسفة الحضور.

خاتمة

سبق أن رأينا في تمهيد هذا البحث مع فوكو أن مسألة مجاوزة الميتافيزيقا هي محاولة «للإنفلات من قبضة هيجل». وقد تأكد لنا ذلك خلال الفصول السابقة حيث كنا نجد، على امتداد بحثنا، فكر هيجل صامداً واقفاً أمام وجهنا، مما جعلنا نشعر في بعض الأحيان بجسامة المهمة وصعوبتها. وهذا أمر ينبهنا إليه فوكو في الفقرة نفسها التي استقينا منها العبارة السابقة إذ يقول: «الإنفلات الفعلي من قبضة هيجل يفترض أننا مدركون، في حدود ما يسمح لنا بالتفكير ضد هيجل، لما تبقى لدينا من الهيجلية، وأتينا، إلى جانب ذلك، واهون بأن محاربتنا له، ما هي بلاضك، إلا مكيدة نصبها لنا ليكون هناك ثابتاً في انتظارنا» (1). هذه المكيدة الهيجلية ربما لم تكن إلا مكيدة التاريخ الميتافيزيقي بأكمله، بل مكيدة الوجود (2) الذي يفرض علينا أن نعيش على الحقائق، وأن نتكلم اللغة، ونستخدم المفاهيم ونخلق الوحدات ونركن إلى التراث، ونستشعر نوعاً من الدوام والاستمرار، ونطمئن إلى التشابه والانسجام،

(1) Foucault, *L'ordre du discours*, op. cité, pp. 74 - 75

(2) Althusser, "Sur le rapport de Marx à Hegel" in *Lénine et le philosophie*, F.M.

ونركن إلى التطابق والوحدة. بهذا تبدو كل مجاوزة الميتافيزيقا، وكل انفلات من القبضة الهيكلية محاولة يائسة لا جدوى منها. وبالرغم من ذلك فإن الأمر لا يظهر، في نظرنا، على هذا النحو إلا انطلاقاً من فصل أولي بين الميتافيزيقا ومجاوزتها. إن هذا الفصل سيكون هو ذاته فصلاً ميتافيزيقياً إن هو جعل قيام طرف إلغاء نهائياً للأخر، ولم يقحم أحد الأطراف في الآخر. وقد سبق أن أكدنا، غير ما مرة، أن المجاوزة لا تتم، ولا يمكن أن تتم بمعزل عن التاريخ الميتافيزيقي، وأن توليد الاختلاف وخلق الفوارق لا يتم بعيداً عن التطابق والهوية. فلا معنى لاستراتيجية الهدم إلا مقابل استراتيجية البناء. ولا موت بدون حياة، ولا تعدد بدون وحدة، ولا اختلاف من غير تطابق. فالفصل لابد وأن يفترض التقريب والمصالحة. وكلاهما يدخل في «تحديد» الاختلاف كما رأينا. إن المجاوزة لابد وأن تفترض الميتافيزيقا. وكل حقيقة لابد وأن تفترض اللاحقية، وكل انكشاف لابد وأن يفترض الاختفاء.

يتضح إذن أن مجاوزة الميتافيزيقا استراتيجية لا نهاية لها. إذ لا يتعلق الأمر، كما يؤكد ألتوسير «بالإلغاء الميتافيزيقي وحذفها، مثلما لا يتعلق الأمر عند فرويد بحذف اللاشعور» (3). الأمر يتم هنا كما يتم في التحليل النفسي (4). إن فرويد يبحث عن أليات اللاشعور الذي ينتج المعنى، ويتجه انطلاقاً من اللامعنى. فلا يبتني التنقيب في أفعال اللاشعور إلغاء اللاشعور وإلغاء اللامعنى للوقوف عند المعنى الأصلي. كل ما يفعله التأويل الفرويدي يمثل في إنتاج المعنى انطلاقاً من المركب اللاشعوري. والأهم من ذلك أن إنتاج المعنى هنا أيضاً يعني في الوقت ذاته هدماً وبناء: فهدم المعنى الشعوري التلقائي هو إنتاج المعنى اللاشعوري الذي يعرض علينا

(3) يقول ديشه :

«حتى لو افترضنا أن كل شيء مبرور فلا إمكان للمعرفة إلا إذا اطلقنا من التراض الإيمان بالوجود الثابت».

La volonté et la puissance, op. citée, T.I, L.I, aph. 136.

كما يقول : «هناك ضرورة خلق الصور والتطابق...».

Ibid, aph. 135.

(4) يقول لاكان :

«في اللاشعور توجد معرفة لا يلزم أن تتصورها مطلقاً كما لو كانت معرفة قابلة لأن تنتهي أو تتنق على نفسها».

Lacan. Séminaire XI, Les 4 concepts fondamentaux de la psychanalyse, Seuil, 1973, p.

122.

غيابه كعلامة لحضوره. إذ أن نظام اللاشعور نظام تحكمه آلية التكرار والعود الأبدي. وقد بين دريدا أننا عندما نقول بأن اللاشعور لازماني فليس ذلك إلا داخل مفهوم معين عن الزمان هو الزمان الميتافيزيقي، زمان الحضور. إن نظام اللاشعور هو نظام «الرسالة المسروقة» الذي أفلح لاكان في بلوغ معانيه العميقة حين بين لعبته التي تقوم باستمرار على الحقاء والتجلي. وقد حاولنا فيما سبق أن نبين أنها هي اللعبة ذاتها التي يقوم عليها النص الميتافيزيقي حينما قلنا، مع نيتشه، إنه عملية لامتناهية لخلق الاستعارات والرموز. وهي لا متناهية لأن الوظيفة الرمزية بنية تستغرق مجال الإنسانية كما بينت الأنثروبولوجيا. ولأن «الإنسان يتكلم لأن الرمز جعل منه إنساناً» كما يقول لاكان.

هذه الإشارات المتفضية إلى التحليل النفسي وإلى الأنثروبولوجيا أمر له دلالة الكبرى في هذا السياق. لقد سبق أن أكدنا أن الميتافيزيقا لا «تخضر» فقط في ما عهدنا على تسميته في تاريخ الفلسفة نصوصاً ميتافيزيقية، إنها ليست فرعاً من فروع المعرفة، وإنما هي حاضرة في جميع الأشكال الثقافية والسلوكية للإنسان. بل إنها بنية الوجود وتاريخ الكائن. لذا فإن مجاوزتها لا يمكن أن تقتصر على عملية نقد للنصوص الفلسفية وتأويلها. فالتفكيك والتقويض يطالان جميع الأشكال الثقافية ويتصيدان الأوهام الميتافيزيقية التي تسكن النص الميتافيزيقي، ولكن أيضاً تلك التي تنقش على الجدران وتحل في اللغة وتوشم على الأجسام. وقد سبق لنيتشه أن بين هذه العلاقة الوطيدة بين الميتافيزيقا والجسد: «فندما تخور قوى الفرد ويحس أنه مريض أو متمب... سرعان ما يتحول إلى رجل أفضل... ولا يمكن لأفكاره المتشائمة إلا أن تصاغ في قوالب من الكلم والتأملات يتحول بعدها إلى مفكر أو مبشر فيعمل خياله على تطوير معتقده الخرافي» (5) وهن الجسم وخوره أمور لها أسلها الميتافيزيقي، إنها موروثه من أسلاف اقترفوا أخطاء «فندما يحملون النتائج محمل الأسباب ويصطنعون قيمة الخلود، أجساد أبنائهم هي التي تدفع الثمن» (6). تتمتع الميتافيزيقا إذن بنوع من الصلابة والترسيخ إنها منقوشة على الأحجار، موشومة

Nietzsche, Aurore; aph. 42 (5)

Foucault, "Nietzsche, la généalogie et l'histoire", op. cité (6)

على الأجساد التي تحفظ آثار التاريخ، مادامت هي مولد الرغبات. ففيها تنعقد عراها ثم تختفي بفتة، بل فيها تنحل لتدخل في صراع تتلاشى بعده في أثر بعضها، ويتوالى خصاصها على هذا النحو بلا كلل. ولأن الأمر كذلك فهناك صراع بين الإرادات وتدرج للقيم واختلاف للمعاني ونظام للحقيقة.

المراجع

- Alleman (B), **Hölderlin et Heidegger**, Trad. Fédier, P.U.F. Paris, 1959.
- Althusser (L.), **Lénine et la philosophie**, F.M., Paris, 1972.
- Althusser (L.), **Pour Marx**, F.M. Paris, 1965.
- Althusser (L.), Balibar (E), **Lire le capital**, T.I, F.M., Paris, 1968.
- Althusser (L.), **Positions**, E. Sociales, Paris, 1976.
- Althusser (L.), **Eléments d'autocritique**, Hachette, Paris, 1974.
- Arabi (Oussama), **Wittgenstein**, Vrin, 1982.
- Assoun (P.L.), "Wittgenstein séduit par Freud, Freud saisi par Wittgenstein". in **Le Temps de la réflexion II**, 1981.
- Assoun (P.L.), **Marx et la répétition historique**, P.U.F., 1978.
- Assoun (P.L.), Rault (G), **Marxisme et théorie critique**, Payot, 1978.
- Austin, **Quand dire c'est faire**. Seuil, Paris.
- Augé (M), **Pouvoirs de vie, Pouvoirs de mort**. Flammarion, 1977.
- Axelos (K), **Heracrite et la philosophie**, Minuit, 1962.
- Bachelard (G), **Le nouvel Esprit Scientifique**, P.U.F., 1971.
- Bachelard (G), **L'activité rationaliste de la physique contemporaine**, P.U.F. 1965.

- Bachelard (G), **Le matérialisme rationnel**, P.U.F., 1963.
- Bachelard (G), N° spécial de la revue L'ARC, n° 42.
- Bachelard (G), **Le rationalisme appliqué**, P.U.F. 1966.
- Bachelard (G), **La philosophie du non**, P.U.F. 1966.
- Bachelard (G), **Colloque de Cerisy**, 10/18, U.G.E.
- Backès-Clément (C), "Lacan ou le porte-parole" *in Critique* n° 249, Fév. 1968.
- Backès-Clément (C), "A l'écoute de Derrida", *in L'ARC* N° 54.
- Backès-Clément (C), et autres, "Pour une critique marxiste de la théorie psychanalytique", E. Sociales, 1973.
- Backès-Clément (C), "Freud et Lacan, symbolique et production idéologique", *in la Nouvelle Critique*, n° spécial.
- Badiou (A), **La théorie du sujet**, Seuil, 1982.
- Badiou (A), "Le re-commencement du matérialisme dialectique", *in critique*, n°
- Barthes (R), **Barthes par lui même**, Seuil, Paris, 19.
- Barthes (R), **Le bruissement de la langue**, Seuil, Paris.
- Barthes (R), "Théorie du texte", *in E.U.*
- Barthes (R), "Savoir et Folie", *in Critique*.
- Barthes (R), **Le grain de la voix**, posthumes, Seuil, 1981.
- Barthes (R), "Le discours de l'histoire", *in Poétique* n° 49, Fév. 1982.
- Barthes (R), **Prétextes: R. Barthes**, Colloque de Cérisy, U.G.E. 1978.
- Barthes (R), **Leçon**, Seuil, Paris.
- Bataille (G), **L'expérience intérieure**, Gallimard, Coll. TEL, 1978.
- Bataille (G), **La part maudite**, Minuit, 1967.
- Bataille (G), **Oeuvre complète**, VI, **La Somme athéologique** L. II, Gallimard, 1973.
- Bataille (G), **Colloque de Cerisy**, 10/18 U.G.E, 1973.
- Bataille (G), n° spécial de la revue L'ARC, n° 44.
- Baudrillard (J), **De la séduction**, Denöel/Gonthier, 1979.
- Baudrillard (J), **Pour une critique de l'économie politique du signe**, Gallimard, Coll. TEL.
- Beaufret (J), **Introduction aux philosophies de l'existence**, Denöel / Gonthier, 1971.
- Beaufret (J), **Dialogues avec Heidegger**, T.I, 1973, Minuit.

- Beaufret (J), *Dialogues avec Heidegger*, T.II, Minuit, 1973.
- Beaufret (J), *Dialogues avec Heidegger*, T.III, Minuit, 1974.
- Beaufret (J), *Présentation du poème de Parménide*, P.U.F. 1955.
- Beaufret (J), *L'endurance de la pensée*, Pour saluer J. Beaufret, Plon, 1968.
- Bellour (R), "L'homme, les mots", in *Magazine Littéraire* n° consacré à Foucault.
- Bellour (R), *Le livre des autres*, 10/18, U.G.E. 1978.
- Benoit (J.M), *La révolution structurale*, Denoël / Gonthier, 1980.
- Birault (H), *Heidegger et l'expérience de la pensée*, Gallimard, 1978.
- Blanchot (M), *La part du feu*, Gallimard, 1972.
- Blanchot (M), *L'entretien infini*, Gallimard, 1969.
- Blanchot (M), *L'espace littéraire*, Idées / Gallimard, 1978.
- Blanchot (M), "Le jeu de la pensée", in *Critique*, n° 195-6, Août-Sept., 1963.
- Blanchot (M), *Le pas-au-delà*, Gallimard, Paris, 1972.
- Blanchot (M), "Traces", in *La N.R.F.*, n° 129, Sept. 1973.
- Blanchot (M), "Le rire des Dieux", in *La N.R.F.*, Juillet, 1965.
- Blanchot (M), "L'exigence du retour", in *L'ARC*, n° 43.
- Bloch (M), *Apologie pour l'histoire*, A. Colin, 1974.
- Bourdieu (P), *La distinction*, Minuit, 1980.
- Bouveresse (J), *La parole malheureuse*, Paris, Minuit, 1971.
- Bouveresse (J), *Le mythe de l'intériorité*, Minuit 1976.
- Bouveresse (J), *Les derniers jours de l'humanité*, in *Critique*.
- Bouveresse (R), *K. Popper* Vin, Paris, 1978.
- Braudel (F), *Écrits sur l'histoire*, Flammarion 1969.
- Broc-Lapeyre (M), "Insinuations perverses, un vice de forme", in *Critique* n° 313, Juin 73.
- Burgelin, "l'archéologie du savoir" in *Esprit*, Mai 1967.
- Canguilhem (G), *Études d'Histoire et de philosophie des Sciences*, Vrin 1970.
- Canguilhem (G) "Mort de l'homme ou épuisement du Cogito", in *Critique* n° 242, 1976.
- Chassard (P), *Nietzsche: Finalisme et Histoire*, Copernic, Paris, 1977.
- Chesneaux (J), *Du passé, faisons table rase*, F.M. Paris 1976.
- Clavelin "Elucidation philosophique et écriture conceptuelle dans le *Tractatus*", in *Wittgenstein et le problème d'une philo. de la science*,

Colloque, Juillet 1969 C.N.R.S. 1970.

Collin (F), "Ecriture et matérialité", in *Critique*, n° 279-80, Août-Sept. 1970.

Collin (F), *M. Blanchot et la question de l'écriture*, Gallimard, 1971.

Comte (A), *Cours de philosophie positive*, T. I.

Cotten (J-P), *Heidegger*, Seuil, 1974.

Cressole (M), *Deleuze*, éd. Universitaires, Paris, 1973.

Deleuze (G), *La philosophie critique de Kant*, P.U.F. 1963.

Deleuze (G), *Nietzsche et la philosophie* P.U.F. 4ème éd. 1973.

Deleuze (G), *Nietzsche*, P.U.F. 1965.

Deleuze (G), *Différence et répétition*, P.U.F. 1976.

Deleuze (G), *Logique du sens*, Minuit, U.G.E. 10/18, 1969.

Deleuze (G), & Guattari

Capitalisme et schizophrénie T.1 l'anti-Oedipe. Minuit.

Deleuze (G), "Un nouvel archiviste", in *Critique* n° 274 Mars 70.

Deleuze (G), "Faille et feux locaux" in *Critique* n° 275, Avril 70.

Deleuze & Guattari, *Rhizome* introduction, Minuit, 1976.

Deleuze & Parnet, *Dialogues*, Flammarion, 1977.

Deleuze (G), *L'ARC* n° 49.

Deleuze (G), "Spinoza et la méthode de Gueroult, R.M.M. 74 année. N° 4, Oct-Déc. 1969.

Deguy, "La haine de la philosophie, in *le Temps de la Réflexion* n° 1, 1981.

Derrida (J), *Introduction à l'origine de la géométrie*, Paris, P.U.F., 1962.

Derrida (J), *L'écriture et la différence*, Seuil, Paris, 1967, Coll. points.

Derrida (J), *La dissémination*, Seuil, 1972.

Derrida (J), *De la Grammatologie*, Minuit, 1967.

Derrida (J), *Positions*, Minuit, 1972.

Derrida (J), *Marges de la philosophie*, Minuit, 1972.

Derrida (J), *La voix et le phénomène*, P.U.F. 1967.

Derrida (J), *Glas*, Galilée, Paris, 1974.

Derrida et autres, *Politiques de la philosophie*, Grasset, 1976.

Derrida et autres, *Les fins de l'homme à partir du travail de Derrida*, Galilée, 1981.

Desanti (J-T), *Introduction à la Phénoménologie*, Idées/ Gallimard 1976.

- Desanti (J-T), *Introduction à l'histoire de la philosophie* E.S. 1956.
- Descombes (V), *Le même et l'autre*, Minuit, 1979.
- D'Hondt (J), *Hegel: philosophie de l'histoire vivante*, P.U.F. 1966.
- Dieguez, (Manuel de) *Science et nescience*, Gallimard, 1970.
- Ducrot - Todorov et autres, *Qu'est ce que le structuralisme*, Seuil, 1968.
- Dufrenne, *Pour l'homme*, Seuil, 1975.
- Durançon, G. Batnille, *Idées/ Gallimard*, 1976.
- Durand (G), *Les structures anthropologiques de l'imaginaire* Bordas, Paris, 1979.
- Durand (G), *L'imagination symbolique*, P.U.F., 1964.
- Domrchi (J), *Marx et l'Histoire*, L'Herne, Paris, 1972.
- Dreyfus H et Rabinow
 Michel Foucault un parcours philosophique. Trad. F. Durand-Bogaert, Gallimard, 1984.
- U. Eco, & I. Pezzini "La sémiologie des Mythologies, *Communications*, n° 36, 1982, Seuil.
- Escoubas (E), "L'espace de la métaphysique", *in Critique*, N° 313, Juin, 73.
- Engels (F), *L. Feuerbach et la fin de la philosophie Classique allemande*, E.S.
- Faye (J-P), *Théorie du récit*, Hermann, Paris, 1972.
- Febvre (L), *Vers une autre histoire*.
- Feuerbach, *Manifestes philosophiques*, Trad. L. Althusser 10/18. U.G.E. P.U.F. 1960.
- Fichant-Pêcheux, *Sur l'Histoire des Sciences*, F.M. Paris.
- Finas (L), et autres, *Ecartis*, Fayard, 1973.
- Fink, *De la phénoménologie*, trd. D. Franck, Minuit, 1974.
- Foucault (M), *Les mots et les choses*, Gallimard, 1966.
- Foucault (M), *L'ordre du discours*, Gallimard, 1977.
- Foucault (M), *Histoire de la folie*, 10/18, U.G.E.
- Foucault (M), *l'Archéologie du savoir*, Gallimard, 1975.
- Foucault (M), *Surveiller et punir: Naissance de la prison*, Gallimard, 1975.
- Foucault (M), *La volonté de savoir*, Gallimard, 1976.
- Foucault (M), "Préface à la transgression" *in Critique* n° 195-6, Août-Sept. 63.

- Foucault (M), "La Pensée du dehors" in critique n° 220, Juin 66.
- Foucault (M), "Theatrum philosophicum", in Critique n° 282 Nov. 1970.
- Foucault (M), "La Prose d'Actéon" N.R.F. Mars. 1964.
- Foucault (M), Histoire de la folie, Gallimard, 1972.
- Foucault (M), L'impossible prison, Recherches sur le système pénitentiaire XIX, Textes réunis par M. Perrot, Seuil, Paris, 1980.
- Foucault (M), Naissance de la clinique, P.U.F. 1963.
- Foucault (M), "Nietzsche, Freud, Marx" in Nietzsche, Colloque de Royaumont, Minuit, 1967.
- Foucault (M), "Nietzsche: La généalogie et l'histoire", in Hommage à Hypolite, P.U.F., 1971.
- Foucault et les historiens avec J. Revel in magazine Littéraire, n° spécial.
- Fougeyrollas (P), Contradiction et totalité, Minuit, 1964.
- Freud, Métapsychologie, Trd. Laplanche & Pontalis, Idées/Gallimard, 1978.
- Freud, Introduction à la psychanalyse, Payot P.B.P.
- Freud, Essais de psychanalyse, P.B.P. 1977.
- Freud, L'ARC, N° 34.
- Garaudy (R), K. Marx, Seghers, 1964.
- Garaudy (R), Structuralisme et "Mort de l'homme", la pensée N° 135 Oct. 1967.
- Garaudy (R), Dieu est mort, Etudes sur Hegel, P.U.F. 1970.
- Genette (G), "L'homme et les signes", in Critique n° 213 Fév. 1965.
- Giovannangeli (D), Ecriture et répétition, 10/18, U.G.E. 1979.
- J.L. Giribone "Les phénomènes... et le reste", in communications N° 36, 1982, Seuil.
- P. Gisel, "Perspectivisme Nietzscheen et discours théologique", in Concilium N° 165, Mai 1981.
- Glucksman (A), "Préméditations nietzschennes", in Critique n° 213, Fév. 65.
- Buci-Glucksmann (C), "Déconstruction et critique marxiste de la philosophie, in l'ARC, N° consacré à Derrida.
- Goux J.J., Freud, Marx, Economie et symbolique, Seuil, Paris, 1973.
- Granarolo (P), "Heidegger, penseur de l'époque planétaire", Annales de la faculté des lettres de Nice, N° 20, Les belles lettres Monaco, 1973.

- Granel (G), *Traditions Tradition*, Gallimard, 1972.
- Granel (G), *L'équivoque ontologique de la pensée Kantienne*, Gallimard, 1970.
- Granel (G), "E. Husserl" art. de l'E.U. T. VIII.
- Granel (G), "J. Derrida et la rature de l'origine", in *Critique* n° 259 Déc. 1968.
- Granier, Nietzsche et le problème de la vérité, Seuil.
- Granier J. "Penser avec et contre Nietzsche", in *Concilium* N° 165, Mai 1981.
- Granger (G), Wittgenstein et le métalangage, in *Wittgenstein et le problème d'une philo de la science*. Colloque Aix, Juillet, 1969, éd. CNRS, Paris, 1970.
- Greimas, *Sémiotique et sciences sociales*, Seuil, 1976.
- Greimas, *Du sens*, Seuil, 1970.
- Greisch (J), *Hermeneutique et Grammatologie*, éd. C.N.R.S. Paris, 1977.
- Greich (J), "L'éternel retour de l'autre, Nitz et les philosophes de la différence" in *Concilium* N° 165, Mai, 1981.
- Gurvitch, *dialectique et sociologie*, Flammarion, 1962.
- Habermas (J), *Connaissances et intérêts*, T.G. Cléménçon/ Gallimard, 1976.
- Habermas (J), *Profilis philosophiques*, Trd. F. Dartin, Gallimard, 1974.
- Habermas (J), *La technique et la science comme idéologie*, trd. J.R. Ladmiral, Denoël / Conthier 1973.
- P. Hamon, "Texte et idéologie", *Poétique* N° 49, Fév. 1982.
- Hegel, *Leçons sur l'histoire de la philo.*, trd. Gibelin 6ème éd. Gallimard, 1954.
- Hegel, *Science de la logique*, Trd. Labrière & G. Jarczyk Aubier. Montaigne 1972.
- Hegel, *La Phénoménologie de l'Esprit*, trd. hyppolite Aubier-Montaigne.
- Hegel, *Encyclopédie des sciences philos en abrégé* trd. M. Gandillac. Gallimard, 1977.
- Hegel, *Propédeutique philosophique*, trd. M. de Gandillac, Conthier, 1964.
- Hegel, *Morceaux choisis I & II, Idées*/ Gallimard 1969.
- Hegel, *La Raison dans l'Histoire*, trd. K. Papaioannou, 10/18 U.G.E. 1965.
- Hegel et la pensée moderne, Séminaire sur Hegel dirigé par J. Hyppolite P.U.F. 1970.
- Heidegger (M), *Qu'appelle-t-on Penser ?*, Trd. par Becker et G. Granel, P.U.F. 1959.

- Heidegger (M), *Le principe de raison*, Trd. Préau, Gallimard, 1962.
- Heidegger (M), *Question I, II, III, IV.*, Gallimard, 1968, 1966, 1950.
- Heidegger (M), *Introduction à la métaphysique*, Trd. G. Kahn, Gallimard, 1967.
- Heidegger (M), *Chemins*, Trd. Brokmeier, 1962/ Gallimard.
- Heidegger (M), *Réponses et questions sur l'histoire et la politique*.
- Heidegger (M), *Nietzsche I&II*, Trd. P. Klossowski. Gallimard 71.
- Heidegger (M), *Kant et le problème de la métaphysique*, Trd. A. de Waelhens et W. Biemel Gallimard.
- Heidegger (M), *Essais et conférences*, Trd. A. préau Gallimard, 1958.
- Heidegger (M), *L'être et le temps*, Trd. De Waelhens, Gallimard.
- Heidegger - Fink, *Hérachite*, trd. J. Launay, P. Levy, Gallimard, 1973.
- Heidegger - Cassier, *Débat sur le kantisme et la philosophie*, Beauchesne, Pa-ris 1972.
- Heidegger (M), *Lettre sur l'humanisme*, in Q. IV.
- Heidegger (M), *Acheminement vers la parole*, trd. Beaufret, Brokmeier, Féd-ier. Gallimard, 1976.
- Heidegger (M), *Approche de Hölderlin*, Corbin - Deguy - Fédier, Gallimard, 1973.
- Heidegger (M), *Qu'est ce qu'une chose ?*, trd. J. Rebou, J. Taminiaux, Gallimard, 1971.
- Heidegger et la question de Dieu, Collectif. Grasset, 1980.
- Husserl (E), *Méditations cartésiennes*, int. à la phénoménologie, trd. Lévinas Vrin, 1966.
- Husserl (E), *La philosophie comme science rigoureuse*, trd. Laner. P.U.F. 1955.
- Husserl (E), *La crise des sciences européennes et la phénom.* Voir les Etudes philosophiques, 1948.
- Husserl (E), *La philosophie comme sciences rigoureuses*, P.U.F. 1955.
- Hypolite (J), *Logique et existence*, Essai sur la logique de Hegel, P.U.F., 1953.
- Hommage à J. Hypolite, P.U.F. 1971.
- M. Izard & p. Smith, *La fonction symbolique*, Paris, Gallimard, 1979.
- Janicaud D., "Dépasser la métaphysique", in *Annales de la faculté des lettres de Nice* N° 20, 1973, Monaco.
- Janik, Wittgenstein, Vienne et la modernité, P.U.F., 1978.

- Jaspers, Nietzsche int. à sa philosophie, Tel, Gallimard, 1978.
- Jeudy H.P., La mort du sens, l'idéologie des mots, mane, 1973.
- Juin (H), "La révolution poétique de Mallarmé": in *un magazine littéraire*. N° spécial.
- Kant (E) critique de la raison pure, trd. Trem. et Picau, P.U.F. 6ème éd. 1968.
- La révolution Kantienne, collectif, idées / Gallimard, 1978.
- Kierkegaard (S), Post-Scriptum, trd. p. Petit, Gallimard, 1978.
- (Collectif), idées / Gallimard, 1966.
- Klossowski P, Nietzsche et le cercle vicieux, Mercure de France, 1969.
- Klossowski P, Un si funeste désir, Gallimard, 1978.
- Klossowski P, "A propos du Simulacre dans la communication de G. Bataille", in *Critique* N° 195-6 Août-Sept. 1963.
- Kofman (S), Nietzsche et la métaphore, Payot, Paris, 1972.
- Kofman (S), Nietzsche et la scène philosophique, 10/18, U.G.E. 1979.
- Kofman (S), Caméra Obscura, De l'idéologie, galilée, 1973.
- Kojeve Kant Gallimard, 1973.
- Kojeve, Introduction à la lecture de Hegel, Gallimard, Paris, 1971.
- Kolakowski, La philosophie positive, Science et philosophie, Trd. C. Brendel, Couthier, 1976.
- Koyré A., Etudes d'histoire de la pensée philosophique, Tel. Gallimard, 1971.
- Kremer-Marietti (A), M. Foucault, Seghers, 1974.
- Kremer-Marietti (A), "Différence et qualité", R.M.M. 1970.
- Kristeva, Sémiotique, Points, Seuil, 1969.
- Labarrière, Structure et mouvement dialectique dans la Phénoménologie de Hegel, Aubier-Montaigne, 1969.
- Lacan, Ecrits I & II, Seuil 1966 & 1971.
- Lacoue - Labarthe et Nancy (J.L), Le titre de la lettre, Galilée, Paris, 1973.
- Lacoue - Labarthe et Nancy (J.L), "L'oblitération", in *Critique* N° 313 Juin 1973.
- Ph. Lacoue - Labarthe et Nancy (J.L), L'absolu littéraire, Seuil, 1978.
- Laffoucrière O. Le destin de la pensée et la mort de Dieu selon Heidegger M. Nijhoff, Lahaye 1968.
- J.P. Lalloz, "Pourquoi y-a-t-il l'étant et non pas plutôt rien? R.M.M. 87 année n° 3, Juillet - Sept. 1982.
- Laplanche - J, Hölderlin et la question du père 4ème éd. P.U.F. 1969.

- Laplanche & Pontalis, "Origine du fantasme" in *Les Temps Modernes*, Avril, 1964.
- Laplanche & Pontalis, *Vocabulaire de la psychanalyse*, P.U.F. 1967.
- Laplanche - J, *Vie et mort en psychanalyse*, Flammarion, 1970.
- Laplanche - J, "Interpréter (avec) Freud", in *l'ARC*, N° 34.
- Laporte R., "Hölderlin ou le combat poétique", in *Critique*, n° 259, Déc. 1968.
- Laporte et autres, *Ecats*, Fayart.
- Laruella F. *Le déclin de l'écriture*, Aulier - Flammarion, 1977.
- Leclaire et Laplanche, "l'Inconscient; une étude psychanalytique", VI, Colloque de Bonneval, Desclée de Bower - Paris, 1966.
- Lecourt D., pour une critique de l'épistémologie, F.M. 1972.
- Lecourt D., *La philosophie sans feinte*, Hallier/ A. Michel, 1982.
- Lecourt D., *Bachelart, le jour et la nuit*, Grasset, 1974.
- Lecourt D., *L'épistémologie historique de Gaston Bachelard*, Vrin.
- Lecourt D., *L'ordre et les jeux*, Grasset, 1981.
- Le fébvre H., Marx P.U.F., 1964.
- Le fébvre H., *Le matérialisme dialectique*, P.U.F., 1962.
- Le fébvre H., *La somme et le reste*, La Nerf de Paris, 1959.
- Le fébvre, *Réflexions sur l'histoire*, F.M. 1978.
- Le Gal (Yves), "Unzeit gemäs", in *Concillium*, n° 165, Nietzsche et le christianisme Branchesne, Mai, 1981, Paris.
- Le Goff & P. Nora (sous la direction de) *Faire de l'histoire*, Gallimard, 1974.
- Lemaire A., J. Lacan P. Mardaga Bruxelles, 1977.
- V. Lénine A. *Cahiers philosophiques*, E.S. & E. du progrès, Paris-Moscou, 1973.
- Le Roy-Ladurie, *Le territoire de l'historien*, Tel / Gallimard, 1973.
- Lévesque C., *L'étrangeté du texte*, 10/18, éd. V.L.B. 1978.
- Lévinas E. *De l'existence à l'existant*, Fontaine, Paris, 1947.
- Lévinas E., *En découvrant l'existence avec Husserl et Heidegger*, Vrin, 3ème éd. 1974.
- Lévinas E., *Sur Blanchot, Fata morgana*, 1975.
- Lévinas E., *l'humanisme de l'autre homme*, Fata morgana Montpellier, 1972.
- Lévinas E., "Tout autrement", in *l'ARC*. n° consacré à Derrida, voir Derrida.
- Lévi-Strauss C., *Textes de / sur Lévi-Strauss*, Idées / Gallimard, 1979.

- Lévi-Strauss C., *La pensée sauvage*, Plon.
- Lévi-Strauss C., *Tristes tropiques*, 10/18, U.G.E.
- Lévi-Strauss C., *Anthropologie structurale I & II*, Plon.
- Lilvet (P.), Heid : la référence et la différence, *Les études philosophiques*, Juillet - Sept. n° 3, 1981.
- Loreau M., "La philosophie comme construction nécessaire du mythe d'origine", in *Recherche I*.
- Löwith K., *De Hegel à Nietzsche*, Trd. Laureillard. Gallimard, 1969.
- Luk'acs (G), *Histoire et conscience de classe*, Minuit, 19.
- Lyotard, *La phénoménologie*, P.U.F., 1964.
- Macherey (P), *Hegel ou Spinoza*, F.M., Paris, 1979.
- Malherbe, *La philosophie de Popper et le positivisme logique*, Paris, 1976.
- Mallarmé (S.), "Mallarmé: "Le monde est fait pour aboutir à un beau livre", entretien in magazine littéraire.
- Man (Paul de), "la circularité de l'interprétation dans l'oeuvre critique de M. Blanchot", in *Critique* n° 229, Juin 1966.
- Mannoni (O), *Freud*, Seuil, 1968.
- Mannoni (M), *La théorie comme fiction*, Seuil, 1979.
- Manville A, "Métaphysique et histoire" in *R.M.M.* 87 année n° 3, Juillet 1982.
- Marcuse (H), *L'ontologie de Hegel et la théorie de l'historicité*, Trd. G. Raulet & H.A. Baatsch, Minuit, 1972.
- Marcuse (H), *Philosophie et révolution*, trd. C. Heim Denöel / Conthier, 1969.
- Marrou (H), *Théologie de l'histoire*, Seuil 1968.
- Marrou (H), *Saint-Augustin et l'augustinisme*, Seuil, 1955.
- Marrou (H), *De la connaissance historique*, Seuil, 4ème éd. 1962.
- Martin (G), *Science moderne et ontologie traditionnelle chez Kant*, P.U.F., 1963.
- Marx (K), *Contribution à la critique de l'économie politique*, Trd. Husson - Badin, E.S. 1966.
- Marx (K), *Le Capital* Liv. 1, Garnier - Flammarion, 1969.
- Marx (K), *Critique du droit politique de Hegel*, E.S. Paris, 1975.
- Marx (K), *Critique de l'état Hegelien*, (Manuscrits de 1843), trd. Papaioannon 10/18, 1976.

- Marx (K) **Manuscrits de 1844**, Trd E. Bottigelli E.S. 1969.
- Marx (K), **Théories sur la plus-value**. (Liv. IV du Capital), T.1, E.S. 1974.
- Marx - Engels, **L'idéologie allemande**, trd. Badia & Alger & Baudrillard Cartell, E.S. 1968.
- Marx - Engels, **La sainte famille**, trd. E. Cogniot E.S. 1972.
- Marx - Engels, **Études philosophiques**, E. Sociales 1968.
- Marx - Proudhon, **Misère de la philosophie & philosophie de la misère** 10/18, E.G.E. 1964.
- Mauss (M), **Sociologie et anthropologie**, introduction de Levi-Strauss, P.U.F.
- Merleau-Ponty (M), **Aventures de la dialectique**, Idée/ Gallimard.
- Merleau-Ponty (M), **Eloge de la philosophie**, Idées/ Gallimard, 1960.
- Merleau-Ponty (M), **Sens et non sens**, Nagel, 1966.
- Merleau-Ponty (M), **Résumés de cours, 1952-1960**, Gallimard, 1982, Tel.
- Mésaventures de l'antimarxisme**
Les malheurs de Merleau-Ponty, Ed. Sociales, 1956.
- Miller J.A. **Lacan Omniscient** 1981
- Nancy J.L. et Lacoue - Labarthe (Voir Lacoue - Labarthe)
- Nancy J.L. "Nietzsche: Mais où sont les yeux pour voir?" *Esprit* n°369 Mars 1968.
- Nef (F), (Sous la direction de) **Structures élémentaires de la signification**, éd. complexe 1976.
- Nietzsche (F). **Humain trop humain**, T. I. & II, Trd. R. Rovini, Idées/ Gallimard, 1968.
- Nietzsche (F). **Le Crépuscule des idoles**, H. Albert. Mercure de France, 13ème éd. Paris, 1920.
- Nietzsche (F). **Considérations inactuelles**, 2ème série H. Albert. Mercure de France, Paris, 1922.
- Nietzsche (F). **Ecce, Homo** Trd. A. Vialatte, 21 éd. Gallimard, 1956.
- Nietzsche (F). **Le gai savoir**, introduction et Trd. de P. Klossowski, 10/18, C.F.L. 1957.
- Nietzsche (F). **Par delà bien et mal**, Trd. Heim idées Gallimard, 1971.
- Nietzsche (F) **Le livre du philosophe**, Trd A. K - Maritti, Aubier - Flammarion 1969.

- Nietzsche (F). *Généalogie de la morale*, Trd. A.K. Marietti, Coll. 10/18, U.G.E. Paris, 1974.
- Nietzsche (F). *Fragments posthumes XII*, trd. Hervier, 1978, Gallimard.
- Nietzsche (F). *Fragments posthumes XIV*, trd. J-C Hemery, 1977, Gallimard.
- Nietzsche (F). *Naissance de la tragédie*, Trd. C. Heim, Conthier, 1964.
- Nietzsche (F). *Aurore*, Trd. J. Hervier, Idées / Gallimard, 1970.
- Nietzsche (F). *Le nihilisme européen*, 10/18, Marietti, 1976.
- Nietzsche (F). *Nietzsche : vie et vérité*, textes J. Granier, P.U.F., 1971.
- Nietzsche aujourd'hui I & II, 10/18, U.G.E. 1973.
- Nietzsche Cahiers de Royaumont, Minuit, 1967.
- Ortigue (E), *Le discours et le symbole*, Aubier, 1962.
- Pautrat (B), *Versions du soleil*, Figures et structure de Nietzsche, Seuil, 1971.
- Piaget (J), *Le structuralisme*, Q.S.J. P.U.F.
- Pöggeler O, *La pensée de Heidegger*, Trd. M. Simon. Aubier - Mouton, 1967.
- Pontalis J.b. *Après Freud*, Idées / Gallimard, 1968.
- Pontalis J.b. *Entre le rêve et la douleur*, Gallimard, 1977.
- Reboul (J). "J. Lacan et les fondements de la psychanalyse", in *Critique*.
- A. Regnier, *Les infortunes de la raison*, Seuil, 1966.
- Renault A. "Système et histoire de l'être", in *les Etudes philosophiques*.
- Rey J.M., *L'Enjeu des signes*, Seuil, 1971.
- Rey J.M., "La Scène du texte" in *Critique* N° 271, Déc. 1969.
- Rey J.M., "La généalogie Nietzscheenne", in *Histoire de la philosophie sous la direction de Chatet*.
- Ricoeur (P). *De l'interprétation essai sur Freud*, Seuil, Paris, 1965.
- Ricoeur (P)., *Le conflit des interprétations*, Seuil, Paris.
- Ricoeur (P)., *La métaphore Vive*, Seuil.
- Ricoeur (P)., "Husserl et le sens de l'histoire", *R.M.M. TLIV* N° 3-4, Juillet - Oct. 49.
- Robinet (A) *dialectique et Histoire de la philosophie in la dialectique: actes du XIV congrès des sociétés de philosophie de la langue française*, P.U.F., 1969.
- Rosolato (Guy), *Essais sur le symbolique*, Seuil, 1969.
- Roudine Sco (E) "A propos du "Concept" de l'écriture" *Lecture de J. Derrida*,

- in la nouvelle critique* N° spécial littéraire et idéologie.
- Russel (B), *Signification et vérité*, Flammarion Trd. P. Devaux, 1969.
- Sartre, *Situations I*, Gallimard, 1947.
- Sartre, *Critique de la raison dialectique I*, Gallimard, 1960.
- Sasso R, G. Bataille / *le système du non-savoir*. Minuit, 1978.
- Schörer R & A.L. Kekel, *Heidegger ou l'expérience de la pensée* Seghers, 1973.
- Sebag L. *Marxisme et structuralisme*, Payot, 1964.
- Sojcher (J), *Nietzsche : la question et le sens*, Aubier - Montaigne, 1972.
- Sperber Dan, *Le Symbolisme en général*, Hermann, 1974.
- Sperber Dan, *Le savoir des anthropologues*, Hermann, 1982.
- Tort (M), "A propos du concept freudien de représentation", *cahiers pour l'analyse* n° 5.
- Trotignon (P), *Histoire de la dialectique de Kant à nos jours in les études philosophiques*.
- Vérdine (H), *Les philosophies de l'histoire*, Payot, Paris, 1975.
- Venault (H), "Histoires de...", *in magazine littéraire* n° spécial.
- Veyne P. *Comment on écrit l'histoire*, Seuil, Points, 1978.
- Vieillard - Barin (J-L), *Le Temps*, Vrin, 1978.
- Vuarnet J-N, *Le philosophe artiste*, U.G.E., 1977.
- A. De Waelhens, *La philosophie de M. Heidegger*, 6ème éd. Béatrice - Nanwe-laerts, 1969, Paris.
- Waelhens (A.Dc), *Phénoménologie et vérité*, 3ème éd. Béatrice - Louvain, Paris, 1969.
- Waelhens (A.Dc), "Identité et différence", Heidegger et Hegel, *in R. Internationale de philosophie*, N° 52, 1960.
- Wahl (J), *Vers la fin de l'ontologie*, Paris, 1956.
- Wahl (J), "La logique de Hegel", *in Critique* n° 79, Déc. 1953.
- J.V. de Wiele "La dialectique chez Heidegger, *in la Dialectique*, actes du XI congrès des sociétés de philosophies de la langue française. P.U.F., 1969
- Wittgenstein *Tractatus logico-philosophique*, Trd. P. Klossowski, Idées / Gallimard, 1961.
- Zaslowski Denis, *L'analyse de l'être*, Minuit, 1982, Collectifs.

Histoire de la philosophie, Sous la direction de Chatelet, T. 5 & 6 & 7 & 8.

Histoire de la philosophie, T. 3, la pléade,

Tel Quel: Théorie d'ensemble, Seuil, 1968.

Greph, Qui a peur de la philo., Flammarion, 1979.

Greph, états généraux de la philo., Flammarion, 1979.

Le temps et les philosophes, Payot, 1978.

Le centenaire du capital, Mouton, 1969.

Sur la dialectique, C.E.R.M., E.S. 77, Critique: N° spécial : la philosophie malgré tout.

cahiers pour l'analyse 1 & 2, 3ème éd., Seuil, 1966.

"Poétique", N° 21 & 5 Seuil.

"L'ARC", N° 70, La Crise dans la tête.

فهرس

5	تمهيد
11	مقدمة
21	القسم الأول : الميتافيزيقا ، الزمان والتاريخ
23	تمهيد
25	الفصل الأول : جينالوجيا الميتافيزيقا
39	الفصل الثاني : تقويم الميتافيزيقا
61	الفصل الثالث : خفيات الميتافيزيقا
75	الفصل الرابع : تفكيك الميتافيزيقا
83	خلاصة القسم الأول
85	القسم الثاني : الميتافيزيقا ، الهوية والحقيقة
87	تمهيد
89	الفصل الخامس : الهوية والاختلاف
99	الفصل السادس : النموذج والنسخة
107	الفصل السابع : الذات والموضوع
121	الفصل الثامن : الحقيقة والخطأ
133	الفصل التاسع : القراءة والكتابة
145	الفصل العاشر : المعرفة والسلطة
153	خلاصة القسم الثاني
155	خاتمة
159	المراجع

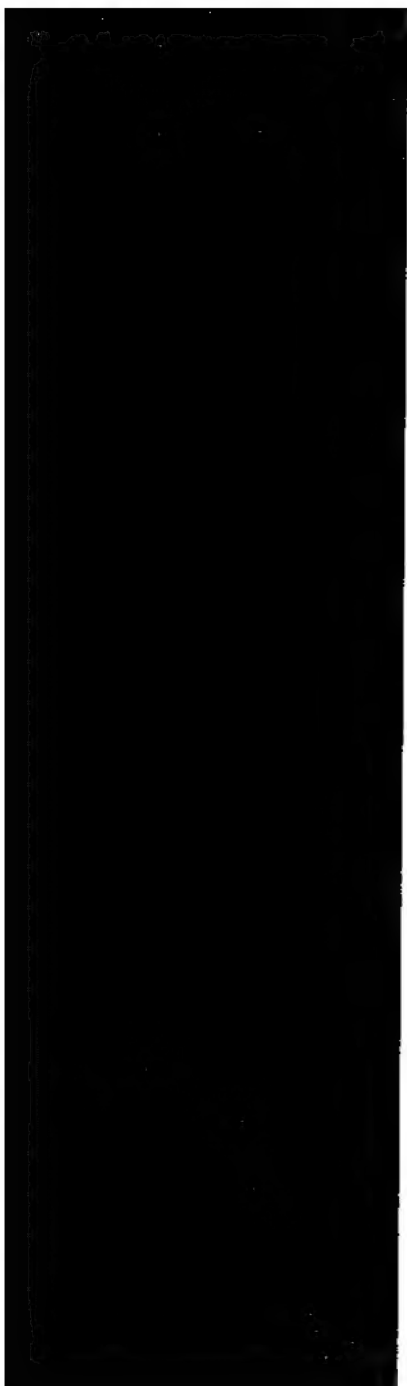
دار توبقال للنشر

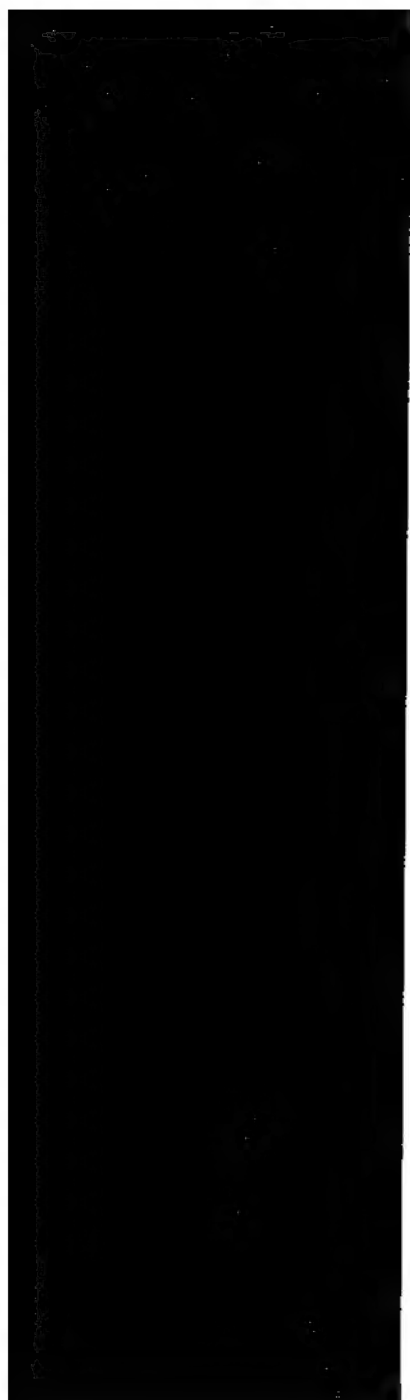
بمستواها العربي
تختار لك كُتُبا أَنْت بحاجة إليها

صدر

□ سلسلة المعرفة الفلسفية

- حوار فلسفي
- محمد وقيدي
- درس الإبيستيمولوجيا (ط. ثانية)
- ع. السلام بنعبد العالي وسالم يفوت
- المتن الرشدي، مدخل لقراءة جديدة
- جمال الدين العلوي
- التراث والهوية في الفكر الفلسفي في المغرب
- ع. السلام بنعبد العالي
- دروس في تاريخ الفلسفة
- د. نجيب بلدي / أعدها للنشر: الطاهر وعزيز
- وكمال عبد اللطيف
- ورقات عن فلسفات إسلامية
- محمد عزيز الحبابي
- جينيالوجيا المعرفة
- ميشيل فوكو / ترجمة: أحمد السطاتي وع. بنعبد العالي
- الكتابة والاختلاف
- جاك دريدا / ترجمة: كاظم جهاد
- كتاب الواحد والوحدة
- أبو نصر الفارابي / تحقيق د. محسن مهدي







[illegible]

يقابل الأمر الذي تصور بحراني والمطابق فيما عرضني في كل الأقسام من ذلك إلى
الأمر الذي يتفق معه بحسب بحراني في قولها أن أولئك الذين لا يستطيعون إدراك
الأسس الفكرية إنما ما درجته التي سمحت الفكرية عن تلك الفكرية المعاصرة
خارج من تصور العالم وشكل من أشكال الحقيقة وهي لا يتجلى لأي معنى حقيقي بل
خارجي أو فني. إن ذلك الذي يتصوره هذا الأمر إنما هو ما كانت إليه من
يحدد كل شيء لا يستلزم أن لا يكون من مظهر من المظهرات أو أن لا يكون
الأسس الذي إطار هذا الفكر الكوني. ولذا يتجلى أن يكون الفكر الذي يمكن
منه من كونه أصله للخيال في العالم والتسامح في الفكر الكوني. وبحارورة
الإنسان من حيث هي أشكال الخيال التي لا يمكن أن يكون لها معنى بل اليوم
من أن يجد نفسه بحراني في هذه القضية. ولذا من أن يطرح على الفكر بما هو
فكر كوني. وعندما أعلن فوكو في درسه الأخير: «أن عصرنا هو ذلك الانحدار
من قصة فعل الإنسان فهو لم يتصل في الحقيقة إلا على تطور أشكال الفكر الفلسفي
العامر. لذلك أن متجلى المقصود هنا من الفلسفة التي هي أكثر من كونها
التي لا يربطها من هنا يصبح هم الفلسفة بعدة هو محاولة الإجابة عن التساؤلات
وبحارورة

الطريق عن آخره. الفكر الفلسفي المعاصر إذن هو أشقاءه في الماضي. الفلسفة لهذه الإشكالية، ولها، تجدّد على أكتاف المتأخرين عن الزمير. معاليها الأساسيّة التي تحاول الفكر المعاصر أن يخلقها، تجمّع أدلة ذلك من الكتب، تجدّد